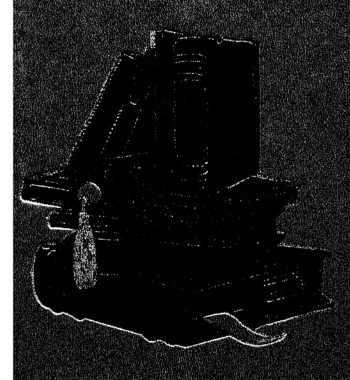
موسوعة
عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

المُوَحِّدُون الدُّرُوز

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثاني والعشرون

الموحّدون الدروز

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة : موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان

كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم

إسم الكِتَاب : المُوَحِّدُون الدُّرُوز

الجزء : الثَّانِي والعشرُون

المؤلّف : مجمُوعَة مِن كبَار البَاحِثين بإشراف ط. ب. مفَرِّج

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتَويَات

الفَصلُ الأوَّل

التَّعريفُ بالمُوحِّدِينَ الدُّروز

الفَصلُ الثَّانِي

أصُولُهُم العِرقِيَّة ونُزُولُهم فِي لُبنَان

الفَصلُ الثّالث

بَينَ الخُلَفَاء والمَمَاليك

الفَصلُ الرَّابع

فِي الحَقَبَة العُثمَانيَّة

الفَصلُ الخَامِس

بَينَ المصريِّين والعُثمَانيِّين

الفَصلُ السَّادِس

أعوَامُ الفِتنَةَ فِي لُبنَانَ وحورَان

الفَصلُ السَّابِع

المُوَحِّدونَ الدُّروز فِي التَّارِيخ المُعَاصِر

الفَصلُ الأوَّل

التَّعرِيفُ بالمُوحِّدِينَ الدُّروز

المُوحِّدُون الدُّروز وتَوزُّعهم؛ التَّعريفُ بالمُعتَقد وبالممَارَسة؛

مَسلِك توحِيديّ؛

خَصَائِصُ دينيّة؛ تَقَاليد أخلاقيَّة ودينيَّة؛

الدِّين والدَّولة؛ الخَصَائِص الأخلاقيّة.

الموحّدون الدُّروز وتوزُّعهم

إنّ مَن يتعمّق في دراسة أصل دعوة التوحيد التي يُطلق اليوم على أتباعها تسمية دروز، يجد أنّ هؤلاء الأتباع قد ظُلموا بتسميتهم دروزًا. أمّا التسمية المعبّرة عن حقيقة معتقدهم، فهي تسمية الموحّدين. إلاّ أنّه أصبح من المستحيل تصحيح ذلك الخطأ الشائع في التسمية التي لازمت الموحّدين على مدى ما يزيد على الألف سنة، وأصبح من المتعارف عليه عند الباحثين المجرّدين أن يُطلقوا تسمية "الموحّدين الدروز" على أتباع هذا المذهب.

تتوزّع أكثريّة الموحّدين الدروز اليوم على مثلّث يكاد يكون متّصلاً على الصعيد الجغرافيّ، أمّا على الصعيد الجيوسياسيّ، فهو موزّع بين لبنان وسورية وفلسطين المحتلّة.

في لبنان، يتوزّع الدروز بين جبل لبنان والبقاع والجنوب. ففي الجبل يقطنون أقضية بعبدا (المتن الأعلى) وعاليه والشوف، وأقلّيّة منهم تقطن بعض القرى العليا من قضاء المتن الشماليّ، والباقون موزّعون بين قضاء البقاع الغربيّ وقضاءَي حاصبيّا ومرجعيون وبيروت.

وتشكّل منطقة وادي التيم من لبنان قيمة معنويّة هامّة بالنسبة لهم، لأنّها تعدّ مهد دعوة التوحيد، وأقدس أماكنهم هي تلك المعروفة بخلوات البيّاضة بالقرب من حاصبيّا.

وفي سوريا، يتركّز وجود الموحّدين الدروز في جبل حوران المعروف بجبل العرب وبجبل الدروز، والواقع في الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة للدولة السوريّة. وهو جبل يرتفع عن سطح البحر ما بين ٦٠٠ و ١٥٠٠ متر. وتوجد جماعات صغيرة منهم في غوطة دمشق وفي جهات حلب في الجبل الأعلى.

أمّا في فلسطين فيقطن الموحّدون الدروز قرى صفد وسفح جبل الكرمل[١]. وتستوطن أكثريّتهم القرى الشماليّة التابعة لعكا وطبريّة وبعض القرى التابعة لمنطقة حيفا، ويبلغ مجموع القرى التي يقطنونها ١٧ قرية.

وبحسب بعض المراجع الحديثة[٢]، يبلغ اليوم المجموع التقريبيّ لعدد الموحّدين الدروز في هذا المثلّث الجغرافيّ نحو مليون نسمة. وهناك بضعة آلاف منهم في بلدان الاغتراب.

---

١ ـ موسوعة الأديان الميسّرة، دار النفائس، ط٢ (بيروت، ٢٠٠٢) ص٢٤٣.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل، بيروت ـ القاهرة ـ مصر، والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، ط٢ (٢٠٠١) ٢: ١٠٩٠.

التَّعريفُ بالمُعتَقد

وبالممَارَســـــة

أحد علماء الموحّدين الدروز المعاصرين[١]، حدّد معتقد الموحّدين الدروز بأنّهم يؤمنون بالإسلام دينًا، وبمحمّد ﷺ رسولاً. يشهدون أن لا إله إلا اللّـه وأنّ محمّدًا عبده ورسوله[٢].... وذكر أنّ "الموحّدين يكرهون إطلاق تسمية الدروز عليهم، وهو نسبة إلى محمّد بن إسماعيل المعروف بنشتكين الدرزيّ (لع)، الذي كان في عصره كبعض الفقهاء الذين لا همّ لهم إلا تفريق المسلمين، يتقيأون الفتاوى المغرضة بمناسبة ودون مناسبة خدمة لأسيادهم الصهاينة والمستسلمين لهم. وقد شوّه نشتكين الدرزيّ المذكور دعوة التوحيد الإسلاميّة فقتله الموحّدون، ولا يزالون إلى يومنا هذا، كلّما ذكروه، لعنوه ولعنوا أمثاله في كل عصر ومصر[٣].

ويعتبر بعض علماء الدروز[٤] أنّ الصلاة هي عمود الدين ومن أهمّ العبادات، لأنّها ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[٥]

ومَن لم يقم بها، إنكارًا لها، فهو من الكافرين؛ ومَن يقصِّر عن أدائها مع إيمانه بوجوبها فهو من الفاسقين.

---

١ ـ نصر الشيخ مرسل، رئيس المحكمة الاستئنافيّة الدرزيّة العليا، في كتابه: الموحّدون الدروز في الإسلام، منشورات الدار الإسلاميّة (بيروت، ١٩٩٧) ص٣٣.

٢ ـ جاء أيضًا في التعريف نفسه أنّهم يُقرّون بموجب الصلاة والصيام والزكاة والحجّ والجهاد والولاية. وأنّ معتقد التوحيد يرتكز على ستّة أركان هي: الصلاة، الزكاة، الحجّ، الجهاد، والولاية.

٣ ـ سيكون لنا عودة مفصّلة إلى موضوع نشتكين الدرزيّ في سياق النصّ.

٤ ـ المرجع السابق.

٥ ـ من الآية ١٠٣ من سورة النساء.

ويقول المصدر نفسه:

يتحلّق الموحّدون للمذاكرة، في المجالس الخاصّة والبيوت، عملاً بقول الرسول ﷺ: صلّوا في بيوتكم فإنّ خير الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة[1].

والموحّدون يفضّلون السرية في الصلاة عملاً بقول أمير المؤمنين عليه السلام: "صلاة السرّ تزيد على الجهر بسبعين ضعفًا". ويعقبها المذاكرة في علوم القرآن الكريم وسنّة رسوله ﷺ وأقوال الأئمّة رضوان اللّه عليهم ابتداء من مولانا علي بن أبي طالب مرورًا بالباقرَين عليهم السلام ولغاية الإمام الحاكم بأمر اللّه (ص)، وهنا يكون للعرفان المنبثق من آيات اللّه البيّنات مجاله الواسع يأخذه كلّ من الحاضرين بمقدار فهمه، وصفاء نفسه[2].

---

١ ـ انظر الجامع الصغير ج ٢ ص ٩٦ ـ ١٠٨؛

٢ ـ قابل المرجع الأسبق (نصر، الموحّدون الدروز في الإسلام) حيث جاء: قد يتساءل البعض لماذا لا يصلّي الموحّدون في الجوامع؟ ولماذا لا يبنون الجوامع؟ أمّا الجواب: فإنّ بعض قرى الموحّدين الدروز كانت تضمّ المساجد منذ زمن بعيد، وبعد أن احتلّت تركيا البلاد العربيّة، وقادها حبّ السيطرة وأحكامها إلى استصدار فتاوى من ضعاف النفوس لتفرقة الأمّة وتكفير الموحّدين، أقدمت على تهديم الجوامع في مناطق الموحّدين الدروز، وأقامت المجازر حتّى في داخل الجوامع، ممّا حدا بالأئمّة، آنذاك، إلى مخاطبة المؤمنين لإقامة الصلاة في مجالسهم الخاصّة، خوفًا من غدر العثمانيّين بهم، إلى أن يقضي اللّه أمرًا كان مفعولاً. ولكنّ المدّة طالت على هذه الحال وأصبحت إقامة الصلاة في المجالس الخاصّة عادة، والعادة، كما نعلم، إذا استمرّت، أصبحت عرفًا، والعرف، إذا استمر، أصبح تقليدًا يلصق خطأً بالعقيدة، وإن كان هذا الأمر يرفضه المتنوّرون من أبناء التوحيد، فهم ينادون بإقامة المساجد رغم الظروف الماديّة الصعبة، وبعض العقليّات التي استفاقت على عرف معين لا تريد تغييره، وهي أن تبقى الصلاة في المجالس الخاصّة والبيوت... والصلاة عند الموحّدين هي كالصلاة عند السنّة والشيعة مع اختلاف بسيط لجهة شكليّات الصلاة، فوضع اليدَين عند أسفل الصدر أو إسبالهما على جانبَي الجسم، فكلا الحالَين مقبول عند الموحّدين لأنّهم يركّزون على النيّة في إقامة الصلاة، وتركيز الفكر في مخاطبة ربّ العالمين أثناء القيام والركوع والسجود، ويعتبرون أنّ الصلوات المفروضة يوميًّا خمس: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ومجموع ركعاتها سبع عشر ركعة، ويمكن تقصير الرباعيّة منها إلى النصف في حالات السفر والخوف؛ وكذلك صلاة الجمعة تُختصر إلى ركعتَين، وبعد القيام بالصلاة، كما ورد آنفًا، يتحلّق الموحّدون

ويتميّز الموحّدون بالصرامة[1] في معاملة المريدين، فهم لا يسمحون لهم بممارسة الصلاة إذا لم يكونوا ملتزمين بالأخلاق العالية، وصدق اللسان، وحفظ الإخوان، والبراءة من الأبالسة والطغيان، والرضا والتسليم بكل مقدر في السرّ والحدثان. فإنْ أتاهم زان أو سارق أو كاذب، أبعدوه من مجالس الصلاة والذكر، فلا يقبلون منه صلاة حتّى يتوب توبة نصوحًا يشهد إخوانه بالإستقامة والاقالة ممّا ارتكبه من الإثم العظيم[2]. ويكثر من رجائه لشيوخه لقبوله في مجلسهم وحضور صلاتهم

للمذاكرة... وقد أورد "نصر" هنا هذه الحاشية: عندما كان الموحّدون يجتمعون للصلاة في المجامع، فبعضهم يصلّي صلاة الشيعة شكلاً ومضمونًا، وبعضهم يصلّي صلاة السنّة، وبلغ الأمر بين الفريقَين إلى الخلاف الشديد حتّى بدأوا يكفّرون بعضهم بعضًا بسبب شكليات الصلاة والوضوء أيضًا. والسبب في عدم توحيد الصلاة بينهم، أنّ بعض العشائر السنيّة دخلت الدعوة الفاطميّة واستمرّت بصلاتها وفقًا لشكليّات الصلاة السنيّة، بينما الفريق الآخر كان على المذهب الشيعيّ، وعندما استجاب لدعوة الفاطميّين بقي محافظًا على صلاة الشيعة شكلاً ومضمونًا. وكان الجهل سيّد الموقف كما هو الحال عند البعض في أيامنا، حيث يجعلون من الشكل قضيّة دونها قطع الرقاب. وتنبّه أئمّة التوحيد إلى هذا الأمر الخطير، وأصدروا فتواهم بشأن شكليّة الصلاة، واعتبروا بأنّ الأصل في الصلاة النيّة والتوجّه بقلب خاشع إلى خالق الأرض والسموات.

١ ـ يعتبر "نصر" أنّ هذا التزمّت أبعد الكثير من أبناء التوحيد عن ممارسة الصلاة، حتّى شاع بين بعضهم أن لا لزوم لها، وقام المغرضون بتشجيعهم على ذلك وأخذوا يبرّرون التقصير بحجج واهية وأسباب بعيدة عن منطق الدين، وشيوخ المذهب يقيمون الصلاة بأوقاتها مع مَن يرون فيه الإستقامة والطهارة والعقيدة الصحيحة في الإسلام ورسوله وأئمّته ولا يقبلون مجادلة أهل الجهل (الجهل في منطق الموحّدين: من جهل إمام الزمان وتعاليم القرآن.)

٢ ـ أورد "نصر" هنا هذه الحاشية: لا تصحّ صلاة الآثم عند الموحّدين إلا بعد التوبة. وللتوبة شروط قاسية لا يتّسع المجال لذكرها، وقد روي في نهج البلاغة أنّ قائلاً قال بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام: استغفر اللّه فقال له: "ثكلتك أمك أتدري ما الإستغفار؟". إنّ الإستغفار درجة العليّين، وهو اسم واقع على ستّة معان: أوّلها الندم على ما مضى، الثاني العزم على ترك العود إليه أبدًا، والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى اللّه سبحانه أملس ليس عليك تبعة، الرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقّها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول استغفر اللّه. وهكذا فإنّ شيوخ المذهب الأتقياء لا يكتفون من الآثم بالإستغفار السطحيّ دون ندامة وعزم على عدم العودة إلى الذنب أبدًا وإرجاع الحقوق للخالق، والمخلوق، وهكذا فإنّنا نستغفر اللّه من استغفارنا...ويقول الشيخ كرسل نصر: كم كنّا نطلب من حضرات المشايخ الأجلاء السماح للآثمين أن يتابعوا صلاة السنة على الأقلّ دون الغضب عليهم وإبعادهم نهائيًا من ممارسة الطقوس، فيأتي الجواب أنّ الآثم لا يشرّف بإقامة الصلاة إلاّ بعد أن يصبح طاهرًا في ظاهره وباطنه.

ومذاكراتهم العرفانيّة.

وشيوخ الموحّدين يقتدون بمَن سبقهم من علمائهم كالأمير السيّد عبد اللّـه التنوخي (قد) والسيّد الشيخ الفاضل أبي هلال الذي كان يعامل المقصّرين في صلاة السنة بالطرد من مجالس الصلاة والذكر، فمَن قصّر عن الصلاة يومًا يُبعد عن المجالسة يومًا فإذا استمرّ التقصير يُعتبر متخلّفًا عن إقامة الصلاة المفروضة ويُعتبر آثمًا ويعامَل على هذا الأساس معاملة قاسية في الهجر والإبعاد.

ويذكر بعض المراجع[1] أنّ ممارسة الشعائر، وإن لم تكن فرضًا ملزمًا، فإنّ مسلك التوحيد يوصي بالحفاظ على سنن الشريعة وتكاليفها. يقول بهاء الدين في رسالة البنات الكبيرة: "واعلمنّ أنّما تسقط مكلفات الشرع عن الجوارح والأجسام إذا عمل المؤمن بفكره في حفظ العلوم والحقائق الإلهيّة المؤدية إلى التوحيد".

---

١ ـ موسوعة الأديان الميسّرة، مرجع سابق، ص٢٤٤؛ قابل: نصر الشيخ مرسل، الموحّدون الدروز، مرجع سابق، ص٣٦ ـ ٣٨، حيث جاء أنّ أنّ الموحّدين الدروز يعتقدون أنّ الصوم من أركان الإسلام، وهو واجب على كلّ مكلّف لا يحول مانع من القيام به، ويعتقدون بقول رسول اللّه ﷺ في شهر رمضان أوّله وأوسطه مغفرة وآخره الإجابة والعتق من النار، وأنّ الصيام شرعًا هو الإمساك عن المفرطات من أوّل الفجر إلى المغرب الشرعيّ مع نيّة القربة والتوبة، ويجب أن يكون الصيام صيانة للنفس عمّا يحرّمه اللّه من الشهوات والآثام الظاهرة والباطنة ، كالشرك باللّه، وسوء النيّة، والغفلة عن ذكر اللّه، وزنا الفكر، والحقد والحسد... والموحّدون يركّزون على الصون مع الصيام، أي صون الجوارح عن ارتكاب الآثام. وأنّهم يعتقدون أنّ الزكاة من الأركان التي بُني عليها الإسلام. غير أنّ تغيير الأزمان وفساد الحكّام جعل أبناء المذهب يتراخون في تطبيق هذا الركن، وقد ترك الأمر على سجيّة القادرين الذين يقدّمون ما تسمح به أنفسهم زكاة عن أموالهم لبعض جهات البِرّ. وكان بعضهم يتبنّى الخمس. وأنّ الحجّ هو واجب على كلّ مكلّف مستطيع، وكان كثير من الموحّدين يتوافدون علىالحجّ المبارك، إلاّ أنّه في سنة ١٧٠٣م، قُتل من الحجّاج الموحّدين ٦٢ حاجًا، لا لشيء، ولكن تنفيذًا لمؤامرات التعصّب والتكفير، ومنذ ذلك الوقت أوقف الخوف الموحّدين من الحجّ. وأنّ الجهاد هو من أركان الإسلام، وواجب القيام به للدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين، وعن عرضهم وأرضهم. ومن هذا المنطلق كان للموحّدين قصب السبق في الثورات والقتال في سبيل عروبتهم وإسلامهم، وقد سُمّوا بحقّ سيف الإسلام، لأنّهم يعملون بوحي عقيدتهم في الجهاد دون تباطؤ أو تواكل. وأنّ الولاية هي الركن السادس الذي يعتقده الموحّدون. ويعتقدون أن لا إسلام بدون ولاية.

وتوصي كتب الموحّدين الدروز بخصال سبعة هي كالفرائض، أولها: صدق اللسان؛ وثانيها: حفظ الإخوان؛ وثالثها: ترك عبادة العدم والبهتان؛ ورابعها: التبرّؤ من المعتقدات التي تنافي التوحيد والبراءة من الأبالسة والطغيان؛ وخامسها: الاعتقاد بأنّ مذهب التوحيد كان في كلّ عصر وزمان؛ وسادسها: الرضى بفعل الله كيفما كان؛ والسابعة: التسليم لأمره في السرّ والحدثان[1].

وكان الإمام الحاكم بأمر اللّه، بغية توحيد المسلمين تحت لواء الدولة الفاطميّة، قد جاهد ضدّ التعصّب وجعل المالكيّة يدرسون مذهبهم بدار الحكمة، وقد منع الحاكم سبّ السلف ممّن تقدم على عليّ عليه السلام، وأصدر سجلاً ليقرأ في كلّ مكان على جميع الناس في رمضان ٣٩٨ هذا نصّه:

> بسم اللّه الرحمن الرحيم. من عبد اللّه ووليّه علي الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين، إلى كلّ حاضر وباد. أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب اللّه المبين ﴿لا إكراه في الدين﴾ مضى أمس بما فيه وجاء اليوم بما يقتضيه، الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد بينهم مستقبح. الا من شهد الشهادتين أحقّ أن لا تنفكّ له عروة، ولا ترهق له قوّة. بحيٍّ على خير العمل يؤذّن المؤذّنون ولا يؤذنون، ويخمّس المخمّسون ويربّع المربّعون في الصلاة على الجنائز، ولا يُشتم السلف ولا ينبغي الخالف على من قبله خلف. تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون... نحن الأئمّة وأنتم الأمّة، عليكم أنفسكم، ولا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى اللّه مرجعكم جميعًا، فينبئكم بما كنتم تعملون. والحمد للّه رب العالمين وصلواته على رسوله محمّد وآله الأكرمين[2].

---

١ ـ موسوعة الأديان الميسّرة، مرجع سابق، ص٢٤٤.

٢ ـ نصر الشيخ مرسل، الموحّدون الدروز، مرجع سابق، ص٤٢، عن: تامر د. عارف، الحاكم بأمر اللّه، ص٩٠، رسائل الحاكم لدى طائفة الموحّدين؛ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٣٣، عن: عنّان محمّد عبد الله، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميّة، نشر مؤسّسة الخانجي (القاهرة،١٩٥٩) ص٧٧.

ويلاحظ الشيخ مرسل نصر "من نصّ السجل أنّ الإمام الحاكم (ع) كان يدعو لعدم التعصّب لمَا في ذلك من إحراج وإخراج، وكان يجاهد في الصلاح والإصلاح بين الناس، ومنع شتم السلف حفاظًا على وحدة المسلمين ولمّ شملهم. ويختم هذا التعريف بالتالي:

هذه هي عقيدتنا نحن المسلمين الموحّدين، وهذا ما يتمسّك به شيوخنا الأجلاّء المتنوّرون، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يرضون عن الإسلام بديلاً. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. والمنكر لهذه الأركان فهو من الكافرين ومصيره جهنّم وبئس المصير. ونسأل اللّه أن يلهم المقصّرين الصواب، ونستحثّهم على القيام بما فرضه اللّه تعالى من الصوم والصلاة والزكاة والحجّ، ولا ينسوا إمام زمانهم فمن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة. وكلّ من ينكر هذه الدعائم فهو من المرتدّين والمشركين والعاملين على تخريب الإسلام والمسلمين، خدمة للصهيونيّة والإستكبار العالميّ ولإذلال هذه الأمّة. ونطلب من اللّه أن يسامح مَن افترى علينا، ونسأله أن يلهمه الصواب، وإذا استمرّ المغرضون على عنادهم وذمّهم لأبناء التوحيد فنسأل اللّه أن يعاملهم بعدله، ويزيد أجر الأبرياء إنّه سميع مجيب[2].

---

١ - آل عمران: ٨٥.

٢ - نصر الشيخ مرسل، الموحّدون الدروز، مرجع سابق، ص٤٣.

مَسلِــــك
تَوحِيديّ

وفي تعريف مقتضب عن معتقد التوحيد، اتّفق عليه علماء الموحّدين الدروز، جاءَ بأنّ "معتقد التوحيد (الدرزيّة) هو في نظر الموحّدين مسلك توحيديّ استجاب إلى الإسلام واندرج فيه، غير أنّه كان مستبطنًا أيضًا في الشرائع التي تقدّمت الإسلام، وهو يتّخذ القرآن الكريم أساسًا، ويستمدّ من معانيه المستعلية حقيقته، كما أنّه يقدّس سائر الكتب السماويّة"[1].

ودعوة التوحيد "لا تدخل في أيّ اختلاف مع أيّ دين آخر، فإنّ... مسلك الأحديّة، ليس نظامًا دينيًّا، على حدّ تعبير الحكيم - شري أتماننداا الفيدنتي - ونستعيره لأنّ هذه الشروح أوضح من سواها، وهو... نهاية كلّ معرفة، هو الحقيقة وحدها، تشير وتدلّ إلى الحقيقة، ولا تدخل في أيّ اختلاف أو مشاحنة مع أيّ دين أو معتقد آخر، بل إنّها تقول فقط لجميع المتديّنين: يا صاحبي، أنت قدر ما ذهبت إليه، وفي صواب وسلامة، لكن إرتفع وتوغّل أكثر وأعلى. والفيدنتا[2] لا تختصُّ بأي دين معيّن، ولكن تتعدّاها جميعًا، هي في الواقع تتميم وتكملة لجميع الأديان، هذه هي الأمّويّة، أو التوحيد المحض، التي تقيم في المرتكز الورائي للمعتقدات، وهي التي تعطي حياة لجميع الأديان"[3].

---

١ ـ مكارم د. سامي نسيب، أضواء على مسلك التوحيد "الدرزيّة"، دار صادر (بيروت،١٩٦٦) ص٨١.

٢ ـ **الفيدنتا:** التوحيد المحض، كما جاء تفسيرها في المصدر السابق (مكارم)

٣ ـ جنبلاط كمال، في مقدّمته لكتاب الدكتور نسيب مكارم، المرجع أعلاه.

خَصَائِصُ
دينيّـــة

حدّد بعض علماء الموحّدين الدروز المعاصرين الفوارق بين مذهب التوحيد وبقيّـة المذاهب الإسلاميّة بالتالية: ١ ـ إعتماد الزوجة الواحدة عند الموحّدين؛ ٢ ـ وعدم إعادة المطلقة؛ ٣ ـ وحريّة الإيصاء؛ ٤ ـ والتقمّص إجتهادًا[١].

ويذكر بحّاثة موحّد درزيّ آخر[٢] أنّ الموحّدين الدروز قد انفردوا بعدّة خصـائص، تُخالف السنّة، وانتشرت دعوتهم بادئ الأمر بيـن الإسماعيليّين، حتّـى غدت العقيدتـان مختلطتَين، إلى أن انفصل الموحّدون الدروز بمذهبهم الدِينيّ المستند إلى رسائل الدعـاة التي تشرح مذهبهم، وتسمّى: الحكمـة. وهـم يهتمّـون بتنفيذ بـاطن الدعـائم الإسـلاميّة: فعندهم الصلاة بكيفيّة خاصّة، وحفظ الصلة بين الإنسان وخالقه، والزكاة تزكية القلـوب وتنقيتها من المفاسد، وتطبيق نصّ آية سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِـي سَبِيلِ اللّـهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٣]. والصوم متى شاء المرء لوجه الله وخاصّة العشر الأوَل من ذي الحجّة، وصوم الجسد والنفس من المعاصي جاءَ في الحديـث: ـ مَن لـم ينقطع عن قـول الـزور والعمـل بـه فليـس للّـه حاجـة فـي أن يـدع طعامـه وشـرابه ـ. والصّمت عن الآثام بقوله تعالى لمريـم: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[٤].

---

١ ـ نصر الشيخ مرسل، الموحّدون الدروز، مرجع سابق، ص٥١، حيث يمكن مراجعة الشروح الكاملة لهذه الفوارق.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٣٦.

٣ ـ التوبة: ٦٠.

٤ ـ مريم: ٢٦.

والجهاد عندهم جهادان: الأكبر، وهو مقاومة ما تأمر به النفس من السيّئات وردعها عن الرذائل، والأصغر وهو مقاتلة كلّ مُعْتَد ومقاومة كلّ ظالم والدّفاع عن الحقّ وصيانة الأعراض.

ومن مبادئهم الدينيّة: الصدق. فمَن لم يصدق بلسانه فهو بالقلب أكثر نفاقًا. وحفظ الإخوان، وترك عبادة العدم، وتوحيد الخالق، والرضى بفعله والتّسليم لأمره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويعتقدون بظهور نور الله في الناسوت[١]، وأنّه منزّه عن الأسماء والصفات، ليس له نفس ولا روح ولا شخص ولا جسم ولا شبح ولا صورة ولا بداية ولا نهاية، عادل بفعله قادر لا مردّ لحكمه، إن أثاب فبفضله، وإن عاقب فبعدله. ويؤمنون بالملائكة والأنبياء والرسل والقضاء والقدر "ويعتقدون بأنّها تهدف لغاية واحدة، وبأنّ الأنبياء ممثّلون لروح واحدة نطقوا بدعواتهم بأسُس متشابهة، وبأنّ كلّ دين يؤيّد ما سبقه، وكان جدود التوحيد ينصرون كلّ نبيّ بعصره لاشتهار أمره وتعزيز رسالته".

---

١ - شرح الباحث الناسوت بأنّها لفظة سريانيّة، يُراد بها التجليّ، أي ظهور العزّة الإلهيّة في صورة بشريّة كما تظهر الشمس في المرآة، دون أن تكون محصورة فيها، أو يحدث لها نقص في حرّها أو نورها. ولهذا فإنّ الموحّدين الدروز يقدّسون الأئمّة الفاطميّين: القائم، والمنصور، والمعزّ، والعزيز، والحاكم. وقد ذكر ابن خلّكان أنّ الخلفاء الفاطميّين كانوا يظهرون بمظهر القدسيّة والارتفاع إلى ما فوق البشر.

تقاليـــــــــد
أخلاقيَّة ودينيَّة

للموحّدين الدّروز خلوات أشبه ما تكون بالمساجد، لا منابر لها ولا مآذن، يسمّونها المجالس، يجتمعون فيها بأوقات معيّنة في الليل والنهار للقيام بفروض العبادة التي لا يجوز الاشتراك بها إلاّ للأشخاص المشهود بحسن سلوكهم، واجتنابهم لكلّ عمل مُشين. وإذا أراد أحد من الجهّال الدخول في مسلك رجال الدين، ينبغي له أن يستجلب رضاهم وأن يتعهّد التمسّك بتعاليم الدين الآمرة بالمعروف والناهية عن المُنكر، وبعد أن يقسم اليمين عن الزنى والقتل ـ ويُستثنى القتل في حرب مشروعة ضدّ الأعداء ـ يُسمح له بمطالعة الحكمة، ومَن اقتنع يُسمح له بقراءَة كتب شرح الحكمة التي وضعها السيّد الأمير التنّوخي، وهو شرح جامع للأوامر الدينيّة ونواهيها والتعاليم الإجتماعيّة والأخلاقيّة والصحيّة وأصول الزواج وتحديد النسل وما يتّفق والنظريّات الاجتماعيّة الحديثة.

ولا يُباح للجهّال من الدّيانة غير معرفة المسائل الأوّليّة من الدين. ومن العقّال طبقة أتقياء يُقال لهم المتنزّهون، وهم مثابرون على العبادة والورع ولا يأكلون شيئًا من بيت أحد من غير العقّال. والعقّال يعتقدون أنّ أموال الحكّام والأمراء حرام[1]، وينزّهون ألسنتهم عن بذيء الكلام والشتم والسباب والطعن وعن القسم بالله، وعن المبالغة في الكلام، وعدم التهوّر في الأعمال والأقوال؛ ويحرصون على التأنّي والرزانة والعفّة والحلم والبساطة في المأكل والمشرب والمفرش، ويجتنبون التبغ

---

١ ـ ذكر المرجع (سعيد الصغير) أنّ "السيّد الأمير والشيخ الفاضل حرّم أموال الحاكم، لأنّ البلاد كانت خاضعة بزمنها للحكم الاقطاعيّ والسيطرة العثمانيّة، فكان جور أمراء البلاد وولاة الأتراك واغتصابهم لأموال الرعيّة باسم جباية الأموال الأميريّة سببًا رئيسًا دعاهما لتحريم أموال الحكّام وكلّ متّصل بهم، وسار على هذه القاعدة كافّة رجال الدين، وهم يمتنعون عن تناول الطعام في المآتم".

وسائر أنواع المكيّفات والمخدّرات والمسكرات التي هي محرّمة تحريمًا كليًّا ومحظور المتاجرة بها، ويمنعون القمار وأشكاله، ويحرّمون الكذب ويأمرون بالصدق الذي هو رأس الفضائل.

ويقول الكاتب اللبنانيّ المارونيّ الشهير، مارون عبّود:

إنّ الصدق عندهم رأس الإيمان وهو يمثّل العقل، أمّا الشيطان فيمثّل الكذب، فإذا قال "جويّد[1]" منهم كلمة فعليه أن يقوم بها.

والله هو معلّل العلّة الأولى ومبدع الكون ومدبّره، وهو منزّه مستريح. والعقل الإنسانيّ عندهم نوعان: جسمانيّ وروحانيّ، فالجسمانيّ هو العقل المعلوم، والروحانيّ هو عقل أرسطو. الجسمانيّ فعّال ومنفعل يتأثّر ويؤثّر وهو يمثّل العقل الروحانيّ في فضائله وأعماله الحسنة.

وعندهم أنّ الجسد قميص يَبلى ويُنزع ثمّ يؤخذ غيره، والنفوس هي هي لا تزيد ولا تنقص، وما الجسد إلاّ وسيلة لإظهار القوى الروحيّة.

أمّا الحساب، فهو دينونة الشخص باعتباره كائنًا خالدًا، ويحاسَب على ما مرّ به من أطوار في ملايين السنين التي عاشتها روحه، أمّا الثواب فيكون بالملذّات الروحيّة

---

[1] ـ جويّد ـ وجمعها: أجاويد ـ هو العاقل ـ وجمعها عقّال ـ وهم مَن عرفوا أسرار الدين، على عكس الجهّال، الذين جهلوها. والأجاويد ـ العقّال، هم من الورع والتّقوى والمعرفة في الدين على درجات. وأرفع هؤلاء: المتنزّهون، الذين يثابرون على العبادة والورع. ومنهم مَن لا يتزوّج، ومنهم مَن يتزوّج زواجًا نظريًّا، هدفه القيام بالشؤون المنزليّة فقط، ومنهم مَن لم يأكل لحمًا طيلة عمره. ومنهم مَن يصوم كلّ يوم، ومنهم مَن لا يأكل فاكهة. والشره مكروه عندهم. وللنساء العقل في الدين كالرجال. وليس لجاهل أن ينتظم في سلك العقّال إلاّ بعد التماسه ذلك مرارًا من عقّال قريته. ولا يجيزون له تلاوة الرسائل الدينيّة إلاّ بعد أن يروا حسن سيرته ومعرفته وتعقّله، وكلّما صلحت أحواله كانت طبقته في العقل أعلى، وكلّما تجافى على أمور الدنّيا وأشيائها ازدادت الثقة به. وعليه التحلّي بالعفاف والطهارة والعقل الجميل والكرم والعلم وخوف الله وطاعته وتسبيحه وتقديسه. ومن أقوالهم: "الدين قول باللسان، وتصديق بالجنان، والعمل بالأركان، وإنّ وجوده لخير البشريّة وزرع المحبّة بين عباد الله".

لا الجسديّة. ففي الملكوت الفاطميّ تتنقّى النفوس وتتطهّر في نقلها من قميص إلى قميص - أي من جسد إلى جسد - فلا تُلاقي عناء ولا جهدًا.

وهم يعتقدون أنّ سبب وجود الكون هو أنّ الله عندما أوجد الطبائع الأربع: الحرارة، والبرودة، واليبوسة، والرطوبة، أوجد "الهيوليّ" مدبّرًا لها؛ فتولّد من الحرارة واليبوسة النار، ومن النار الهواء، وتولّد من البرودة والرطوبة الماء، ومن زبد الماء الأرض، التي وجد فيها المعادن والنبات والحيوان، فلمّا كمُل احتياج الإنسان، انبدع الجسم البشريّ، وذلك منذ حوالى ثلاثمئة وثلاثة وأربعين مليون وسبعة آلاف وثلاثماية وخمسين سنة.

وعندهم أنّ الروح تنتقل من الجسم الميت إلى المولود في اللحظة ذاتها، روح الذكَر للمولود الذكَر، وروح الأنثى لمثلها، وتمرّ النفس في دورانها بحالات مختلفة، تظلّ كذلك، إذا كانت صالحة، حتّى تتطهَّر، وبعد هذا التطهير يكون الزمن الذي يعقب قيام القيامة التي تترقّبها جميع الأديان، وهو زمن يسود فيه العدل، لا قويّ ولا ضعيف، نظمه كلّها واحدة، وحكومته واحدة، لا عذاب فيه ولا شقاء. أمّا النفس الشرّيرة فتظلّ معذّبة بجميع أنواع العذابات المعروفة، والعذاب الأكبر هو عذاب الضمير وعذاب الندم على ما فات لأنّها لم تنتفع من أدوارها الماضية. أمّا النفوس الصالحة فتكتسب الجمال والعمر الطويل (١٢٠ سنة) وراحة الضمير والابتعاد عن الأمراض والمصائب، فليس هنالك سوى غبطة روحيّة في دهر لا نهاية له، ويغيّر النظام الأرضيّ ويحلّ محلّه نظام إلهيّ، يحكمه الإمام الممثّل بالعقل. والخير عندهم يمثّل العقل، وبعمل الخير تنفّذ إرادة العقل الذي هو الإمام، وبهذا يُكتسب الأجر.

وعندهم وجوب التّوبة قبل العجز، ويسمّون توبة كبير السن توبة فزع.

وللعلم عندهم شأن، فهم يتبرّأون من الجهّال.

ومع محافظتهم على ظاهر الطهارة ووقوفهم عند اعتبار أنّ النظافة من الإيمان، فعندهم أنّ العلم الصحيح يطهّر النفس، فالعلم للنفس كالماء للجسد.

وعندهم أنّ الحلال هو أكل الخبز بعرق الجبين، ويحصرون الحلال في الفاعل والزارع. ومال الوقف لا يأكله نقيّ وقور.

وأجاويدهم لا ينتحبون على فقيد مهما عزّ وغلا، ومن مأثوراتهم:

"إذا أُصبتم بعزيز فعليكم أن تصبروا لئلاّ تفقدوا الأجر، فمَن جزع من قضاء الله عبر به القضاء ولزمه الإثم، ومَن صبر على القضاء خفّ عنه المصاب ولزمه الأجر".

ومن كلامهم:

"مَن يبكِ على رأس الميت فكأنّه يحارب الله".

وعندهم "أنّ عمر الإنسان محدود، لا يزيد ولا ينقص، والله لا يؤخّر نفسًا إذا جاء أجَلها"، وهذا من جملة الأسباب التي تجعلهم يقتحمون الصّعاب بإيمان وبأس، فالمتديّن يكون شجاعًا صادقًا متعفّفًا لا يهاب أحدًا ولا يخاف غير الخالق. ومن أقوالهم: "المؤمن الديّان بتوحيد مولاه شجاع غير جبان".

أمّا الرحمة للميت فلا يلفظها الاتقياء إلاّ لمستحقّيها، وليست حكمًا يدين الميت، بل هي شهادة تؤدّى، ولا يجوز أن تكون زورًا. والقصد منها حثّ الأحياء على طلب الكمال والتجمّل بمكارم الأخلاق.

والسكوت عن الرحمة (أو الشهادة) رفض لها. وقد لا يرحم الأخ أخاه إن شكّ بفضله.

والإنسان عندهم، مخيَّر ومسيَّر: مخيّر في ما يحدّه العقل، ومسيّر في الأمور التي تتعدّى عقله وقدرته، وهذا كلّه محصور بقولهم: "أمر تبيّن رشده فاتّبعوه، وأمر تبيّن غيُّه فاجتنبوه، وأمر أشكل عليكم فإلى الله ردّوه".

والفضيلة عندهم إتقاء الله وعمل الخير وتطهير النفس من المعاصي والابتعاد عن اللذّات التي ينبذها طلاّب الكمال. وكلّما ازدادت تقوى الشخص عَظُم جزعه من الله.

ويوصيهم الإمام بإكرام المرأة وتعليمها وإنصافها بالمعاملة، فإذا أساء الزوج معاملة زوجته فلها أن تهجره، وإذا اعتدى بالطّلاق فلها أن تقاسمه المال الذي جمعه وهي بعصمته، وإذا كانت هي المسبّبة للطّلاق بعمل شاذّ فيُعاد لزوجها "الصداق" الذي دفعه. ولا يحقُّ للأب إرغام ابنته على الزواج ممَّن تكره. ولا يجوز الجمع بين امرأتَين: فإن لم يطلِّق التي عنده لا يمكنه الزواج بسواها. وتطلَّق المرأة بواسطة المحكمة المذهبيّة. ولا يجوز ردّ المطلّقة ولو كان بعد زواج آخر. وهم يمتنعون عن مصاهرة غيرهم. والزواج عند أتقيائهم هو لحفظ النسل. وهم مأمورون بالابتعاد عن الزوجة والتفرّغ للعبادة متى صار للرجل أربعة أولاد إن كان غنيًّا واثنان إذا كان فقيرًا، وهذه قاعدة لا يحافظ عليها إلاّ أفراد قلائل[1].

واضح إذن، أنّ الدروز يختلفون عن سائر المسلمين في أنّهم لا يسمحون بتعدّد الزوجات، بل إنّهم يتزوّجون امرأة واحدة[2].

والمرأة الدرزيّة إذا كانت من أهل الصلاح والتقّوى، فإنّها تدخل في عداد العاقلات المتديّنات.

---

١ - الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٣٦ - ٢٤٢.

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣١٩.

وكان "المقتنى بهاء الدين[1]"، قد حدّد لأتباعه من الموحّدين الدروز قبل وفاته سياسة الموحّدين:

"أثناء غيبة الحاكم، يجب ألاّ تُفشى أسرار الدين أو تُعلن للنّاس". ولا شكّ في أنّ الإصرار على إبقاء الدين أمرًا سرّيًّا أَملته عليهم الظروف السياسيّة، فإنّهم كانوا فرقة صغيرة العدد تحاول البقاء في وسط عدائيّ، قوامه السنّة والشيعة والنصيريّة. وقد أعلن بهاء الدين أنّ العالم لا يستحقّ أن ينال البركات والنِّعم التي وعد بها الدِّين الجديد لأتباعه. ومنذ ذلك الحين، "أُقفل باب الدعوة". ولم يعد يُقبل جديد ولم يعد يقبل مرتدّ.

وهم يمنعون كتبهم الدينيّة، التي هي دائمًا بشكل مخطوطات لا يجوز طبعها، حتّى عن الجهّال من أبناء الموحّدين، ولا يجوز أن يطالع هذه الكتب سوى العقّال منهم. ولا يصل درجة العقّال إلاّ مَن كان منهم رجلاً حسن الأخلاق عالي الهمّة يوثَق بصلاحه وبقدرته على كتمان السرّ. وقبل أن يُقبَل الموحّد الدرزيّ في عداد العقّال يخضع لامتحان قاس يختبرون فيه صبره وجلَده وحسن سيرته، وبعد أن يبرهن الرجل على أنّه أهل لهذا المقام، فإنّ العقّال منهم يُدخلونه في عدادهم بنوع من التكريس. وعلى العاقل أن يتمسّك بأهداب الفضيلة والأخلاق، وعليه أن يسلك سلوكًا حسنًا يتميّز بالرصانة والوقار، وعليه أن يمتنع عن الكسب إن لم يكن كسبًا حلالاً، وعليه ألاّ ينبس بكلمة نابية أو بذيئة وألاّ يشرب خمرًا أو يدخّن تبغًا[2].

---

١ - توفّي ١٠٤٢، سنذكر سيرته لاحقًا.

٢ - الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٣١٩.

الدِّيـــن
والدَّولة

يختلف الموحّدون الدروز عن سائر المسلمين، في أنْ ليس مِن ربط عندهم بين الدين والدولة. ويتطرّق أحد كبار المفكّرين الموحّدين الدروز إلى قضية علاقة الدين بالدولة عندهم، فيقول:

على الرئاسة الروحيّة فريضة الإرشاد والوعظ والتوجيه واسترشاد الأفضل من الأوّلين الصالحين ومثالهم... أمّا الزعامة الروحيّة في المعنى المعروف الشائع، فإنّها لا تنطبق على المفهوم التوحيديّ الدرزيّ الأصيل، بل إنّ الزعامة الروحيّة الحقيقيّة هي نقيض الزعامة الوجاهيّة في القصد الزمنيّ العاديّ المنطوي على فكرة الرئاسة، والمؤسّس على السلطة والجاه... هذه الزعامة الروحيّة الأصيلة هي اشتقاق معنويّ وامتداد تاريخيّ لفكرة الإمامة، أي الرشادة والحكمة وسلطة التوجيه والتقويم لمَن تكون له، من ذاته ومن تحقّقه وعرفانه، مِكنَة التوجيه وحقّه واستحقاقه. وهي نوعان: ولاية تنظيم ورعاية للمصالح الشرعيّة والروحيّة الظاهرة للجماعة، وولاية القسط في ما بينهم بالعدل. وولاية استرشاد بالمثل الأفضل واهتداء بالولاء الأرفع، واستئناس بالعرفان الأعلى وبالتوجّه الأصفى والأفضل والأصحّ والأنسب طبعًا. والأقرب إلى تمثيل فكرة الإمامة، هو قيام الولايتَين ووجودهما وتوحُّدهما في الشخص ذاته. هكذا كان واقع المشايخ السابقين. والهداية بحدّ ذاتها، تفرض نفسها ولا تُستبعد ولا تُنكر[1].

---

١ - جنبلاط كمال في مقدّمته لكتاب: مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، مرجع سابق.

ولا يدع المفكّر الدرزيّ مجالاً للخلط بين "هداية الشيخ" الذي "يمثّل فكرة الإمامة" وبين أن يكون الدين شريعة الدولة، كما هو الحال عند سائر المسلمين، إذ يوضح:

يتوجّب علينا... إن كنّا جادّين ومخلصين في تتبُّع الكشف عن حقيقة الأشياء وحقيقة ذواتنا وحقيقة عقلنا، هذه الأداة التي بها نستجلي غوامض التكوين، أن نسعى على الأقلّ، وعلى قدر كفاءَة علمنا وقدرة فكرنا، أن نتوغّل قليلاً، على خطَى أقدام طليعة المتوغّلين، فنرى الأشياء والأغراض كما يجب أن نراها، لا من خلال علوم القرن الماضي المتأخِّر، وإذ ذاك يبرز لنا العرفان بعد أن تقصّيناه واكتشفناه من خلال مسالك الحكمة الأخيرة ومصادرها، قيمة ثمينة وكسبًا عقليًّا ممتعًا، على ضوء اختبار ونظريّات العلم الحديث... ويساعدنا العلم الحديث على استيعاب مقرّرات ونتائج هذا العرفان ذاته[1].

ويذهب الزعيم والمفكّر الموحّد الدرزيّ كمال جنبلاط[2] في إبداء عدم قناعة الموحّد الدرزيّ بالاعتبارات الشرائعيّة الإسلاميّة من ناحية ربط الدين بالدولة إلى حد الإبداء السلبيّ، في مجال كلامه عن أسباب الحرب الأهليّة في لبنان بدءًا من العام ١٩٧٥ فيقول: "إنّه لا بدّ لنا من الإقرار بأنّنا عرفنا في بلاد الإسلام حقبات تراجع ونكوص تتّسم بالتطبيق الصارم الحرفيّ للشريعة، ولا تزال مثل هذه الاندفاعات الرجعيّة في أكثر من بلد عربيّ، حيث لا يزال القانون المدنيّ غير مطبَّق، لا سيّما بالنسبة إلى الأحوال الشخصيّة والقانون الجنائيّ، فلا تزال قاعدة العين بالعين هي السارية التطبيق، وهذه الإرادة في تمديد الماضي وإطالته، وفي الحفاظ على مؤسّساته

---

١ ـ جنبلاط، المرجع السابق.

٢ ـ جنبلاط كمال، هذه وصيّتي، مؤسّسة الوطن العربي (باريس،١٩٧٨) ص٥٥.

التي ولّى زمانها، وتطبيق أحكام الإسلام بصفته دولة ودينًا في آن معًا، وانحطاط تأويل الشرع في اتّجاه التضييق، كلّ ذلك جعل مسيحيّي لبنان يشعرون بأنّهم مهدّدون".

والموحّدون الدروز اليوم، نظرًا لِما يسمح به دينهم من انفتاح فكريّ دائم التطوّر، يقولون: "... نحن في عقليّتنا نفكّر على أساس المنطق الغربيّ، لا المنطق البدويّ المتخلّف"[1].

هذه الحالة التطوريّة، تجعل الموحّدين الدروز لا يمانعون في انتهاج العلمنة في إدارة شؤون الدولة. ويجد المرء "بين الموحّدين الدروز أبدًا أناسًا ليبراليّي العقليّة، فخورين في الوقت ذاته بطائفتهم وبميراثهم الدينيّ والثقافيّ والسياسيّ، من دون أن يورثهم ذلك الشوفينيّة أو التعصّب. فلقد طالما عُرف الموحّدون الدروز عبر التاريخ بعقليّتهم الليبراليّة"[2].

وعندما طُرحت العلمنة كحلّ للمشكلة اللبنانيّة في العام ١٩٧٦، وافق الموحّدون الدروز بأشخاص ممثّليهم في لجنة الحوار على هذه الصيغة، ممّا عرّض السيّد جنبلاط لأعنف هجوم شنّه عليه علماء مسلمون في لبنان عبر بيان أصدروه آنذاك وجاءَ فيه:

"... إذ بالمسلمين يشهدون سياسيًّا معروفًا يقود حركةً أغلب عناصرها من المسلمين، ويتميّز بعدائه السياسيّ لجميع زعماء الموارنة، تقريبًا، يشهدونه يتوافق كليًّا مع زعماء الموارنة في موضوع العلمانيّة، بل إنّه يقرِّرها في رأس برنامجه السياسيّ

---

١ ـ جبنلاط كمال، جريدة "السفير" البيروتيّة، ١١ أيلول ١٩٧٦.

٢ ـ جنبلاط كمال، هذه وصيّتي، مرجع سابق، ص٤٥.

ويطالب مرشّحي رئاسة الجمهوريّة بالتعهّد الخطّي لتطبيقها... ونحن نعلم... أنّ السياسيّ المعروف، المتميّز بعدائه لزعماء الموارنة في السياسة، والحليف المتوافق معهم في موضوع العلمانيّة، إنّما يبني موقفه بقصد تحقيق تقدّم ملموس في خطّة انتزاع الرئاسة الأولى، وهذا غاية ما يطمح للوصول إليه باسم العلمانيّة".

ولا يوفّر البيان مهاجمة الموحّدين الدروز، إضافة إلى مهاجمة الزعيم كمال جنبلاط، إذ جاء فيه:

"إنّ المجلس يقرّر تسجيل عدم معارضة زعماء الموارنة ومَن يتوافق معهم من زعماء الدروز في مطالبتهم بتطبيق العلمانيّة في ما يخصّ أحوال طائفتهم الشخصيّة فحسب، إذا كانوا يرون فيها الحلول المناسبة لما قد يشكون منه"[1].

---

١ ـ جنبلاط كمال، هذه وصيّتي، ص٤٥.

الخَصَائِص

الأخلاقيّــة

أدّت الحياة الصعبة التي عاناها الموحّدون الدروز عبر التـاريخ، كمـا سـيأتي، مـن جهة، ودعوتهم الدينيّة المتأصّلة في التـنزّه والـتزهّد والتقشّـف، والقائلـة بتجـدّد الحيـاة الدائم، من جهـة ثانيـة، إلـى أخلاقيّـة خاصـّة جعلـت الموحّديـن الـدروز الملقّبيـن ببنـي معروف، يتعلّقون بصفات الإبـاء والشـمم وعـزّة النفس والشـجاعة والشـهامة والتعلّـق بالحريّة وبالاندفاع لمحاربة العدوّ.

وكان الموحّدون الدروز في الماضي، بالإضافة إلى كونهم محاربين، يعملـون فـي الزراعة، ولم يكن يمتهن الصناعـة والتجـارة منهـم سـوى عـدد قليـل. وعندهـم قابليّـة واضحة للتعلّم، وعندما نشطت الحركة الثقافيّة بدءًا من نهاية القرن التاسع عشـر، أخذ أعيانهم يعتنون بتربية أولادهم في المدارس، حتّى برز منهم عدد لا يُستهان به من أهل السياسة والفكر والعلم والثقافة. على أنَّ طلـب العلـم فريضـة عنـد الموحّديـن الـدروز، والقراءَة والكتابة لازمتان بحكم الدين للذكور والإناث، والأمّيّون منهم قد خالف آبـاؤهم النصوص الدينيّة في عدم تعليم أبنائهم. وهم بذلك سبقوا أشدّ الأمم أخذًا بأسباب التمـدّن ومحو الأميَّة[١].

وهم يقيمون صلواتهـم الجماعيّـة ليلـة الجمعـة فـي أبنيـة علـى غايـة مـن البسـاطة والتقشّف تسمّى خلوات، وتُبنى عادة على تـلال أو روابٍ تشـرف علـى قراهـم. وأقـدم هذه الخلوات وأرفعها مقامًا عندهم خلوات البيّاضـة قـرب حاصبيّـا مـن جنـوب لبنـان، وإلى الجنوب الشرقيّ من هذه الخلوات خلوة شبعا التي نهب كتبها جيش إبراهيم باشـا

---

١ ـ الأسود إبراهيم، ذخائر لبنان، المطبعة العثمانيّة (بعبدا ـ لبنان،١٨٩٦) ص١٢٢.

عام ١٨٣٤، فكانت المرّة الأولى التي تَعرّف فيها العالم إلى كتبهم[١].

وعندما ينضمّ العقّال إلى مجالس خلواتهم ليلة الجمعة "يستمعون إلى قراءات في الكتب الدينيّة. وانصرافهم من تلك المجالس يكون بحسب درجاتهم في الدين، فمنهم مَن يبكّر في الانصراف، ومنهم مَن ينصرف في وسط السهرة، ومنهم مَن ينصرف في نهايتها. وليس للجهّال أن يحضروا مجالس الدين إلاّ ليلة العيد، والعيد عندهم هو عيد الأضحى.

"ويتعمّم عقّال الدروز بالعمامة البيضاء، ويلبسون القبأ والعباءَة ويطلقون العذار[٢]. ويسوغ تجاوز ذلك لذي منصب قضت عليه أحوال منصبه بتغيير زيّ العقّال. أمّا النساء فلهنّ النقاب وثوب يقال له "صاية"، وفي أكثر الأماكن يغطّين وجوههنّ بمنديل ولا يتركن بائنًا سوى إحدى العينَين لرؤية الطريق. وأكثر العقّال يحلقون رؤوسهم. ومَن خالف منهم القواعد فإنّ المتشدّدين في الدين منهم ينكرون عليهم ذلك"[٣].

وقد اشتهر الموحّدون الدروز في نزعتهم للأخذ بالثأر، لذلك قلّما شهد تاريخهم هدوءًا، فهم غالبًا في حالة انقسام حزبيّ داخليّ إلى حزبَين. أمّا إذا نشبت نزاعات خارجيّة معهم، فسرعان ما يتّفقون على الخصم، وإذا كانت الأسرة الواحدة منشقّة، سرعان ما تنضمّ كلّها يدًا واحدة ضدّ مَن قد يناوئها.

وقد وصف أحد مؤرّخي القرن التاسع عشر الموحّدين الدروز بالشجاعة والإقدام، وذكر أنّ لهم غرامًا بذكر الحروب والوقائع، وميلاً عظيمًا إلى القوّة. وهم يعتقدون

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣١٩.

٢ ـ العذار، جمعها: عُذُر، من معانيها: جانب اللّحية، أي الشعر الذي يحاذي الأذن.

٣ ـ الأسود إبراهيم، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص١٢٦.

كثيرًا بالقضاء والقدر، مع انقيادهم إلى رؤسائهم وطاعتهم لكبارهم، ممّا يمهّد لهم في الغالب سُبل الفوز[١].

وهم موصوفون بمزيّة الكرم والاحتفاء بالضّيف. ولهم محافظة عظيمة على الأنساب والدرجات، فتجدهم طبقات، كلّ طبقة لا تزوّج الطبقة التي دونها، ولم ينحصر هذا في مشايخهم، إنّما هو موجود في عامّتهم، فقد يمضي مئات السنين على عائلتَين متساكنتَين في محلٍّ واحد ولا تزوّج إحداهما الأخرى، والسبب في ذلك يعود إلى أن تكون إحداهما أشرف أصلاً من الأخرى، وإذا خالف أحد أفراد تلك العائلة هذا التقليد تبرّأت منه عائلته. كذلك فإنّ التقدّم في المشي، وفي المجلس، وفي التوقيع، وفي غير ذلك ممّا شابه، له عندهم قواعد مرعيّة أكثر من أي مجتمع شرقيّ آخر، فهم لا يتسامحون في مثل هذه الأحوال، وكلّ فئة منهم مدركة لحقّها ولمقامها، لا تتجاوز مَن يتقدّمها، ولا تدع مَن دونها يتجاوزها.

والتراتبيّة للأمراء أوّلاً، يليهم المشايخ الجنبلاطيّون، ثمّ المشايخ العماديّون، ثمّ النكديّون، ثمّ التلاحقة، ثمّ الملكيّة، ثمّ بنو العيد، وهؤلاء هم أصحاب المقاطعات قديمًا؛ ثمّ يأتي مقام المشايخ الذين ليسوا بأصحاب عهدة، (أي إقطاع) وهم طبقات أيضًا، وينتهي ذلك إلى العامّة. وقد أُلغيت امتيازات أصحاب الاقطاعات بعد نهاية نظام الإقطاع في لبنان سنة ١٨٦٠.

هذا في لبنان، أمّا في جبل الدروز في حوران، فلا عبرة كبرى للأنساب في الغالب، والموحّدون الدروز هناك يكادون أن يكونوا متساوين، إذ يتزوّج ابن أسرة الأطرش التي هي من أهمّ أسر المشايخ، من العامّة، ويزوّجهم، والسبب في ذلك عدم

---

١ ـ الأسود إبراهيم، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص١٢٦.

قِدَم عيال الموحّدين الدروز هناك، وقد حصّل مشايخهم مركزهم الاجتماعيّ منذ عهد قريب نسبيًّا، وذلك بالقوّة والغلبة. وأشهر عشائر الموحّدين الدروز في حوران: بنو الأطرش، ثمّ بنو عامر، ثمّ بنو أبي عسّاف، ثمّ بنو هُنيدة، ثمّ بنو عزّام...

ومن جملة عوائدهم أنّهم يوصون بأموالهم وأملاكهم عند الممات إلى مَن شاؤوا، خلافًا لسائر المسلمين المقيّدين في ذلك بالنصوص القرآنيّة، وقد جرت العادة أن يُتلى صكّ الوصيّة عند القبر، بعد دفن الموصي، على مسمع جميع الحضور. وهم في الغالب يوصون للذكور من أولادهم وأعقابهم، أمّا الإناث فيوصون لهنّ براتب يُدفع إليهنّ إذا عنّسنّ أو طُلّقنّ من الزوج، ومن أجل ذلك يندر أن تكون إمرأة منهم ذات ثروة تُذكر. وشعائرهم في الزواج والطلاق والصلاة على الجنائز والختان كالمسلمين، ولكن جرت العادة عندهم أن لا يردّوا طالقًا ولا يجمعوا بين زوجَين. وقد أُمروا بالصلاة والصوم وحفظ القرآن.

الفَصلُ الثَّانِي

أُصُولُهُم العِرقِيَّة ونزُولهم فِي لبنَان

أُصُولُ الموَحّدِينَ الدُّروز؛ القَبائِل فِي لبنَان؛

قبل ظهور دعوَة التَّوحِيد؛ الفاطميُّون وظهورُ الدَّعوَة؛ دَعوَة الحَاكِم؛

رَسَائلُ الحِكمَة؛ إختفَاء الحَاكم؛

دَعوةُ التَّوحِيد فِي لبنَان؛ المُوَحِّدون بعد الدَّرَزي؛

إقفَال بَاب الدَّعوَة؛ إنتشَار الدّعوَة قبل إقفال بابهَا .

أصولُ الموَحّدينَ الدُّروز

يؤكّد مؤرّخو الموحّدين الدروز على النقاء العربيّ لأصول الشعب الذي يتحدّر منه مجتمع الموحّدين الدروز، وعلى محافظتهم على أنسابهم العربيّة طيلة وجودهم[1]. بينما ذكر مؤرّخون محدثون[2] أنّه بعد أن توطّن الموارنة في شمال لبنان، وأصبح للجبل اللبنانيّ مركز في التاريخ، بدأت جماعات إسلاميّة تخالف السنّة في عقائدها، وهي الشيعة والإسماعيليّة، وجماعات عرقيّة مختلفة من فرس وعرب، تنزح إلى لبنان الجنوبيّ. هذه الأقوام اندمجت في ما بعد، ومن اندماجها نشأ الموحّدون الدروز في منتصف القرن الحادي عشر. هؤلاء النازحون الجدد اندمجوا، كما فعل الموارنة قبلهم، بالسكّان الأصليّين من العرق الآرامي. وإنّ الشكل العام السائد في جماجم اللبنانيّين[3]،

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٥٤.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣١٤.

٣ ـ حتّي، المرجع السابق، بالاستناد إلى: SELTZER CARL C., *THE RACIAL CARACTERISTICS OF SYRIANS AND ARMENIANS* (CAMBRIDGE, MASS.1936) PP.10, SEQ.; CONTRIBUTIONS TO THE RACIAL ANTHROPOLOGY OF THE NEAR EAST (CAMBRIDGE, MASS. 1940) PP20 - 21, 37- 50; SHANKLIN WILLIAM M. AND IZZEDIN NEJLA, *IN AMERICAN JOURNAL OF PHYSICAL ANTHROPOLOGY*, VOL: XXII (1937) PP. 397 SEQ.; KAPPERS N. ARIENS, *THE ANTHROPOLOGY OF THE NEAR EAST* (BEIRUT,1932) PP.10; EWING J. FRANKLIN, *HYPERBRACHYCEPHALY AS INFLUENCED BY CULTURAL CONDITIONS* (CAMBRIDGE,1950) PP.8, 26 - 27, 31- 32, 35, 78.

دروزًا كانوا أم موارنــة، فـي يومنـا هـذا، حسـب نتـائج الأبحـاث الأنتروبولوجيّـة التــي أجريت في هذا الحقل، هو من نوع الجماجم القصيرة والعريضة التي تُعـرف فـي علـم الانتروبولوجيا بالجماجم العريضة. وهذا يخالف الشكل السـائد لجمـاجم بـدو الصـحـراء السوريّة المستطيلة مخالفة بارزة. وكذلك يخالف شكل جماجم عرب الشمال.

إلاّ أنّ المؤرّخين عمومًا قد ردّوا أصل الشعوب التــي اعتنقت دعـوة التوحيد إلـى قبائل عربيّــة، هــي: التنّوخيّـة، واللخميّـة، وفـروع مـن قبـائل شـمّر، وتغلـب، وربيعـة، وغيرها[1].

ويعود أصل هذه القبائل إلى بلاد اليمن، وتحديدًا إلى قبيلتَي أزد وقضاعة وبطـون من نمارة بن لخم، وهذه القبائل تتحدّر من بني حِمْيَرَ، الذين رحلوا في ظروف مختلفـة من اليمن إلى العراق في بداية القـرن الميـلاديّ الثـاني، ومنهـا إلـى سورية فـي نهايـة القرن الثالث. وقد اشتهر منهم قـادة وملـوك أشدّاء فـي الحـروب، كـان أوّل مَـن ملـك منهم: ملك بن فهم في العراق في حوالـى ١٩٥م، ثـمّ جذيمـة الوضّـاح، ثـمّ عمـرو بـن عـدي، ثـمّ أمـرؤ القيـس الأوّل (٢٨٨ ـ ٣٢٨م) الـذي امتـدّ ملكـه علـى باديـة العــراق والحجاز والشام، ثمّ ابنه عمرو (٣٣٨ ـ ٣٦٣م) الذي تولّى مكانــه ابـن قـلاّم العمليقـي، فقُتل وتولّى مكانه أمرؤ القيس الثاني ابن عمرو عام ٣٧٨م ولقّب بـالمنذر والمحـرق، وخلفه ابنه النعمان الأوّل (٤٠٣ ـ ٤٣١) الذي خلفه ولـده المنـذر الأوّل وأمّـه الغسّـانيّة عام ٤٣١م، عقبه في العـام ٤٦٢ ابنـه النعمـان الثـاني. وفـي العـام ٤٧٣ ملـك الحيرة

---

١ ـ الشدياق طنّوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، تحقيق المعلّم بطرس البستاني، مكتبة العرفان (بـيروت، ١٨٥٩)؛ بـن يحيـى صـالح، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعيّ وكمال سليمان الصليبيّ، دار المشرق (بيروت، ١٩٦٩) الصغير، بنـو معـروف، مرجع سابق، ص١٩؛ أبو إسماعيل سليم، الدروز، مطابع فضّول (بيروت، لا.ت.)؛ الهشّي سـليم، دروز بـيروت (بـيروت،١٩٨٥)؛ أبي راشد حنّا، جبل الدروز أو حوران الدامية (بيروت،١٩٦١).

الأسود بن المنذر الأوّل، ثمّ أخوه المنذر الثاني، ثمّ النعمان الثالث ابن الأسود بن المنذر عام ٥٠٠، ثمّ أمرؤ القيس الثالث عام ٥٠٦، ثمّ ابنه المنذر الثالث عام ٥١٤ الذي لُقّب بذي القرنَين، وكان من أعظم ملوك الحيرة، وقد اعتنق الدين المسيحيّ، وتبعه أكثر بني قومه. ومن أخباره أنّه اعتقل عنترة العبسي عندما توجّه هذا الأخير يجمع مهر عبلة، وبعد أن انتصر في حروب كثيرة، فشل في معركة مرج حليمة سنة ٥٥٤، ثمّ قتله مرّة بن كلثوم، فتولّى المُلك بعده سنة ٥٦٢ عمرو بن هند عمّة أمرئ القيس الشاعر، خلفه أخوه قابوس عام ٥٧٨ بعد أن قُتل، وقد قُتل قابوس أيضًا عام ٥٨٢ وخلفه أخوه المنذر الرابع لسنة واحدة، قام بالملك بعده النعمان بن المنذر، الذي بموته انقرض حكم التّنوخيّين واللخميّين في الحيرة.

أمّا نهاية حكمهم هذه فقد كانت على يد كسرى، ملك الفرس، الذين راحوا يضيّقون على هذه القبائل المتنصِّرة، حتّى نزحت إلى جهات حلب واللاذقيّة، عند القبائل التنوخيّة التي كانت سبقتهم إلى هناك. ولمّا انتشر الإسلام في بلاد الشام، قاتلت هذه القبائل المسلمين في بادئ الأمر، غير أنّها عادت وتقبّلت الفتح العربيّ والدين الجديد، وانتقلت في قتالها من مناصرة الروم ضدّ العرب إلى مناصرة الإسلام ضدّ الروم. وقد اشتهر منهم في تلك الحروب قبيلتا بني تنّوخ وبني ربيعة اللّتان نبغ منهما الأمراء التّنوخيّون والمعنيّون، فاستوطنوا جبل السمّاق الأعلى في سورية، وبنوا فيه الحصون والقلاع، واشتهروا كمحاربين أشدّاء يألفون القتال في الجبال والمسالك الوعرة. وقد يكون في تحدّر أسر مارونيّة عديدة من القبائل الغسّانيّة تفسيرًا للتطابق الذي بيّنته الأبحاث الأنتروبولوجيّة بين جماجم موحّدين دروز وجماجم موارنة.

القَبائــــل
فِي لُبنَان

من المتّفق عليه حول ظـروف قدوم تلـك القبـائل إلـى لبنـان، أنّ الخلفـاء العـرب، عندما تعذّر عليهم إخضاع المردة الموارنة لسلطانهم في لبنــان، أرسـلوا بعـض القبـائل المعتادة على سـكنى الجبـال وعلـى المحاربـة فـي مواقعهـا الوعـرة ليتصـدّى مقاتلوهـا للمردة، وللروم. وكان من بين تلك القبائل، التنّوخيّـون، الذيـن دخلـوا لبنـان سـنة ٧٣٦ عن طريق البقاع، وما لبثوا أن تقدّموا حتّى بلغـوا المنـاطق الممتـدّة بيـن حـدود البقـاع الغربيّة والسـاحل الجنوبـيّ لمدينـة بـيروت. وفـي حوالـى سـنة ٧٦٠ أقطـع أبـو جعفـر المنصور جبال بيروت إلى الأمير أرسـلان بـن مـالك مـن المعـرّة، وهـو جـدّ الأمـراء الأَرسلانيّين الموحّدين، وكانت جبال بيروت يومذاك خالية، وعهد المنصور إلى الأمير الأرسلانيّ بحفظ الطريق بين دمشق وبيروت من غزوات المردة. فنزل صحب الأمير أرسلان في وادي التيم وضهر البيدر وسن الفيل. واتّحد هؤلاء في حروبهم مـع قبيلـة بني لام العربيّة، التي كانت قد استوطنت الشوف بعصر الخليفة عبد الملك بـن مـروان (٦٤٦ ـ ٧٠٥م)، وقد تفرّق اللخميّون في جبال لبنان الغربيّة واختلطوا مع التنّوخيّيـن. ثمّ قدم من جهات حلب، فروع من قبائل شُمَّر وتغلب وربيعـة وغيرهـا، واتّحـدت هـذه أيضًا مع اللخميّين والتنوخيّين. ومن هناك توزّع أبناء تلك القبائل في مناطق جبل لبنان حتّى بلغوا المتن، وجرت بينهم وبين المـردة معـارك عـدّة. وفـي العـام ٨٢٠ قـدم مـن الجبل الأعلى الأمير "تبا" ومعه بعض القبائل، فسكنوا الجنوب الغربيّ من لبنان[١].

---

١ ـ مفرّج طوني، لبنان الأصيل ليس طائفيًا، منشورات بيوغرافيا (بيروت، ١٩٩٩) ص ٨٩ وما يليها؛ وراجع: الصغير، مرجع سـابق، ص١٨؛ الأسود، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص١٣١ وما يليها؛ مكّي محمّد عليّ، لبنان من الفتح العربيّ إلـى الفتـح العثمـانيّ، دار النهار للنشر، ط٢ (بيروت، ١٩٧٩) ص٦٧.

ويقول بعض مؤرّخي هذه الحقبة إنّ حركة أحد مقدّمي المردة، وهو المقدّم الياس سنة ٧٥٣ م، والثورة المسيحيّة ضدّ عامل العبّاسيّين التي عُرفت بثورة المنيطرة (٧٥٨ أو ٧٥٩ م)، نبّهت العبّاسيّين إلى نقطة ضعف كبرى في دولتهم، وهي وجود جماعات مقيمة في الجبال اللبنانيّة تتمتّع بالشدّة والصلابة وعدم الموالاة للدولة، واحتمال قيام تحالف بينهم وبين البيزنطيّين، لذلك عمد أبو جعفر المنصور، فور الانتهاء من ثورة المنيطرة، إلى ملء الفراغ الذي أحدثه إجلاء السكّان من لبنان بتشجيع القبائل العربيّة على الاستيطان في الجبال اللبنانيّة. وكانت القبيلة الأولى التي انتقلت إلى لبنان، قبيلة التنوخيّين، وذلك سنة ٧٦٣ ميلاديّة، وكان على رأسها الأمير أرسلان، وقد وقع الخيار على التنوخيّين، لأن قبائل لخميّة كانت تُقيم في البقاع، وهم من فصائلهم[١]. "فنهض الأمير أرسلان، أمير الجيش، بسوابق العشيرة إلى وادي التيم. ونزل في الحصن المعروف بحصن أبي الجيش، منتظرًا قدوم أخيه بباقي العرب. ثمّ قدم الأمير منذر بباقي العرب". ثمّ تفرّقا هما وعشائرهما في البلاد، فعمّروا جبال بيروت الخالية، وتحضّروا. فاستوطن الأمير المنذر بن مالك في حصن سلحمور (سرحمول الغرب اليوم) وأخوه الأمير أرسلان في سن الفيل. والأمير حسّان بن خالد بن مالك في طردلا. والأمير عبد الله بن النعمان بن مالك في كفرا، والأمير فوارس بن عبد الملك بن مالك في عبيه، وتفرّق باقي المقدّمين وعشائرهم في البلاد، وكانوا اثنَي عشر مقدّمًا[٢].

وقد اعتبر بعض المؤرِّخين أنّه ممّا لا خلاف بشأنه، وعليه الإجماع، أنّ التنوخيّين مالأوا العبّاسيّين، فأحلّهم أبو جعفر المنصور سنة ٧٦٣ غربي لبنان، وعوّل عليهم في

---

١ ـ مكّي، لبنان من الفتح العربيّ إلى الفتح العثمانيّ، مرجع سابق، ص ٦٧ ـ ٦٨.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٧٨ وما يليها.

صدّ غارات الروم وأهالي الجبل. وقد نزل الأمير أرسلان أحد رؤسائهم محلّة رأس البيدر، وقطن الباقون أرباض بيروت وصيدا[1].

ويذكر مؤرّخ آخر[2] أنّ "أوّل مَن رحل من تلك القبائل العربيّة إلى لبنان، كان الأمير فوارس تنّوخ وقبيلته، وكانت هذه القبيلة أشرف القبائل جميعًا وأكثرها رجالاً وأعظمها سطوة، ثمّ رحل بنو أرسلان، ثمّ بنو شويزان، فسارت هذه القبائل في السهول المحاذية لنهر العاصي، حتّى وصلت بعلبك، فحلّ أفرادها فيها، وانبثّوا في سهل البقاع، حتّى بلغوا زحلة، ثمّ رقوا سلاسل الجبال إلى عين دارة فرأوا ماءً غزيرًا، فبنى بنو فوارس وبنو أرسلان هذه القرية وسكنوا فيها، وسار بنو شويزان يقصدون الماء فبلغوا نهر الصفا ونهر الباروك وبنوا قرية عين زحلتا. ولبثت تلك القبائل في أماكنها بضع سنوات، وكان بعد ذلك أن كثر عددهم فضاقت الأرض بهم وبمواشيهم، ورأوا أنّ البرد القارس في تلك الأماكن يؤذيهم فطلب بعضهم السواحل، فسار بنو شويزان إلى الكنَيْسة وراء دير القمر. وهناك نشأ منهم فرع مشايخ بني عبد الملك الذين بنوا بتاتر وسكنوها، وأمّا بنو أرسلان فساروا إلى سن الفيل على مقربة من بيروت، وملكوا الأراضي الممتدّة من هناك إلى خلدة، وبنوا الشويفات وسكنوها. وسار بنو فوارس، وهم أكثر القبائل التنوخيّة عددًا، إلى المتن وسكنوا هناك بضع سنوات، إلى أن قام منهم الأمير أبو اللمع الشهير، وهو رأس الأمراء اللمعيّين، فصارت القبيلة تُنسب إليه. وسار بقيّة بني تنّوخ تحت قيادة ثلاثة من أمرائهم وهم: الأمير فوارس، والأمير عبد الله، والأمير هلال، إلى جبل الشوف، وبنوا قرى كثيرة منها البنّيه،

---

١ - حقّي بك إسماعيل، لبنان، مباحث علميّة واجتماعيّة، تحقيق أنطوان بشارة قيقانو، طبعة دار لحد خاطر، طبعة ثالثة (بيروت، ١٩٩٣) ص٢٩٦.

٢ - الأسود، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص ١٣٧ - ١٣٩.

وكفرمتّى، ورمتون، وطردلا، وعرمون، وعين كسور، وعبيه، وسكنوها، ثمّ انفصل أحد هؤلاء الأمراء الثلاثة عن أخويَه وجاء قرية سرحمور فبنى فيها حصنًا منيعًا وسكنه."

بعض مؤرّخي الموحّدين الدروز ذكر أنّ "موقع لبنان الحصين جعل خلفاء العرب يسهّلون للقبائل القويّة سكناه، لصدّ غزوات البيزنطيّين التي كانت تتكاثر عددًا وتتعاظم شدّة، وتغذّي المردة الذين كانوا يقطعون السابلة ويغزون المناطق العربيّة، وهكذا أخذت الموجات العربيّة تصل إلى لبنان وتستقرّ في ربوعه، فتعمّر الغامر من قراه وتستولي على العامر من الأعداء. ففي عام ٧٣٦ م، نزح إليه التنوخيّون بعد أن انبثّوا في سهل البقاع حتّى بلغوا زحلة، ثمّ تسلّقوا الجبال واستوطنوا القرى وملكوا بلاد الغرب وجبل بيروت، فحصل بينهم وبين المردة، أنصار الروم، معارك عديدة عزّزت شأن المسلمين لانتصارهم في الكثير منها. وعندما حضر أبو جعفر المنصور إلى دمشق عام ٧٦٠م، قدم إليه الأمير أرسلان ابن مالك من المعرّة ومعه جماعة من قومه، فشكوا إليه توالي القحط عليهم بسبب توالي الجدب والجراد، فأقطعهم جبال بيروت الخالية، وعهد إليهم بحفظ الطريق بين دمشق وبيروت، فعادوا إلى أماكنهم، ونادوا عشائرهم بالرحيل، وكان أوّل نزولهم بحصن وادي تيم الله (نسبة إلى تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن قضاعة اليمنيّين) ثمّ انتقلوا إلى حصن أبي الجيش (نسبة إلى أصل الأرسلانيّين) ثمّ جبل المغيثة (ضهر البيدر) وسنّ الفيل، فجرت بينهم وبين المردة وقائع اتّحدت معهم فيها قبيلة بني لام العربيّة التي كانت قد استوطنت الشوف بعصر الخليفة عبد الملك بن مروان. وتفرّق اللخميّون في جبال لبنان الغربيّة، وعمّروا قراه الساحليّة واختلطوا مع أنسبائهم التنوخيّين، متعاونين بالدفاع عن الساحل الشامي وتشييد الحصون لمحاربة الأعداء والغزاة الذين كانوا

يغيرون على السواحل الغربيّة، فينتصرون حينًا، ويبوؤون بالفشل في حين آخر. ثمّ قدم من جهات حلب فروع من قبائل شمّر وتغلب وربيعة وغيرها، فاستوطنت جبال لبنان واشتركت مع اللخميّين والتنوخيّين والقبائل العربيّة الأخرى بصدّ هجمات الروم عن الساحل الشامي، فأصبحت جبال لبنان موطنًا للقبائل العربيّة، ومنها قبائل مسيحيّة نزلت لبنان وطرابلس بعد معركة اليرموك في أوقات مختلفة كبني الخازن وبني الحرفوش وبني حبيش وبني الدحداح وبني الغريب وبني البستاني وغيرهم من متنصِّرة العرب الذين اتّبعوا مذهب القدّيس مارون، وهو عربيّ من حمص، فاعتنت القبائل العربيّة ببناء القرى وزرع الأراضي، وتشييد القصور والحصون، فبنى بنو فوارس تنّوخ وبنو أرسلان قرية على عين داره،... وسار بنو شويزان حتّى بلغوا نهر الصفا ونهر الباروك فبنوا قرية على عين زحلته، وبعد أن كثر عددهم قصد بعضهم السواحل، فسار بنو شويزان إلى جوار دير القمر وبنو بتاتر، ومنهم نشأ فرع بني عبد الملك، وقصد بنو أرسلان سنّ الفيل المجاورة لبيروت وملكوا الأراضي الممتدّة من هناك إلى خلدة وسكنوها، وتوجّه بنو فوارس التنوخيّون إلى المتن ومنهم نشأ أبو اللّمع جدّ اللمعيّين"[1].

قبل ظهور دَعوَة التَّوحِيد

سيطرت القبائل التنوخيّة على المناطق التي نزلت فيها، وامتدّ حكم أمرائها التنوخيّين حتّى شمل المناطق الشوفيّة. أمّا اللخميّون وقبائلهم فكانوا بقيادة الأميرَين

---

١ ـ الصغير سعيد، مرجع سابق، ص ١٨ ـ ١٩.

أرسلان والمنذر يسيطرون على مناطق الساحل من جبل الشوف وعاليه، ممّا جعل الخليفة العبّاسي المهديّ يقرّهما على ولاية بيروت وتوابعها. وقد جرت بينهم وبين المردة حروب متواصلة، اشتهرت منها معارك نهر الموت وانطلياس وسنّ الفيل. ويُقال إنّ نهر الموت سُمِّي بذلك الاسم لكثرة ما وقع في تلك المعركة من قتلى عند مصبّه[1]، غير أنّ علماء اللغات يردّون الإسم إلى اللغات الساميّة القديمة. أمّا في معركة انطلياس، فقد سقط أكثر من ثلاثمئة قتيل[2].

هذه الأعمال الحربيّة للتنوخيّين في مواجهتهم للمردة، جعلت الدولة العبّاسيّة تُقرّهم في الأماكن التي توطّنوها من الجبل اللبناني، وتبيح لهم شكل ولاية، اتّخذت لها في ما بعد اسم إمارة. فلمّا "قدم الخليفة المهديّ بن المنصور العبّاسي إلى دمشق، سار إليه الأمير منذر وأخوه الأمير أرسلان وقابلاه في قرية المزّة، فاستقبلهما بالبشاشة، وأكرمهما لِما بلغه من شدّة بأسهما على الأعداء، وفي محافظة الطرقات، وأمر لهما بالتواقيع في تقريرهما على ولايتهما. وقد زاد لهما وأجرى لهما الإقامات الكافية"[3].

وهكذا نشأت الإمارة التّنوخيّة في لبنان. وتابع الخلفاء العبّاسيّون تشجيعهم القبائل العربيّة الإسلاميّة على الإستيطان في لبنان. وقد أرسل هارون الرشيد منشورًا إلى أمير الثغور الشاميّة وإلى باقي عمّال الشام يقضي بأن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكناه، لتشتدّ قوّة أمرته على أهل العاصية: مردة كسروان[4].

---

١ ـ الصغير، الموحّدون، مرجع سابق، ص١٩.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٧٩.

٣ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨٠.

٤ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨١.

وتذكر مدوّنات أنّ هذا الاستفار، قد جاء نتيجة زيارة الأمير ابن مسعود وأخيه مالك التنوخيّين لقاسم بن هارون الرشيد في مرج دابق، حيث كان معسكره، ويبدو أنّ الأميرَين التنوخيَّين قد ذهبا يطلبان الدعم بعد المعركة التي حدثت بين المردة والأمير مسعود التنوخيّ أمير سنّ الفيل، إذ اضطرّ الأمير مسعود بعدها إلى ترك سنّ الفيل والانتقال إلى الشويفات بالرغم من أنّه كان قد هزم المردة، بحسب المدوّنات، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأحرق بعضًا من قراهم السفلى، وقد حدث ذلك في حوالى سنة ٧٩١م؛ ويبدو أنّ تشجيع الدولة العبّاسيّة أفاد، فانتقلت جماعة أخرى من القبائل سنة ٨٢٠ واستقرّت في قصرنبا، وبذلك أصبحت القبائل التنوخيّة مسيطرة على جنوبي نهر بيروت من جبل لبنان، ساحلاً ووسطًا وجبلاً، وأصبح الأمير مسعود متزعّمًا الإمارة التّنوخيّة باتّفاق كلمة الأمراء، وقد اشترك هذا الأمير مع الخليفة المأمون في محاربة الأقباط في مصر، ونجم عن ذلك أنّ الخليفة المأمون أقطعه، بالإضافة إلى إمارته في بيروت والغرب وصيدا، مقاطعة صفد، فأصبح سنة ٨٣١ أمير التنوخيّين في لبنان[١]، وكان قد بنى حصنًا كبيرًا في الشويفات مُحاطًا بدور وميادين. وبموت هذا الأمير في العام ٨٣٧ ودفنه في الشويفات، اتّفقت الآراء على إقامة مالك شقيق مسعود بن أرسلان أميرًا خلفًا لمسعود، إلاّ أنّ هاني بن مسعود رفض هذا التعيين، وراح يؤلّب الناس ضدّ عمّه، وقد تطوّرت هذه المعارضة إلى اقتتال دمويّ في العام ٨٣٨ شهد معارك قاسية، كانت الحاسمة منها تلك التي جرت في منطقة خلدة جنوب بيروت في أسفل الشويفات، وفيها هُزم الأمير مالك، الذي فرَّ مع عياله إلى اللجون من بلاد حارثة، ومنها انتقل إلى مصر واستوطنها، فاستقلّ هاني بالامارة، وجرت بينه وبين

---

١ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص ٦٩ - ٧٠؛ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٦٦ وما يليها؛ الأسود، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص١٣١ وما يليها.

المردة مواقع عدّة، استحوذت على تقدير الخليفة.

عاش هاني أرسلان حتّى العام ٨٥٢، وبعد وفاته، اجتمع أولياء الشأن، وإثر التشاور، أقاموا الأمير إبراهيم بن إسحاق أرسلان خليفة له. وعندما قدم المتوكّل إلى دمشق في العام ٨٥٧، سار إليه إبراهيم، وحصل منه على توقيع بولاية الغرب[1].

وهكذا يتّضح أنّ الولاية كانت تحصل بالاختيار من قبل أولياء الرأي من أعيان القبيلة، وتُثبّت من قبل الخلفاء وممثّليهم. بيدَ أنّ القرار الأفعل كان للقوّة، كما هي الحال بالنسبة للأمير هاني الذي رفض تعيين عمّه الأمير مالك، فانتزع منه الولاية بالقوّة، كما أنّ المقياس الذي اعتمده الخلفاء لتثبيت هذا الأمير أو ذاك، كان مدى نجاح هؤلاء في حروبهم ضدّ أعداء الخلافة.

لم تقتصر أعمال الأمير إبراهيم الحربيّة على لبنان، فهو قد لبّى نداء ابن الشيخ الشيباني الخارج، الذي كتب إليه من فلسطين في العام ٨٦٩ يستدعيه لمؤازرته في قتاله بفلسطين والأردن. ولكنّ هذا التحالف سوف يجلب لإبراهيم سوء المصير، إذ سرعان ما أظهر الشيباني العصيان للخلافة بعد مقتل المهتدي في العام ٨٧٠، فسار إليه الأمير إبراهيم برجاله إلى حوران، ولقيه في قرية اذرعات، وتعاضد الرجلان في العصيان، ولكنّ عصيانهما قد باء بالفشل، على يد مأجور التركيّ، الذي تولّى دمشق في ما بعد، فولّى إذ ذاك الأمير النعمان على بيروت وصيدا والجبل، ولُقّب هذا بأمير الدولة لأنّ تعيينه هذه المرّة جاء من قِبَل الدولة وليس من قِبَل الأعيان. وأمر التركي النعمان بالإقامة في بيروت، بهدف المحافظة عليها من غزوات الروم والمردة. أمّا

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

إبراهيم، فقد اختفى لبعض الوقت، ثمّ استأمن النعمان، فأمّنه، وأقام في بيته حتّى وفاته في العام ٨٩٣ عن ٩٥ سنة.

بنى النعمان دارًا عظيمة في بيروت، وحصّن سور المدينة. وفي سنة ٨٧٥ وقع بينه وبين المردة قتال عظيم على نهر بيروت دام أيّامًا، حتّى تراجع المردة بعد أن فقدوا عددًا من القتلى وأُسر لهم بضعة مقاتلين، فكتب النعمان إلى بغداد عن هذه المعركة، مرفقًا كتابه برؤوس القتلى وبالأسرى. فكانت ردّة فعل المتوكّل أنّه "كتب له كتابًا يمدح شجاعته ويحرّضه على القتال، وأقرّه على ولايته تقديرًا له ولذريّته، وأرسل له سيفًا ومنطقة وشاشًا أسود، وكتب إليه الموفّق، أخو المتوكّل، وسواه من كبار أهل الخلافة، كتبًا يمدحونه عبرها، وأعاد المتوكّل الرسل معزّزين مكرّمين إلى بيروت، فتقلّد الأمير النعمان السيف، وشدّ المنطقة، ولفّ الشاش، ودعا لأمير المؤمنين، وزُيّنت البلاد والمدن، وهادن الشعراء النعمان بالتهاني، فاشتدّ أمره وعظم شأنه"[1].

وقد اشتهر هذا الأمير ببطشه الساحق، فلمّا وقع الخلاف بينه وبين نسيبيَه الأميرَين: محبوب وهلال ابنَي الأمير إسحق، ذهب هذان الأخيران إلى دمشق شاكيَين، فأرسل النعمان مَن يكمنون لهما في وادي عين الجر المعروف بوادي الحرير، فلمّا أقبل الأميران، قام جماعة النعمان باغتيالهما وبتقطيعهما إربًا إربًا، كما أرسل النعمان بعض القتلة إلى بيتَي القتيلَين، فابادوا أطفالهما وعيالهما تمامًا، وأمر النعمان إذ ذاك باعطاء محلّة الفيجنيّة التي كانت للأميرَين، إلى الأمير أياس حفيد الأمير مسعود.

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٨٤.

وممّا دوّنته التواريخ أنّ النعمان قد واجه ملاّحي السفن الفرنجيّة في العام ٩١٥ عند رأس بيروت، عندما نزل هؤلاء إلى البرّ، فقتل منهم مَن قتل وأسر مَن أسر، وقد أكرمته الخلافة على أعماله هذه. وعندما مرّ أحمد، حفيد هارون الرشيد بعياله على غربي بيروت سنة ٩٢٤، استقبله النعمان واستضافه مدّة طويلة. وخطب النعمان ابنة حفيد الرشيد: كلثوم، لابنه الأمير المنذر، وبنتيجة هذه المصاهرة، ولدت كلثوم حفيدَين للنعمان.

بعد أن وطّد النعمان أركان آل بيته وبلغ شهرة عظيمة، وافته المنيّة عام ٩٣٦ عن ثمان وتسعين سنة، فتولّى بعده، وراثة، ولده: الأمير المنذر، الذي أزوجه والده حفيدة هارون الرشيد. وهكذا تطوّرت الإمارة هذه المرّة إلى النظام الوراثيّ، بعدما كانت قد انتقلت قبلاً من النظام الاختياريّ إلى النظام التعيّينيّ.

حذا الأمير المنذر الملقّب بسيف الدولة حذو أبيه، وعندما استولى جعفر بن فلاح الكتاميّ قائد جيوش المعزّ على الرملة وطبريّة، كتب هذا الأخير إلى المنذر يدعوه لمبايعته، وبعد أن استشار المنذر أعيان عشيرته، ردّ على الكتاميّ ردًّا لطيفًا بانتظار ما سيكون... ولمّا استولى الكتاميّ على دمشق، سارع المنذر بالمسير إليه، ونال منه الخلعة، والإقرار على الولاية.

إلاّ أنّ هذا الأمير لم يعمّر طويلاً، إذ تُوفّي سنة ٩٧٠ عن خمسين سنة، فورث الإمارة ولده الأمير تميم الذي لُقّب بعز الدولة، وتزوّج بابنة الأمير إبراهيم التنوخيّ[١].

في هذه الأثناء، نشبت النزاعات في الدولة العبّاسيّة. وكان القرامطة بزعامة، الحسن بن أحمد الأعصم الذي كان يعتمد على مساعدة العبّاسيّين وتأييدهم، قد احتلّوا

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٨٦.

دمشق، وحملوا الفاطميّين على الانسحاب منها ومن البلاد برمّتها، وأقدم الحسن على اللحاق بهم حتّى عاصمتهم القاهرة[1].

وكان الروم يتحيّنون الفرص لتجديد حملاتهم على الأراضي التي كانت في حوزتهم، بينما لم يكن الأتراك غافلين عمّا يجري حولهم، فإنّ أحد قوّادهم المدعو أفتكين، استولى على دمشق، وبدأ بشنّ الغارات منها على جميع أنحاء البلاد، وكان من الطبيعيّ أن يتعاون الأتراك والقرامطة ضدّ العدو المشترك[2].

في خضمّ هذا الصراع، كتب القرامطة في دمشق سنة ٩٧٢ إلى الأمير تميم أرسلان كتابًا مستطيلاً يدعونه فيه إلى مناصرتهم، فأبى. ولمّا قصد أفتكين التركيّ محاربة الفاطميّين في بعلبك، طلب التركيّ إلى الأمير تميم مساندته فلم يلبِّ الطلب. وعندما انهزم العامل الفاطميّ، لجأ إلى تميم، ويبدو أنّ هذا التصرّف قد أغاظ أفتكين التركيّ الذي جاء إلى صيدا غازيًا في العام ٩٧٥، وقد ناصر تميم الدولة الفاطميّة ضدّ أفتكين، فيما عارضه في موقفه هذا ابن عمّه الأمير درويش أرسلان. وإذ انهزم الفاطميّون في المنطقة، ولّى أفتكين التركيّ الأمير درويش مكان الأمير تميم، ولُقّب درويش بفخر الدولة. وبنتيجة هذا التعيين انقسمت العشيرة إلى حزبَين، وقد فشل درويش في السيطرة على الإمارة. وإذ شدّد الفاطميّون الحصار في دمشق على أفتكين التركيّ، ضعف حزب الأمير درويش، ثمّ جاء الخبر بقدوم القرامطة لنجدته، فتأجّج الصراع، إلى أن ارتأى أعيان الغرب قسمة الإمارة بين تميم ودرويش، على أن لا

---

١ ـ ابن خلدون، كتاب العبَر، ٤: ٥٠ ـ ٥١.

٢ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبّور، دار الثقافة (بيروت، ١٩٥٩) ٢: ٢١١ ـ ٢١٢.

يتعرّض أحدهما للآخر في شطره[1]. وهكذا باتت القبائل التنوخيّة منقسمة بين موالين للفاطميّين ومعارضين لهم.

لمّا عاد القائد الفاطميّ: جوهر بجيوشه إلى مصر، أبحر الأمير تميم من بيروت إلى القاهرة، مع سائر أنصار الفاطميّين من قادة المنطقة، فرحّب العزيز الفاطميّ بهم وأكرمهم، بينما سار الأمير درويش إلى دمشق مُبايعًا أفتكين التركيّ، الذي أقرّه أميرًا على بيروت وجبلها[2]. وبذلك أصبحت الإمارة مناهضة للفاطميّين. وعندما نهض العزيز سنة ٩٧٧ بجيوشه من مصر مهاجمًا أفتكين، خرج معه الأمير تميم، وشارك بواقعة الرملة التي أُسر فيها أفتكين، وقد كافأ العزيز الأمير الأرسلانيّ بإعطائه توقيعًا بإمارة الغرب وبيروت، فارتفعت مكانته، وفرّ الأمير درويش إلى جهة مجهولة، ولم يعد إلى بيته إلاّ بعدما أمّنه الأمير تميم. فعادت الإمارة إلى الولاء الفاطميّ. وبعد ست سنوات (٩٨٣) مات درويش مسمومًا.

مع استمرار الوضع المضطرب في المملكة الفاطميّة، إذ لم يكن القرامطة والسلاجقة والترك والروم وحدهم قد تنازعوا عليها، بل كان المواطنون أحيانًا وأهل البادية يشتركون في تلك النزاعات، تعرّضت الإمارة للتجاذب، ففيما كان بعض الأمراء يؤازر أعداء الفاطميّين بهدف انتزاع الإمارة من تميم، بقي تميم متمسّكًا بالإمارة وبولائه للفاطميّين، غير أنّه بعد نزاع وتجاذب ، تمكّن أحد مناهضيه: الأمير منصور، من الاستيلاء على الإمارة، وتزوّج بعائشة ابنة الأمير صالح الفوارسيّ، وبصفيّة ابنة الأمير مفرّج الطائي، ووُلد له منهما أولاد... ومتّن أركان حكمه. ويبدو

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٨٨.

أنّ الأمير تميمًا قد لجأ إذ ذاك إلى حلب، إذ عندما قلّد الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢١) الأمير سليمان الكتامي الشام سنة ٩٩٦، آزره الأمير تميم "الذي قدم إليه من حلب"[1] فأكرمه وولاّه طرابلس، وولّى ولده الأمير مطوعًا الغرب وبيروت، وولّى الأمير غالبًا صيدا، والأمير هارون صور، وجميع هؤلاء من موالي تميم. واختبأ الأمير ناصر الدولة الذي كان يناهض الفاطميّين ويُناصر الأتراك الذين عيّنوه أميرًا على الغرب، ولجأ مع بعض إخوانه إلى ابن الجرّاح في الرملة.

وهكذا لم تعد الإمارة في عهدة أمير واحد، وبذلك وقعت النزاعات بين هؤلاء الأمراء، إلى أن قُتل الأمير منصور، وأخوه زهير، والأمير عمرو، والأمير عبّاس بن عمرو، فصفت كأس الإمارة للأمير مطوع، الذي بوفاته سنة ١٠١٩، انقسم أهل الغرب إلى فريقَين: الأوّل يطلب الإمارة لولده عماد الدين موسى، والثاني لأبي الفوارس معضاد الفوارسي. وأخيرًا تولّى الإمارة الأمير موسى على غير راحة، وتنازل عنها بعد سنة للأمير أبي الفوارس الذي توفّي عام ١٠٤٠، فتولّى إمارة الغرب بعده الأمير أبو الفضائل معروف، الذي لم يعش بعد ذلك سوى سبع سنوات، فعقبه في العام ١٠٤٧ الأمير أبو الغارات شجاع الدولة عمر بن عيسى، بيدَ أنّ الخليفة الفاطميّ: المستنصر (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤) قد غضب على هذا الأمير لعدم نجاحه في الحروب، فأمر بالقبض عليه وولّى الأمير شرف الدولة أبا سعيد إمارة بيروت والغرب، وقد قُتل هذا الأخير في إحدى المعارك بعد سنتَين، فأعاد الخليفة الإمارة إلى شجاع الدولة عمر، الذي تزوّج بإحدى سليلات الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: السيّدة زينب. وتُوفّي شجاع الدولة سنة ١٠٨٨، فتولّى الإمارة بعده ولده ابن زينب: عليّ، ولُقّب بعضد

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٨٩.

الدولة شمس المعالي أبي المحاسن، الذي حارب الصليبيّين في نهر الكلب، في العام ١١٠٠ وفي العام ١١٠١، فانتصر في الأولى، وانهزم في الثانية، على أنّ منازلته للصليبيّين جعلت شمس الملوك في الشام يولّيه صيدا إضافة لولايته. لكنّ عضد الدولة قُتل أخيرًا على يد الصليبيّين في معركة بيروت عام ١١١٠. وقد اضطرّ أحد الأمراء الناجين من الإبادة التي شنّها الصليبيّون على أمراء الغرب: الأمير مجد الدولة، إلى عقد صلح مع القائد الصليبي، "فأتى الأمير إلى الغرب، فوجده قاعًا صفصفًا لا يُسمع فيه إلاّ البكاء والعويل. ثمّ أخذ الأمير بترميم البلاد وإرجاع سكّان الغرب واستقلّ بالإمارة"[1].

وفي وقت لاحق، وكان الأتابكة الأتراك قد سيطروا على دمشق، أرسل طفتكين الأتابكي ملك دمشق في العام ١١٢٦ كتابًا يولي الإمارة إلى مجد الدولة هذا، ويقطعه قرى معلولة.

ولمّا اشتدّ ساعد مجد الدولة، راح يغزو الإفرنج الذين ندموا على مصالحته وإطلاقه من الأسر، وما زال كذلك حتّى قُتل في العام ١١٢٧ في أرض البرج.

وكان الأمير مجد الدولة، آخر التنوخيّين الأرسلانيّين الذين تولّوا الإمارة في هذه الحقبة، إذ في العام ١١٤٧، ولِّي أمير تنوخيّ قيسيّ الولاية من قِبَل سلطان دمشق، وهو الأمير بحتر الملقّب بناهض الدين والمكنّى بأبي العشائر، وهو أشهر آل تنّوخ على الإطلاق، ولا ينتسب إلى الفرع الأرسلانيّ، بل هو من سلالة نبا الذي قدم إلى لبنان في العام ٨٢٠ كما ذكرنا سابقًا.

---

١ - الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٩٥.

الفاطميّون وظهورُ الدَّعوَة

تُعزى الحركة الدينيّة التي عُرف أتباعها في ما بعد بالموحّدين الدروز أساسًا إلى الحاكم بأمر الله[1]. فمَن هو الحاكم بأمر الله؟!

عندما أخذت الخلافة العبّاسيّة تسير في طريق الإنحلال، أخذت تظهر هنا وهناك في الشرق والغرب، دويلات تركيّة وفارسيّة وعربيّة[2]، وقد ظهرت في مصر بين ٩٠٩ و١١٧١م الدولة الفاطميّة على يد عبيد الله المنتسب إلى فاطمة، إبنة النبيّ ﷺ، وزوجة الإمام عليّ[3] عليه السلام. إلاّ أنّ بعض المؤرّخين يشكّ في صحّة هذا النسب[4]، ولكنّ مؤرّخي الموحّدين الدروز يؤكّدون على صحّة نسب عبيدالله إلى فاطمة[5].

---

١ ـ بعض المراجع يذكره باسم الحاكم بأمره، وبعضها الآخر يذكره باسم الحاكم بأمر الله، وقد يكون المقصود واحدًا، إذ بالإمكان ردّ "هاء" الإضافة في كلمة بأمره إلى الله.

٢ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، دار الثقافة ومؤسّسة فرانكلين (بيروت،١٩٥٩) ص٣٣١.

٣ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة TORNBERG، الجزء الثامن (ليدن،١٨٦٥) ص ١٧ ـ ٢٠؛ أبو الفداء، التواريخ القديمة من المختصر في أخبار البشر، نشر فليشر (ليبزغ،١٨٣١) الجزء الثاني، ص ٦٧ ـ ٦٨.

٤ ـ ابن خلّكان، وفيّات الأعيان، (القاهرة،١٢٩٩) ١: ٤٤٨٧ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر WILLIAM POPPER، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص١١٢؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (القاهرة، ١٣٠٥هـ) ص٢١٤.

٥ ـ الصغير سعيد، بنو معروف (الدروز) في التاريخ، مطبعة الإتقان (بيروت، ١٣٧٤هـ) ص٢٣٢.

كان عبيدالله من أنصار الشيع التي أعلنت ولاءَها لخلافة الإمام عليّ (ع)، وقد أعلن نفسه المهديّ المنتظر الذي كانت تتطلّع الشيعة إلى ظهوره[1]. ويُظنّ أنّه وُلد في سَلَميَّة بالقرب من مدينة حمص، ومنها سار إلى المغرب حيث أسّس عاصمة له في تونس، دعاها المهديّة، وأقام فيها من ٩٠٩ إلى ٩٣٤. وفي عام ٩٧٣ نقل خليفته الثالث: المعزّ (٩٥٢ ـ ٩٧٥) عاصمة ملكه إلى مصر حيث كان قائده جوهر، المسيحيّ الأصل من جزيرة صقلّية، قد أسّس عاصمة جديدة لأسياده الفاطميّين سمّاها "القاهرة"[2]؛ كما أنّه قد بنى جامع الأزهر، الذي يُعدّ اليوم من أكبر المؤسّسات الدينيّة المحافظة في العالم. وجوهر هذا، وسّع مُلك الفاطميّين حتّى شمل سنة ٩٦٩ الشاطئ اللبنانيّ بكامله، وهو الذي طرد الأخشيديّين من مصر وسورية.

خلف المعزّ في الخلافة الفاطميّة: العزيز (٩٧٥ ـ ٩٩٦م) وقد بلغت رقعة المملكة في عهده ذروتها في الاتّساع. وكان النّاس يعترفون بسيادة الفاطميّين من المحيط الأطلسيّ إلى البحر الأحمر، فالحجاز واليمن، وحتّى في الموصل وشمال العراق.

في العام ٩٩٦، خلف العزيز ولده: الحاكم بأمر الله، حتّى العام ١٠٢١م، وهو الذي تُعزى إليه الحركة الدينيّة التي عُرف أتباعها في ما بعد، بالموحّدين الدروز[3].

---

١ ـ راجع الجزء العشرين من هذه الموسوعة.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٣ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٣٦.

دَعـوَةُ

الحَاكِم

يقول مؤرّخو الموحّدين الدروز إنّه مع إقبال الناس على علوم أهل البيت، واعتناق المذهب الفاطميّ وفقه الطائفة الإسماعيليّة المعمول به في القضاء والإفتاء آنذاك، "آلف الفاطميّون أهل السنّة والجماعة ومكّنوهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، وسمحوا لهم بأن يكون لهم حلقات في المسجد وزوايا يدرّس بها الفقه على مختلف مذاهبهم، وكان لكلّ فقيه منهم زاوية، ويجري عليه الرزق"[1]، ويستشهد هؤلاء بالقلقشنديّ الذي ذكر أنّ مذاهب السنّة: مالك والشافعي وحنبل، كانت ظاهرة في مملكة الفاطميّين. كما يذكرون أنّهم سمحوا للسنيّين بتولّي القضاء أحيانًا شرط خضوعهم للمذهب الإسماعيليّ.

ويفيد مؤرّخو الموحّدين الدروز بأنّ الحاكم أظهر كرهه لمظاهر الراحة والتنعّم التي كان يغرق بها الشعب، فاستفاق الناس من نشوة الانهماك في الملذّات ليواجهوا نظمًا أخلاقيّة دقيقة قاطعة لم يكن في تطبيقها هوادة، فهو قد حرّم المسكرات والمنكرات وعاقب متعاطيها بشدّة، وعطف على متّبعي السراط المستقيم، وشدّد النكير على كلّ مَن شذّ عن هذا المنهاج القويم ولو كان من المقرّبين إليه، فأعلن الناقمون الغرابة في أطواره، وأوجدوا تناقضًا في أحكامه المتناهية بالرحمة والقسوة، وصنّفوا تصانيف تناقلها المؤرّخون كلّ على هواه، مع أنّ الحاكم ظهر في وسط الازدهار الفاطميّ[2].

---

١ - الصغير سعيد، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٢ - الصغير سعيد، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٣٤.

أحد مؤرّخي الفاطميّين ودعوة الحاكم بأمر الله[1] وصف الحاكم بأنّه كان لغز عصره، بعيد الغور، وافر الابتكار، وعقليّته تسمو على مجتمعها وتتقدّم عصرها بمراحل، وعبقريّة يجب أن تتبوّأ في التاريخ مكانها اللائق، وشخصيّته تفيض من خفائها على المجتمع الذي يقبض على أقداره ومصائره، وقد لازمها الخلفاء، لأنّ الدّولة الفاطميّة عُنيت منذ استقرارها في مصر، بتنظيم دعوتها المذهبيّة السريّة وبثّها. وكانت هذه الدعوة، كما ذكر المقريزي[2]، تُلقى في مجالس الحكمة، أحيانًا بالقصر وأحيانًا بالجامع الأزهر، وكان يُشرف على إلقائها قاضي القضاة نفسه، ثم داعي الدعاة الذي يليه في المرتبة والمنصب، وكان يُنتخب من أكابر فقهاء الشيعة المتضلّعين من العلوم الدينيّة ومن أسرار الدعوة الفاطميّة، ويعاونه في نشر الدعوة اثنا عشر نقيبًا وعدد كبير من النوّاب يمثّلونه في سائر النواحي، وكانت هذه الدروس الخاصّةُ تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته في إيوان القصر الكبير، وتُعقد للنساء مجالس خاصّة بمركز الداعي بالقصر، وهو المسمّى "بالمحوّل"، وكان من أعظم الأبنية وأرحبها، فإذا انتهت القراءَة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب، ويؤدّي له النجوى من استطاع، وهي رسم اختياريّ قدره ثلاثة دراهم وثلث، يُجبى من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة. وكانت ثمّة مجالس أخرى تُعقد بالقصر أيضًا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب ورجال الدولة والقصر ونساء الحرم والخاصّة، ويسودها التحفّظ والتكتّم ويُمنع الكافّة من مشاهدتها، وتُعرض فيها الدعوة الفاطميّة السريّة على يد دعاة تفقّهوا في درسها وعرضها. وكان للعامّة أيضًا نصيب من تلك المجالس

---

١ ـ عنّان محمّد، الحاكم بأمر الله، مرجع سابق.

٢ ـ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دور الملوك، لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة،١٩٣٩)

فيُعقد للرجال مجلس بالقصر، ويُعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر، ويُعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقّي الدعوة، وكان الداعي يُشرف على هذه المجالس جميعًا إمّا بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوّابه، وكانت الدعوة تُنظّم وتُرتّب طبقًا لمستوى الطبقات والأذهان، فلا يتلقّى الكافّة منها سوى مبادئها وأصولها العامّة، ويرتفع الدعاة بالخاصّة المستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا[1].

ثمّ أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ١٠٠٥م، فأضحت مدرسة للعلوم الدينيّة والزمنيّة ومثوى الدعوة السريّة الفاطميّة، فاحتشد فيها الدعاة والنقباء السرّيّون من كل صوب. وكانت هذه الدار مقسّمة لعدّة أقسام: القرآن والعلوم الدينيّة والفلك والطبّ والنحو وعلم اللغة والتواريخ والروحانيّات والكيمياء وغير ذلك من العلوم المنوّعة، وكانت تضمّ مليونًا وستماية ألف كتاب، ثمّ زالت بزوال الدولة الفاطميّة.

رَسَائِلُ
الحِكمَة

ظهر في أواخر عهد الحاكم بأمر الله، أبو الفضل حمزة بن عليّ الزوزني، فأضفى على شخصيّة الحاكم قدسيّة ناسوت اللاّهوت، ثمّ بدأ يوجّه رسائله إلى المستجيبين لدعوته ابتداء من سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧م، ووجّه مثلها الشيخان إسماعيل التميميّ، وعليّ بن أحمد السموقيّ الملقّب ببهاء الدين، والذي استمرّ يدعو لهذا المذهب حوالى عشرين عامًا.

---

١ عنان، الحاكم بأمر الله، مرجع سابق، ص١٦٢، ١٦٣.

تشرح هذه الرسائل ماهيّة الدعوة وتُرشد المستجيبين لأصول المذهب وروابطهم ببعضهم وصِلاتهم بغيرهم، وقد وُجّهت الرسائل إلى مختلف الممالك والأمصار، منها: الشام، لبنان، العراق، إيران، الحجاز، اليمن، مصر، الهند، والبحرين، وإلى ملك الروم في القسطنطينيّة، وأقطار أخرى في الشرق والغرب.

يحقّ للباحث في دعوة الحاكم الفاطميّ أن يستنتج ما فحواه أنّه كان يسعى إلى دين توحيديّ، تنصهر فيه الأديان الإبراهيميّة بجميع مذاهبها، غير أنّ مثل هذا الطموح يبقى مستحيل المنال، ذلك أنّ الله ما شاء أن يجعل الناس كلّهم أمّة واحدة... ولو شاء الحاكم.

إختفَاء

الحَاكم

في سنة ١٠٢٠م / ٢٧ شوال ٤١١ هـ، اختفى الحاكم وهو في طريقه إلى جبل المقطّم بقرب القاهرة، حيث يُظنّ أنّه كان قاصدًا إلى المرصد الفلكيّ الذي أقامه الفاطميّون لعالمهم الفلكيّ الكبير عليّ بن يوسف، فكان اختفاؤه في تلك الظروف التي تشبه الأساطير في غموضها وخفائها، وانعدام كلّ أثر يدلّ على مصيره أو يلقي ضوءًا على ظروف اختفائه أو مصرعه، كان عاملاً جديدًا في إذكاء الخفاء والتطلّع إلى وراء الغيب وإذكاء الدعوات السرّيّة[1]. وبعد اختفاء الحاكم بأمر الله[2]، تولّى ابنه: الظاهر

---

١ ـ عنان، الحاكم بأمر الله، مرجع سابق، ص١٥٦.

٢ ـ راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣١٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهر، نشر POPPER، الجزء الثاني (بركلي،١٩٠٩) ص ٧٠ وما يليها؛ راجع أيضًا: المجلّد العشرين من هذه الموسوعة.

خلافة الفاطميّين سنة ١٠٢١م[١]. ويذكر مؤرّخو الموحّدين الدروز أنّ المصريّين، محبّي التنعّم، "تنفّسوا الصعداء لاختفاء الحاكم، وعادوا إلى مقاومة هذه الملّة المتقشّفة، ومحاربة دعوتها، ولمّا جاءَ الحكم الأيّوبيّ وقضى على الدولة الفاطميّة المتداعية، لم يكن باقيًا من هذه الملّة في جميع أنحاء القطر المصريّ إلاّ مَن بالغ في التكتّم"[٢]. وهكذا نشأ في الشيعة الباطنيّة طريقة جديدة كان الحاكم بأمر الله رئيسًا لها. وقد دعا أتباع هذه الطريقة أنفسهم "موحّدين" لاعتقادهم بأنّ الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ليس له بداية تُعرف ولا نهاية تُوصف.

دَعوةُ التَّوحِيد فِـي لُبنَــان

نشأ إذَن، على يد الحاكم بأمر الله الفاطميّ، ملّة جديدة في الإسلام، هي ملّة الموحّدين. غير أنّ الذين اتّبعوا دعوة التوحيد هذه في لبنان وجواره من الأراضي السوريّة والفلسطينيّة في ما بعد، قد عُرفوا بالدروز، نسبة إلى أحد الدعاة كما سيأتي.

بالعودة إلى الفاطميّين، فقد "أمضى الخليفة الفاطميّ: العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) مدّة حكمه، وهو يحاول جاهدًا التخلّص من الحمدانيّين، ومن بعض ولاته في بلاد الشام الذين كانوا يحاولون الانفصال عن مصر والاستقلال بما لديهم. وقد تأثّرت منطقة طرابلس لبنان بهذه الفوضى بسبب قربها من أنطاكية، منطقة النفوذ البيزنطيّ، وقربها من منطقة حلب، منطقة النفوذ الحمدانيّ. واتّخذ الفاطميّون من طرابلس مركزًا

١ ـ مكّي محمّد عليّ، لبنان من الفتح العربيّ إلى الفتح العثمانيّ، مرجع سابق، ص٩٤.

٢ ـ الصغير، الموحدون، مرجع سابق، ص٢٣٥.

رئيسًا لهم على الساحل اللبنانيّ، فتركّز فيها الأسطول الفاطميّ، كما أصبحت مركز التموين[1].

في هذا الوقت، "تدفّقت هجرة كبيرة على المناطق الساحليّة من لبنان من المغاربة، ومنهم العائلة النكديّة[2]. وقد رافق الحاكم الفاطمي وتدفّق المهاجرين دعوة دينيّة للأخذ بمذهب الفاطميّين الشيعي، واعتمد العزيز بالله في نشر المذهب الشيعيّ الفاطميّ على التساهل الدينيّ إلى درجة أنّه جعل بعض ولاته وحكّامه من المسيحيّين واليهود"[3]. "فقد كانت جاريته الأثيرة امرأة نصرانيّة، عيّن أحد أخوَيها رئيس أساقفة القاهرة، والآخر في القدس. وكان وزيره نصرانيًّا أيضًا هو عيسى بن نسطوروس. وقد أناب عنه في سورية رجلاً يهوديًّا اسمه منشا (منسّا) بن إبراهيم. فاتّهم كلّ منهما بأنّه كان يراعي مصالح أبناء ملّته. وفيما كان الخليفة يومًا يجري على بغل سريع، ألقت إمرأة في طريقه لوحة كُتب عليها: بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بابن نسطور، وأذلّ المسلمين بك، ألا نظرت في أمري؟"[4].

في هذا الوقت، تواصل الاضطراب في المنطقة، إذ قام التنازع على أشدّه بين قرامطة وسلاجقة وترك وروم، إضافة إلى اشتراك المواطنين وأهل البادية في هذا التنازع. وقد أدّى هذا الاضطراب إلى "انقسام الإمارة التنوخيّة من حيث الولاء،

---

١ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٩٢.

٢ ـ المرجع السابق بالاستناد إلى الشدياق، أخبار الأعيان.

٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢١٢؛ قابل: إبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ليدن، ١٩٠٨)، ص٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم، مرجع سابق، ج ٢، ق ٢، ص ٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ٢: ١٤؛ أبو الفداء، مرجع سابق، ٢: ١٣٨؛ راجع: الجزء العشرين عشر من هذه الموسوعة، ص١٣١.

فتحزّب بعض الأمراء للفاطميّين، بينما تحزّب فريق آخر للحمدانيّين"[1]، كما سبق أن ألمحنا. إلاّ أنّ هذا "لم يمنع من أن تشمل الإمارة التنوخيّة الساحل اللبنانيّ بكامله ـ أحيانًا ـ من طرابلس إلى صور"[2].

وعندما توفّي العزيز سنة ٩٩٦م، كان قد حاول تصفية الاضطراب في بلاد الشام، وإبعاد البيزنطيّين، بيدَ أنّه مرض بعد أن جهّز جيشًا كبيرًا لهذه الغاية، فقام الامبراطور باسيل الثاني بهجوم كبير على شماليّ سورية في العام ٩٩٥، أوصله إلى مشارف طرابلس.

وعندما أصبح الحاكم بأمر الله خليفة في العام ٩٩٦، كانت الثورات منتشرة في أنحاء سورية ولبنان وفلسطين، ومنها ثورة علاّقة، وهو أحد الملاّحين في صور، الذي استقلّ بالمدينة عام ٩٩٧ وضرب النقود باسمه، وكتب عليها: عزٌّ بعد فاقة، الأمير علاّقة. ثمّ بلغته الأنباء عن تحرّك فاطمي، فسارع إلى طلب المساعدة من البيزنطيّين الذين أرسلوا بعض سفنهم للنجدة، غير أنّ الفاطميّين وجّهوا على المدينة جيشًا بقيادة أبي عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان، ومعه أسطول بحريّ، فحاصر المدينة برًّا وبحرًا، واصطدم بالسفن البيزنطيّة فانتصر عليها، واضطر أهل صور إلى الاستسلام، فأحتلّ القائد الفاطميّ المدينة ونهبها، وأخذ علاّقة أسيرًا، وأرسله إلى مصر، حيث كانت نهاية مغامرته سلخه وصلبه، وقيل إنّ الفاطميّين حشوا جلده قشًّا انتقامًا منه. وعيّن الفاطميّون أبا عبد الله بن حمدان أميرًا على صور. وتابعت قوّات الحاكم زحفها شمالاً حتّى وصلت إلى مشارف أنطاكية، وعملت في الوقت ذاته على

---

١ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٩٢.

٢ ـ راجع الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٨٨؛ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص ٩٢.

تشتيت قوى القبائل البدويّة في أنحاء فلسطين وبعض سورية. ويبدو أنّ محاولة الحاكم استعادة أنطاكية من البيزنطيّين جعلت هؤلاء يعودون إلى غزو البلاد، فقام الأمبراطور باسيل الثاني مجدّدًا سنة ٩٩٩ بهجوم كبير اجتاح فيه معظم المناطق الشماليّة من سوريّة ووصل إلى طرابلس، ونجم عن هذا الهجوم توقيع اتفاقيّة بين البيزنطيّين والفاطميّين لمدة عشر سنوات. إلاّ أنّه قبل أن تنتهي مدّة الاتفاقيّة، أمر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة وبعض الكنائس الأخرى، وفرض على المسيحيّين واليهود قيودًا شديدة سنة ١٠٠٩، كانت سببًا في ما بعد للحروب الصليبيّة[١].

وهكذا نرى أنّ الحاكم بأمر الله سار بعكس خطى سلفه العزيز في معاملة المسيحيّين واليهود، وقد رافق تشدّده ضدّ أهل الذمّة، الدعوة إلى المذهب التوحيديّ، ليكون خلاصة المذاهب والأديان الثلاثة: اليهوديّة والمسيحيّة والاسلام. وقد ساعده على ذلك خضوع كامل المنطقة له، بما في ذلك مملكة حلب التي انتهى حكم الحمدانيّين فيها سنة ١٠١٣م[٢].

ويذكر بعض مؤرّخي الموحّدين الدروز أنّه في العام ١٠٢١، أسند الحاكم بأمر الله ولاية عهده لعبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهديّ بالله، وولاّه دمشق. بيدَ أن هذا الأخير ساء السيرة، وأباح المحرّم، فبعث الحاكم إذ ذاك أحد أعوانه وأحضر عبد الرحيم إليه مذلولاً، وأهانه، وخلعه من الولاية. فسارع عبد الرحيم إلى التظاهر بالتوبة وطلب العفو، فاستجاب له الحاكم وأعاده وولاّه دمشق مجدّدًا. ولكنّ هذا الأخير تآمر مع أمير كرديّ يُدعى "ابن تالشليل" ودفعه إلى غزو سكّان وادي التيم الذين كانوا قد

---

١ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٩٣ ـ ٩٤.

٢ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٩٤.

أظهروا ولاءَهم للحاكم بأمر الله من حيث الدعوة التوحيديّة، فقتل منهم أمير الأكراد وسبى وأهلك خلقًا كثيرًا[١].

وكانت دعوة التوحيد قد انتشرت في هذه المناطق، وعُرف أتباعها بالدروز، نسبة إلى نشتكين الدّرَزيّ. ومنهم مَن يدعوه محمّد بن اسماعيل الدرزيّ[٢]. ومنهم مَن يدعوه الأمير أنوجور منصور أنوشتكين الدرزيّ[٣]. وورد اللّقب عند ابن الأثير: الدزبري - أو البربري. أمّا الدرزيّ فمعناها الخيّاط بالفارسيّة، علمًا بأنّ أصل الدَّرَزيّ فارسيّ.

على أيّ حال، كان الدرزيّ أوّل من جهر بتقديس الخليفة (الحاكم)[٤]. والجدير ذكره أنّ المبدأ القائل بتجسّد "مولانا" بصورة إنسان، وإنّ الحاكم بأمره هو أهمّ مراحل هذا التجسّد ومنتهى غايته، إنّما هو من تعليم الدرزيّ في الأساس، أمّا الأنبياء فهم، نسبيًّا، أقلّ خطرًا[٥]. وكانت أرض هذا التعاليم في البداية البلاد المصريّة. وإذ لم يلقَ الدرزيّ لتعليمه أذنًا صاغية بين المصريّين، رحل إلى وادي التيم عند سفح جبل الشيخ في لبنان، فاستجاب له أبناء ذلك الريف الذين عُرفوا بالشجاعة وحبّ الحريّة، إذ كانت بعض الآراء الشيعيّة المتطرّفة قد غشت أوساطهم[٦]. ويذكر بعض المؤرّخين أنّ

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٢٣.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢١٧.

٣ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٩٥.

٤ ـ ابن تغري بردي، ج ٢ ق ٢ ص٧٠.

٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢١٧.

٦ ـ المرجع السابق، ص ٢١٧؛ ابن تغري بردي ج ٢ ق ٢ ص٧٠.

الدرزيّ كان قد هرب من مصر ناجيًا بنفسه من غضب الجماهير التي اهتاجت عند سماعها إعلان ربوبيّة الحاكم[1].

ومع أنّ "الموحّدين" صاروا يُنسبون إلى الدرزيّ، فعُرفوا بعده بـ "الدروز". فإنّهم قد تبرّأوا منه لاحقًا، إذ "عندما شذّ الدرزيّ عن أصول الدعوة وأخذ يبثّ بتعاليم التوحيد بعض البدع الإلحاديّة، ويجهر بأمور مخالفة للأصول الدينيّة، ويدعو بالحريّة الجنسيّة، أرسل الإمام حمزة يعزله من منصبه ويعذله عن غيّه، فنقم عليه أتباعه، وقتله النتوخيّون". وعُرف الموحّدون بعد ذلك بـ "الأعراف" بدلاً من الدروز، وغلب عليهم في حوران في العهد الأخير لقب "آل معروف" تحبّبًا، وهذا كان شعار اليمنيّين، علمًا بأنّ هذا الشعب ينقسم إلى أصلَين من أمّهات أصول العرب في هذا القطر وهما: القيسيّة واليمنيّة[2].

من الواضح أنّ الآراء لا تتّفق حول شخصيّة الدرزيّ هذا، وحول ظروف قدومه إلى لبنان. فبالاضافة إلى الخلاف حول اسمه، كما ورد سابقًا، كَثُرت الروايات حول ظروف مجيئه إلى لبنان. فمن قائل بأنّه جاءَ هاربًا من نقمة المصريّين، إلى قائل بأنّه جاءَ داعية دينيًّا، إلى قائل بأنّه جاءَ قائدًا محاربًا.

ففي "خطط الشام"[3] ما يفيد عن أنّه عندما "أعلنت القبائل في وادي التيم عن اتّباعها لدعوة التوحيد، هاجمها أمير الأكراد ابن تالشليل فقتل منها وسبى وأحرق وأهلك خلقًا"، وهذا يفيد عن أنّ هذه الدعوة قد سبقت الدرزيّ إلى لبنان.

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣١٧.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٢٣٦؛ راجع: كرد عليّ محمّد، خطط الشام (دمشق،١٩٢٥) ٦: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

٣ ـ كرد عليّ، خطط الشام، مرجع سابق، ١: ١٤٧.

وتفيد المراجعات التاريخيّة عن أنّه بعد الحاكم بأمر الله، وتولّي ابنه الظاهر خلافة الفاطميّين سنة ١٠٢١، انتشرت الفوضى في لبنان وبلاد الشام. واقتسم المملكة ثلاثة من أمراء القبائل العربيّة: سنان بن عليان أمير بني كلب في المناطق الداخليّة، وحسّان أمير بني طي في فلسطين، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب في شمال سورية ولبنان. وكان صالح بن مرداس من أتباع الدعوة الجديدة في البدء، ثمّ انقلب على الدعوة، ولذلك أطلق عليه ابن القلانسي لقب "اللّعين". وأدّى قيام القبائل وتعصّب المذاهب الشيعيّة الباطنيّة كبقايا القرامطة، إلى تجمّد الدعوة وتقلّصها. وأرسل الخليفة الجديد: الظاهر لإعزاز دين الله، قائدًا تركيًّا نشيطًا من الفاطميّين، هو الأمير أنوجور منصور أنوشتكين الدرزيّ، فاجتمع إليه الموحّدون في لبنان، وقاتل أنوشتكين ومعه الموحّدون، جموع القبائل التي قادها صالح بن مرداس وحسّان بن طي، في الأقحوانة، بالقرب من طبريّة (يقع فيها مقام النبي شعيب الشهير عند الموحّدين الدروز) وكان انتصار أنوشتكين والموحّدين الدروز حاسمًا، فعلّق القائد الفاطميّ رؤوس القتلى على بوّابة صيدا، وأرسل رؤوس الأمراء إلى مصر. كان ذلك سنة ٤٢٠ هجريّة (١٠٣٠م)[1].

وكانت هذه المعركة امتحانًا لقوّة الموحّدين الدروز، لذلك كان لها مقام عظيم في تاريخهم:

"هناك في سهل الأقحوانة وجوار حطّين، كان بناء الطائفة الدرزيّة العسكريّ المتين، وفيها تفيأت راية الأمير أنوشتكين، وانتسبت بفخر إليه، وهناك تعاقدت الأيدي، وعلى مقام شعيب القائم في الأقحوانة ما بين طبريّة وحطّين عقدت المواثيق، وتليت

---

١ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٩٥.

الأقسام، وعرفت الدرزيّة بأخوّة سلاح ومعموديّة دماء فرقة عسكريّة... وعلى هذا لا يمكن بحث الدرزيّة كمذهب دينيّ لأنّها ليست من ذلك في شيء"[١].

وقصد المؤرّخ من ذلك أنّ لقب الدروز هو لقب عسكريّ للموحّدين، إنّما في الواقع، طغى اسم الدرزيّة، في التعريف بأصحاب مذهب التوحيد، على أيّ اسم آخر.

وفي معركة الأقحوانة هذه، قُتل صالح بن مرادس، الذي كان انقلب على الدرزيّة. "ولمّا عرف أصحاب صالح المقيمون في بعلبك وحمص وصيدا ورفينه وحصن ابن عكّار خبر قتله تخلّوا عنها جميعًا، واستعادها أصحاب السلطان"[٢].

في هذه الأثناء، انتشرت الدعوة في المناطق السوريّة، "فاجتمع سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١م في جبل السمّاق، غربي حلب، جماعة من الموحّدين وجاهروا بمذهبهم، فقصدهم وانضمّ إليهم خلق كثير من أهل نحلتهم، فرسم قبطان أنطاكية خطّة لمَن يجاورهم من طرخانته[٣]، فقبضوا على دعاتهم وأمثالهم بالخدعة وقتلوهم، ثمّ نصبوا القتال على الباقين وانتصروا عليهم بعد قتال دام يومًا"[٤].

وقد انتشرت الدعوة بين الإسماعيليّين لاعتقادهم بإمامة الفاطميّين، ولكن الاختلاف في نواحي هامة، جزّأهما، "فاعتنقت هذا المذهب قبائل تغلب وربيعة وعليّ وشمّر وغيرها من القبائل التي كانت معوانًا لأمير حلب سيف الدولة الحمداني، الذي كان يغزو بلاد الروم بهذه القبائل المعادية لهم، والمخالفة لِما يعتقدونه من تثليث. وتذكر

---

١ ـ أبو إسماعيل سليم، الدروز، مرجع سابق، ص٦٥.

٢ ـ كرد عليّ، خطط الشام، مرجع سابق، ٢: ١٥٠.

٣ ـ **طرخان:** اسم الرئيس الشريف في قومه لا تؤخذ منه ضرائب، ويكون رئيس خمسة آلاف رجل، وهو دون البطريق، والطرخانة هي مقرّ الطرخان.

٤ ـ كرد عليّ، خطط الشام، مرجع سابق، ١: ٢٤٦ ـ ٢٤٧، ٢٥١.

المخطوطات وجودهم في جبل أنطاكية وفي جبل السمّاق الأعلى[1] وحلب وقنسرين وأعزاز والرقّة ومنبج وجهات نهر الخابور ومدينة مرعش، جنوبي جبال طوروس، والحلّة والكوفة، حيث كانت تقيم بجوارها عشيرة المنتفك التي يرجع أصلها إلى قيس عيلان، وحيث كان يُطلق على الموحّدين الدروز لقب بني قيس، وجهات أخرى حتّى بلغ عددهم نحو سبعمائة ألف نسمة، بينهم كثير من قبائل تميم وأسد وعقيل ومعروف ودارم، فقاوموا العبّاسيّين مقاومة فعّالة"[2].

ويذكر مؤرّخو الموحّدين الدروز أنّ تعاقب المحن على قبائلهم، ومنها محنة أنطاكية ومحنة حلب التي اشتهر بالبطولة فيها الأمير رافع ابن أبي الليل أحد سادات بني طي، قد اضطُرّ الكثير من تلك القبائل للمهاجرة إلى الجبال المرتفعة الخالية، ومَن بقي بين المتغلّبين اعتنق مذهبهم، وفي دمشق وغوطتها كانوا كثيرين، لا سيّما في محلّتي باب المصلّى وباب سريجة والشاغور، حيث اضطرّت الاضطهادات الكثيرين للعودة إلى مذهب السنّة، ومنهم مَن حافظ على عقيدته بالكتمان، ورحل آخرون، وبقي عدد قليل في دمشق، حيث يسكنون ثلاث قرى مجاورة لها. وهكذا حدث في قرى جبل صفد، والكرمل، وشاغور عكا، وشفا طبريّة، فبعد أن اعتنق الدعوة الكثيرون عاد معظمهم إلى السنّة، ولكنّ تقاليدهم مشابهة لتقاليد الموحّدين. وإذا كان الاعتداء على معتنقي هذا المذهب، في المناطق السهلة، يقلّل عددهم، فإنّهم كانوا يزدادون كثرة وقوّة في المناطق الجبليّة، خصوصًا في لبنان، حيث تكاثروا وتكتّلوا لمجابهة غزوات الإفرنج والبيزنطيّين، وكان يرافق تكتّلهم استقلال كلّ قبيلة بشؤونها الخاصّة، مع

---

١ ـ من قراه المشهورة في تاريخ الموحّدين: قرية كفتين التي يكثر فيها شجر الزيتون، وهناك عدّة قرى تابعة لإسكندرونة يسكنها الموحّدون الدروز، تُعرف إحدى هذه القرى باسم جنداليه ويُظنّ أنّها تحريف لجند الله.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤.

اعتراف الجميع بالأولويّة لقبيلة عريقة النسب، لحاجتهم إلى القيادة في حروبهم، وقد اتّسعت سلطة الأرسلانيّين وامتزجوا بالتنوخيّين واشتهروا جميعًا بحماية الثغور العربيّة ومحاربة الإفرنج[١].

المُوَحِّـدون

بعد الدَّرَزي

تُحيط بالقيادة الدينيّة للموحّدين الدروز حُجب كثيفة بعد مقتل الدرَزيّ، وقد يكون مردّ ذلك إلى الاضطهادات التي كان يتعرّض لها أتباع هذا المذهب في تلك الحقبة من التاريخ. وجلّ ما جاءَ ذكره في المدوّنات أنّ الدرَزيّ قُتل في وادي التيم سنة ١٠١٩ في إحدى المعارك، فخلفه منافسه: حمزه بن عليّ الملقّب بالهادي، وهو الآخر أحد الدعاة الفرس. وعندما اغتيل الحاكم بأمر الله، أنكر الهادي وفاته وأشاع أنّه تحوّل إلى "غيبة" موقّتة، وأنّه من الواجب بالتالي ترقّب "رجعته" المظفّرة[٢].

ويبدو أنّ حمزة[٣]، الذي كان الزعيم الفكريّ الجديد للدعوة الجديدة، هو الواضع الحقيقيّ لعقيدتها. وكانت فلسفتة اللاهوتيّة باطنيّة في طريقتها، أي أنّها تقول بأنّ للنصوص معنى باطنيًا غير معناها الظاهريّ، وهذا المعنى لا يفقهه إلاّ الأئمّة الراسخون في العلم. والحقيقة في نظر الباطنيّة، يجب أن يفتَّش عنها في المعنى الخفيّ

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٥.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢١٧ ـ ٢١٨.

٣ ـ ابن حجر العسقلاني: رفع الأصر عن قضاة مصر، ـ وهو تكملة للكندي ـ كتاب الولاة والقضاة ـ (بيروت،١٩٠٨) ص ٦١٢، يذكره باسم حمزة اللبّاد الزوزني.

الباطنيّ، لا في المعنى الحرفيّ الظاهريّ، الذي ليس سوى حجاب يستر الحقيقة عن أعين الجهّال الذين لم يقفوا بعد على الأسرار الداخليّة. وكان حمزة قد قبّح تعاليم الدرَزيّ وشهّر بها، قبل أن يُقتل في القاهرة أثناء هياج الشعب بعد موت الحاكم بمدّة قصيرة[1].

وكان خليفةَ حمزة في نشر الدعوة، تلميذ ربما كان سوريًّا مسيحيًّا[2]. إسمه: المقتنى بهاء الدين (توفي ١٠٤٢) وقد عاش المقتنى مدّة من الزمن متخفّيًا، ولكنّنا لا ندري على وجه التدقيق أين كان اختباؤه في مصر أم في سورية. وقد بعث بهاء الدين برسائل عديدة إلى الأتباع، أو إلى أشخاص يدعوهم فيها إلى قبول الدعوة، في أماكن مختلفة متباعدة، مثل بيزنطية والهند. ومجموع هذه الرسائل يشكّل بعض كتب الموحّدين الدروز الدينيّة التي يقرأونها ويتدارسونها في خلواتهم. فقد بعث مثلاً برسالة إلى الامبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ ــ ١٠٢٨) وهي الرسالة الموسومة بالقسطنطينيّة، وبعث برسالة أخرى يردّ فيها على النصارى، وهي الرسالة الموسومة بالرسالة المسيحيّة[3]. ويعزى إليه كتابة أربعة كتب من كتب الموحّدين الدروز الدينيّة، ممّا يضعه في المقام الأوّل بين كتبتهم اللاهوتيّين. وآخر من شرح رسائل بهاء الدين، كان: عبد الله التنّوخي الذي يُعرف بالسيّد، والذي سنتوسّع في سيرته لاحقًا.

قُبيل وفاته، حدّد بهاء الدين سياسة الملّة الدينيّة الجديدة: "أثناء غيبة الحاكم، يجب ألاّ تُفشى أسرار الدين أو تعلن للناس". ولا شكّ في أنّ الإصرار على إبقاء الدين أمرًا

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣١٨.

٢ - المرجع السابق، ص٣١٨.

٣ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣١٨؛ Hitti P., *The Origins of the Druze Poeple and Religion* (New York,1928) pp. 27-28.

سريًّا أملَته عليهم الظروف السياسيّة. فإنّهم كانوا فرقة صغيرة العَدد تحاول البقاء في وسط عدائيّ قوامه المذاهب الأخرى. وقد أعلن بهاء الدين أنّ العالم لا يستحقّ أن ينال البركات والنعم التي وعد بها الدين الجديد لأتباعه، ومنذ ذلك الحين، أقفل باب الدعوة، فلا يُقبل جديد ولا يُقبل مرتدّ. وباتوا يمنعون كتبهم الدينيّة، التي هي دائمًا بشكل مخطوطات، إذ لا يجوز طبعها، حتّى عن الدروز الجهّال[١].

مؤرّخو الموحّدين الدروز المعاصرون، يقولون بأنّ الخلفاء الفاطميّين درجوا على إسناد منصب وزارة الدعوة لعالم يسمّى داعي الدعاة[٢]، يُشرف على بثّ الدعوة، وتعيين علماء متضلّعين من الفقه الإسلاميّ وعلوم آل البيت، ومطّلعين على العلوم الدينيّة والحكميّة، يدعون الناس لاعتناق المذهب الفاطميّ، الذي تبلور بعصر الحاكم بأمر الله واتّخذ طريقة جديدة عُرف أتباعها بالموحّدين، على يد إمامهم حمزة الذي قلّد الدعوة لشيوخ عرفاء ثقات، بثّوا عقيدة تقديس الحاكم في أقطار الأرض، وكانت مهمّة كلّ داعية هي كتابة الميثاق: صكّ إقرار المستجيب بالدعوة، وتعليمه أصول المذهب الجديد، الذي كان رؤساؤه خمسة: حمزة بن عليّ، إسماعيل بن محمّد بن حامد التميميّ، محمّد بن وهب القرشيّ، سلامة بن عبد الوهاب السامريّ، وعليّ بن أحمد السموقيّ، وهم "الحدود الروحانيّون"[٣]. ولهم ولتعاليمهم المكانة السامية الاحترام

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣١٩.

٢ - ويذكرون من كبارهم: إسماعيل بن محمّد التميمي في الهند، ومحمّد بن وهب القرشي في الحجاز، وسلامة بن عبد الوهاب السامري في بلاد الشام، ورفاعة بن الوارث لبلاد الترك، ومحسن بن عليّ لبلاد الصين، ودعاة للأندلس (اسبانيا) ولبلاد تركيا وللمناطق السوريّة وأوروبّا وجزر البحر الأبيض المتوسط ولبلدان أخرى.

٣ - ويقولون إنّهم "أيّدوا الأنبياء في كلّ عصر بأسماء معروفة وكانت أسماؤهم في فجر الإسلام: سلمان الفارسيّ المقداد بن الأسود، أبو ذرّ الغفاريّ، عمّار بن ياسر، ورفاعة بن عبد الوارث، وهم من أنصار الرسول، وجاء في المجالس المؤيّدة (ج ١ ص ٢٤٣) قول الرسول ﷺ: بيني وبين الله خمس وسائط: جبرائيل وميكائيل وأسرافيل واللّوح والقلم، فإنّني آخذ الوحي عن جبرائيل، وجبرائيل يأخذه عن أسرافيل، وأسرافيل يأخذه عن اللوح، واللوح يأخذه عن القلم". الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٤٣.

والتقديس عند الموحّدين الدروز. وقد أُسندت الدعوة ببلاد الشام إلى داعٍ ضمّ تقليده "من الشجرتين إلى الأردن وإلى ما ضامه من بلاد الشراة مع بلاد عمان وأرض البلقاء راجعًا إلى السواحل وكورها وجبالها شاملاً لعرقة[1] وجونها إلى رفنيه[2] وما ضمّها مع حمص وأعمالها آخذًا إلى حماة وتدمر مع سلميّة منبت الزعفران راجعًا في ما قبلها لدمشق وعملها من بلاد البشنيّة[3] وحوران"، كان يساعده بمهمّته شيوخ اشتهروا بالمعرفة، تحفظ المخطوطات أسماء الكثيرين منهم في مطلع القرن الخامس للهجرة. ففي لبنان أسند أمر الموحّدين إلى الأمير أبي الفوارس معضاد يوسف، والأميرَين أبي الحسن وأبي العزا بني الخضر وغيرهم من كبار الشيوخ، كالشيخ نصر بن فتوح في دمشق، والشيخ أبي رافع بن أبي الليل في حلب، وأبي الكتائب بمصر، وشيوخ آخرين في منطق أخرى. ولا تحفظ المخطوطات أسماء مَن أُسندت إليهم الرئاسة الدينيّة من القرن الخامس للهجرة، الذي كثر فيه الاضطهاد، إلى القرن الثامن، وكانت الحروب فيها على أشدّها. وكانت كلّ قرية تُسند شؤونها الدينيّة إلى تقيٍّ بذّ إخوانه بالعلم والعرفان[4].

١ - بلدة شرقي طرابلس كما يذكر المرجع.

٢ - تابعة لحمص يُقال لها "رفنيّة تدمر" كما يذكر المرجع.

٣ - تحريف "باشان" وتنطبق على أرض جبل الدروز كما يذكر المرجع، ويستشهد بقول أبي الفداء: "من قراها البثينة ودومة وعيون والمجدل وصرخر".

٤ - الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٤٤.

إقفـــــال

بَاب الدَّعوَة

بالإمكان القول، إنّ الدعاة الموحّدين، لم يعودوا موجودين، إذ لم يعد لوجودهم حاجة، بعد إقفال باب الدعوة من قبَل بهاء الدين، الذي توفّي عام ١٠٤٢.

وكان بهاء الدين قد جمع في "الرسالة المسيحيّة" بين شخصَين: حمزة والمسيح، وخاطب المسيحيّين، في رسائل أخرى وجّهها إليهم، بالقديّسين، وبمجامع القديّسين، راجيًا أن يحملهم بذلك على اعتناق تعليمه. وكان يضرب من الأمثال ما هو من قبيل الوارد في العهد الجديد من الكتاب المقدّس، وفي ذلك ما قد يشير إلى سابق صلة له بالتّعليم المسيحيّ[1]..

وقد أقدم بهاء الدين، بالنيابة عن الحاكم بأمره، على حلّ أتباعه من فرائض الإسلام الكبرى، ومنها الصوم والحجّ، وسنَّ مكانها شرائع أوجب بها الصدق في القول، والعون المتبادل بين أبناء الملّة، ونبذ العقائد الباطلة في جميع أشكالها، والخضوع التام للإرادة الإلهيّة، وقد أصبحت هذه القاعدة الأخيرة، المشتملة على عقيدة القضاء والقدر، عاملاً فعّالاً في تعليم المعتقد، كما كانت في مذهب أهل السنّة في الإسلام. كما تميّزت هذه الملّة بمبدأ تناسخ الأرواح، وكان هذا المبدأ قد ورد على الإسلام من مصدر هنديّ، فأُضيفت إليه عناصر أخرى من الفلسفة الأفلاطونيّة. ثمّ إنّ المعتزلة، وكذلك الباطنيّة، كانت قبل الحاكم بأمره بزمن طويل، قد أقرّت بنوع من تناسخ الأرواح، لا يزال عليه بعض متصوّفة الفرس المعاصرين وأعلام البهائيّة في

---

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢: ٢١٨؛ وانظر: DE SACY SILVESTRE, *EXPOSÉ DE LA RELIGION DES DRUZES* (PARIS,1838) VOL I, P83

الوقت الحاضر. أمّا المبدأ الثاني الذي وضعه بهاء الدين، والذي يوجب العون المتبادل، فقد جعل من الموحّدين جماعة شديدة التماسك مفرطة الانكماش، حتّى لتكاد تبدو أقرب إلى المنظّمة الأخويّة الدينيّة منها إلى الملّة المذهبيّة الدينيّة. والجماعة مع ذلك، مقسومة إلى طبقتَين، كما ذكرنا سابقًا: العقّال والجهّال.

إنتشَار الدّعوَة

قبل إقفال بابِهَا

لم يتّسع الزمن لنشر دعوة التوحيد لأكثر من حقبة قصيرة نسبيًّا، تمتدّ من عهد خلافة الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١م) إلى تاريخ إقفال باب الدعوة على يد بهاء الدين في حوالى ١٠٣٠م، أو ما بعدها بقليل. ولقد كان من الصعب لأيّ دين أو مذهب أن ينتشر انتشارًا واسعًا في هذه الحقبة القصيرة من الزمن، خاصّة وأنّ هذه الدعوة كانت تلاقي اضطهادًا شنيعًا من جهة، وكانت عرضة للبدع الداخليّة الناشئة عن بعض الدعاة من جهّة ثانية[1].

وقبل إقفال باب الدعوة، كان أتباع المذهب الجديد قد انحصروا تقريبًا بين وادي التيم والجبال اللبنانيّة الواقعة جنوبي نهر بيروت، امتدادًا حتّى بعض المناطق البقاعيّة. ويمكن اعتبار أنّ المناطق التي انحصرت فيها الدعوة بعد إقفال بابها، هي تلك التي كانت تحت سيطرة القبائل العربيّة التي مرّ ذكرها في الفصول السابقة، وعلى رأسها التنوخيّون وفروعهم من أرسلانيّين وسواهم. أمّا الذين لم ينزحوا إلى هذه المناطق من أتباع الدعوة في بداية عهدها، وبقوا في المناطق المصريّة والسوريّة، فقد اضطرّوا إمّا

---

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢: ٢١٨ ـ ٢١٩.

إلى اتّباع مبدأ التقيّة[1]، متظاهرين بولائهم لدين الحاكمين والمنتصرين، أو إلى التخلّي عن اعتناقهم الجديد واتّباع دين الحاكمين والمنتصرين اتّباعًا فعليًّا. ومنذ ذلك التاريخ، ارتبط تاريخ الموحّدين الدروز بتاريخ القبائل التنوخيّة وفروعها ومثيلاتها في لبنان.

---

١ ـ لمّا اشتدّ قمع السلطة للفرق المتشيّعة، جهد بعضهم بأنّه يجوز حماية النفس والحركة بكتم المعتقد عن السلطة الباغية، وهو موقف قد يقرّه جميع الفقهاء، لأنّه يكفل حماية العمل الإسلامي، ومنع هلاك النفس، ولأنّ السلطة الباغية لا تؤمن بالله ولا بشريعته، فلا يجوز أن تستفيد من صدق المؤمن، وقد غفر الله بعض أوائل المسلمين إسلامهم تحت وطأة العذاب "يتّقون" بذلك شرّ المشركين، (الشرح لجلال كشك، مجلّة "الحوادث"، العدد ١١٦١، الجمعة ٢ شباط ١٩٧٩، ص٢٢). إلاّ أنّ البعض ينكر أن يكون الموحّدون الدروز من مقرّي التقّية، لكنّ بعض النصوص الواردة في تواريخهم، لا تنفي لجوء بعضهم في حقبات معيّنة إلى التقيّة ـ راجع الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٤، حيث جاءَ: "فكثرة الاضطهاد اضطرّت الكثيرين للعودة إلى مذهب السنّة ومنهم مَن حافظ على عقيدته بالكتمان".

الفَصلُ الثَّالِث

بَينَ الخُلَفَاء والمَماليك

المُوَحِّدُون عشيَّة الحَمَلةِ الصَّليبيَّةِ الأولَى؛

المُوحِّدُون الدُّرُوز والحَمَلة الصَّليبيَّة الأُولى؛

بَينَ المَغُول والمَماليك؛ المُوَحِّدُون الدُّرُوز وحَمَلاتُ المَماليك؛

عَشيَّة الفَتح العثماني.

الموحّدون عشيّة الحملة الصليبيّة الأولى

شهدت الخلافة الفاطميّة حالة مدّ وجزر في هذه المنطقة بخلال القرن الحادي عشر الميلادي، لمّا كانت الدولة الفاطميّة تمرّ في حالة من الانحلال والفوضى، ممّا جعلها غير قادرة على حكم بلاد الشام. وكانت الدولة السلجوقيّة قد بدأت بالسيطرة على العراق، وراحت تتوسّع على حساب الدولة البيزنطيّة، وأصبح العالم الإسلامي الشرقي منقسمًا إلى قسمَين: قسم يسيطر عليه الشيعة بزعامة الفاطميّين، وقسم تركيّ يسيطر عليه الأتراك السلاجقة الذين كانوا متعصّبين لمذاهب السنّة. ومنذ أواسط القرن الحادي عشر الميلادي، أصبحت المنطقة واقعة تحت تجاذب الدولتَين الفاطميّة والسلجوقيّة، فأدّى ذلك إلى قيام إمارات محليّة وطنيّة في طرابلس، وحلب، وصور، ودمشق، وفلسطين. وكان أبرز هذه الإمارات، إمارة بني عمّار الشيعة في طرابلس، التي أسّسها "القاضي الأجلّ أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمّد بن عمّار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي"[1]. وقد استقلّ عمّار بطرابلس سنة ١٠٧٠، واستمرّت إمارة بني عمّار زهاء ثلاثين سنة، انتهت إلى سقوط الإمارة بيد الصليبيّين.

---

١ - المقريزي، كتاب السلوك، مرجع سابق؛ راجع: مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص١٠٠.

من ناحية ثانية، كان القاضي عين الدولة بن أبي عقيل قد أسّس في العام ١٠٧٠ أيضًا، إمارة بني عقيل في صور، التي ثبتت بوجه الحصار الفاطميّ في عهد مؤسّسها، إلاّ أنّها سقطت بعد حوالى ١٨ عامًا بيد الفاطميّين بعهد أولاد بني عقيل الذين دخلوا في تبعيّة السلاجقة أعداء الفاطميّين. وشهدت صور بعد ذلك تقلّبات عديدة، أدّت إلى بقائها في النهاية بيد الفاطميّين حتّى وصول الصليبيّين.

وبينما كان بنو عمّار يستولون على طرابلس ومنطقتها ويستقلّون بها عن الفاطميّين، ويتبعهم في نفس الخطّة ابن أبي عقيل في صور، كانت المنطقة الداخليّة من سورية، مع دمشق، تسقط تحت سيطرة دولة تركيّة نشيطة هي دولة السلاجقة، التي كانت تعمل لبسط الخلافة العبّاسيّة والقضاء على الفاطميّة. ففي سنة ١٠٧٩ تدفّقت جيوش السلاجقة على دمشق بقيادة "أتسيس" (أتسيز ـ أو أقسيس) السلجوقيّ، فأذاقتها أقسى أنواع العذاب وعمّت فيها المجاعة. ثمّ دخلها تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان الذي أقطعه أخوه السلطان ملكشاه بلاد الشام (حوالى ١٠٨٢). أمّا البقاع فتأخّر سقوطه بيد السلاجقة حتّى العام ١٠٨٨ عندما سلّم ابن صقيل حاكم بعلبك الفاطميّ المدينة لتاج الدولة تتُش. وقد أرسل تاج الدولة هذا إلى الأمراء التّنوخيّين الموحّدين الدروز في الغرب كتابًا باسم أميرهم شجاع الدولة أبي الغارات يدعوهم بموجبه إلى الطاعة والاعتراف بتبعيّتهم للسلاجقة، والطلب منهم حفظ البلاد من غارات الإفرنج والجبليّين.

وهكذا أصبح لبنان موزّعًا بين حكومات محليّة وسيطرة سلجوقيّة، وبدا أنّ النفوذ الفاطميّ في البلاد قد انتهى. ولكن الفاطميّين لم يستسلموا للأمر الواقع، فقد كانت فلسطين باقية في يدهم، ولذلك أرسل الفاطميّون جيشًا كبيرًا جهّزه بدر الجمالي الأرمنيّ الأصل، وجعل على رأسه القائد الفاطميّ نصير الدولة الجبوشي، فاحتلّ صور وصيدا وعكا، واندفع إلى البقاع، وحاصر بعلبك، فسلّمها إليه ابن ملاعب،

وأعلن الولاء للفاطميّين الذين حاولوا القضاء على إمارة بني عمّار في طرابلس فلم يتمكّنوا، كما أنّهم هاجموا دمشق مرارًا ولكن السلاجقة ظلّوا مسيطرين فيها. ثمّ عاد تاج الدولة تتُش فهاجم بعلبك واستردّها من يد ابن ملاعب الذي كان قد والى الفاطميّين. وبقيت سيطرة الفاطميّين في جنوب لبنان، وسيطرة السلاجقة في البقاع، وسيطرة التنوخيّين في بيروت والجبل، وسيطرة بني عمّار في طرابلس والشمال، وسيطرة مقدمي الموارنة في جبال الشمال، حتّى مجيء الصليبيّين في أواخر القرن الحادي عشر. أمّا التوزيع الطائفيّ في لبنان فكان كما يلي: الشيعة في الجنوب وبعض البقاع وطرابلس والشمال ومنطقة جبيل، وأقليّات منهم في بقيّة المناطق، وكانت سيطرة الموحّدين الدروز في وادي التيم وبعض الشوف وفي الغرب والمتن، والسنّة في بيروت وبعلبك وصيدا، وكان المسيحيّون في جبال طرابلس وفي بعض الأقسام الجبليّة الشماليّة، وكان العلويّون النصيريّون في وادي التيم وعكّار. وبهذا التوزّع المذهبيّ الذي سببه الاحتماء بالجبال اللبنانيّة قابل اللبنانيّون الحملة الصليبيّة الأولى[1].

المُوحِّدُون الـدُّرُوز
والحَمَلَة الصَّليبيَّة الأُولى

يتّضح من مراجعات الأحداث إبّان الحملة الصليبيّة الأولى، أنّ حالة الشرذمة والتفكّك التي كانت سائدة في شرقي البحر الأبيض المتوسّط عامّة، ومنه لبنان، قد سهّلت على الصليبيّين عمليّة العبور نحو هدفهم الرئيسيّ: القدس. فبنو عمّار في طرابلس، أظهروا استعدادًا لمفاوضتهم واسترضائهم بالمال، والمسيحيّون في الشمال

---

١ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص١٠٤ ـ ١٠٥.

ناصروهم[1]، وتعهّد لهم أهل بيروت بالدخول في طاعتهم، والاعتراف بالتبعيّة لهم إذا نجحوا في احتلال القدس، إلاّ أنّ صيدا قاومت، ولم يمنع هذا الصليبيّين من اجتياز المدينة بعد أن عمدوا إلى اتلاف المزارع المجاورة، مرورًا بصور في ٢٣ أيّار (مايو) ١٠٩٩ متّجهين إلى القدس عبر عكا. وهكذا فإنّ الصليبيّين لدى زحفهم نحو القدس، لاقوا معونة من مسيحيّي لبنان، ومهادنة من طرابلس وبيروت، ومخاصمة من صيدا.

وإذا كان الأمراء التنوخيّون في الغرب لم يعترضوا سبيل القوّات الصليبيّة المتوجّهة إلى فلسطين عام ١٠٩٩، فإنّهم في السنة التالية، حين مرور الملك بودوان بالساحل اللبنانيّ، متوجّهًا إلى القدس، بعد وفاة أخيه، كمن له التنوخيّون بقيادة الأمير عضد الدولة عليّ، بناء لطلب من الملك السلجوقيّ في دمشق: الدقّاق. وكانت موقعة نهر الكلب بين الفريقَين، فنجا بودوان، وأكمل طريقه إلى فلسطين[2]. وقد أثّرت جرأة عضد الدولة التنّوخي لدى السلاجقة، فولاّه الملك دقّاق، بالإضافة إلى إمارة الغرب وبيروت، إمارة صيدا، وأمره بتحصين البلدتَين[3]. وصارت بيروت تتلقّى المساعدة المتواصلة من سلاجقة دمشق، ومن الأسطول الفاطميّ في البحر.

وتذكر المدوّنات المعتنية بتاريخ الموحّدين الدروز أنّه في العام ١١١٠، عندما حاصر ملك القدس بلدوين (بودوان) الفرنسيّ مدينة بيروت بجيوشه برًّا وبحرًا، دافع عنها أميرها: شجاع الدولة الأرسلاني، وقبائله، حتّى اضطرّ بالدوين للاستنجاد بفرنجة السواحل والمردة، فتجمّع فرنجة الشمال مع المردة في جبيل، وتجمّع فرنجة الجنوب في مرج الغازيّة، ثمّ فاجأوا "بلاد الغرب صباحًا فنهبوا وأحرقوا وقتلوا وأسروا، وكان

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت للنشر (بيروت،١٩٦٥) ١٠: ٣٤٤؛ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٢٥٠.

٢ ـ راجع: مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص١١٨ ـ ١١٩.

٣ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٩٤.

في عداد القتلى ما ينوف عن عشرين أميرًا، ولم يسلم منهم سوى الأمير بحتر الذي كان صغيرًا ومختفيًا في عرمون، ثمّ انحدر الفرنجة على بيروت وفتحوها عنوة بعد حصار شهرَين، وقتلوا من أهلها خلقًا كثيرًا، بينهم ثمانية أمراء، لأنّ بلدوين قتل جميع الأسرى. ثمّ هاجم الفرنجة صيدا وحاصروها برًّا وبحرًا، فصالحهم أميرها مجد الدولة بدفع عشرين ألف درهم، وخرج متوجّهًا إلى وطنه (الغرب) فقام بترميمه وإعادة السكّان إليه، وكتب له ملك دمشق: طغتكين، بتثبيت إمارته، فداوم على مهاجمة الفرنجة حتّى قُتل عام ١١٢٧، فتولّى بعده الأمير بحتر التنّوخي وأخذ بمحاربة الفرنجة"[1].

في هذه الأثناء، دخلت على خطّ التاريخ اللبنانيّ أسرة سيكون لأبنائها في ما بعد شأن مصيريّ في الزعامة والأحداث: بنو معن[2].

كان الأمير معن الأيّوبيّ قد غزا الفرنجة من جهات حلب في العام ١١١٧ وانتصر عليهم، وأهلك منهم خلقًا كثيرًا. فقدم ملك القدس بودوان بخمسين ألف صليبيّ إلى الجبل الأسود، للاقتصاص من معن، الذي التقاه بقبائله وجماعة من الأتراك، ولكنّ جيش معن انكسر أمام الجيش الصليبيّ، لأنّ عدد جيش الأمير العربيّ لم يكن يتجاوز العشرة آلاف، فرحل معن بعربه الأيوبيّة ونزل سهل البقاع، ثم قصد حاكم دمشق

---

١ ـ الصغير، مرجع سابق، ص٢٥؛ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢٩٥.

٢ ـ يرجع نسبهم إلى نزار بن معد بن عدنان الذي كان له أربعة بنين، أحدهم ربيعة، فاشتهر من بنيه الأمير أيوب الأوّل الذي أعقب أحد عشر ولدًا، هجروا شبه جزيرة العرب إلى العراق، واستوطنوا الجزيرة الفراتيّة، فنما نسلهم هناك وعُرفوا بالأيوبيّين، ثمّ رحلوا إلى الجبل الأعلى، فأنجب أميرهم أيّوب الثاني ولدًا سمّاه معنًا، فتزوّج ابنة الأمير نعمان التنوخي وحالفه وقومه على محاربة الملك بودوان سنة ١١١٩م في الجبل الأقرع قرب أنطاكية، قصدوا لبنان وعُرفوا بالمعنيّين نسبة إلى الأمير معن المتوفّى عام ١١٤٩؛ راجع: الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٦؛ مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، الموسوعة اللبنانيّة، دار نوبليس (بيروت،١٩٩٩) ٧: ٥٢ ـ ٥٣.

طغتكين، الذي أكرمه وأمره أن يقوم بعشيرته إلى جبال لبنان فيسكنها، ويهاجم منها الفرنجة في السواحل البحريّة، فتوجّه الأمير معن بعشيرته إلى ضهر البيدر لجودة مراعيها، ثم انتقلوا إلى عين صوفر فإلى بحمدون وغيرها من جبال الشوف؛ وبعدئذ بدأوا الاستقرار، فاستوطن بعضهم حمّانا والبعض الآخر ضهور الشوير، وانتقل رؤساء العشيرة إلى جبل الشوف واستوطنوا دير القمر وجعلوا لهم علاقات طيبة مع آل تنّوخ، المستوطنين الجبل المجاور لبيروت، ثم اتّخذوا بعقلين عاصمة لهم[١].

وفي وقت يذكر البعض أنّ المعنيّين قد اعتنقوا الدرزيّة، فإن المراجع التاريخيّة المدوّنة تفيد بأنّهم مسلمون، ولم نقع على أيّة مدونات من شأنها أن تحسم هذا الجدل بشكل موثّق. إلاّ أنّ الثّابت هو أنّ المعنيّين قد حكموا الجبل اللبنانيّ الذي كان يُعرف بالإمارة الدرزيّة.

بالعودة إلى شأن الموحّدين الدروز في زمن الغزوات الصليبيّة، فقد استمرّت مقاومة الموحّدين للصليبيّين بتفويض من حكّام مصر ودمشق، ويذكر بعض المؤرّخين أنّ "الدروز قد أثبتوا عن شدّة بأس وكثرة مضاء في مقاتلتهم الصليبيّين... فكان قتالهم لهم أشدّ من مناجزة بعض الطوائف الاسلاميّة من أرجاء الساحل لهم"[٢].

ومن معارك الموحّدين الدروز الشهيرة ضدّ الصليبيّين، معركة رأس التينة التي جرت في العام ١١٥١، حيث انتصر الأمير بحتر التّنوخيّ وعشائره على الفرنجة عند نهر الغدير قرب بيروت، وخسر الفرنجة فيها عددًا كبيرًا من القتلى، فانهزموا إلى بيروت، وتحصّنوا فيها، فتتابعت غزوات بحتر عليهم حتّى بلغ شهرته العظيمة. ولمّا

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٤٢٦؛ راجع: مفرّج طوني، لبنان الأصيل، مرجع سابق، ص١٥٩.

٢ ـ كرد علي، خطط الشام، مرجع سابق، ٣: ١٠٤.

اضطر الفرنجة إلى مغادرة بيروت، تولاّها الأمير زهر الدولة بن بحتر التنوخيّ، الذي كان يقيم في حصن سرحمور، فولاّه السلطان نور الدين قرى القنيطرة وجلبايا في البقاع، وضهر الأحمر من وادي التيم، وبرج صيدا والدامور والمعاصر الفوقانيّه وشارون ومجدل بعنا وكفرمتّى، وعيَّن له مخصّصات لمحاربة الفرنجة. وكان أبوه شرف الدولة قاطنًا في عرمون الغرب، فقطع طريق الدامور على الفرنجة[١]، وكان سلطان دمشق يعيّن عند الأمراء التنوخيّين رجالاً لمقاتلة الفرنجة، ولمّا حاصر صلاح الدّين القدس كانوا في طلائع جيشه[٢].

هذا الواقع الذي نشأ عن مقاومة التنوخيّين للصليبيّين وعن دخول المعنيّين إلى جبال لبنان وتعاضدهم مع التنّوخيّين، جعل قسمًا من المناطق اللبنانيّة في منأى عن السقوط بيد الصليبيّين، فالبقاع مع بعلبك والشوف والمتن والاقسام العليا من الغرب، ظلّت تحت حكم أمرائها المرتبطين بدمشق، إلاّ أنّ وادي التيم ظلّ مدّة طويلة في وضع مترجرج بين السلاجقة في دمشق والصليبيّين... أمّا بقيّة المناطق اللبنانيّة فأصبحت تحت الحكم الصليبي[٣]، بما فيها بيروت، التي خضعت للحكم الصليبيّ منذ سنة ١١١٠، وقد بنى الصليبيّون في منطقة بيت مري، المُشرفة على بيروت، قلعة على أنقاض هيكل رومانيّ، لتأمين المدينة، وعُرفت هذه القلعة باسم دير القلعة نسبة إلى وجود دير هناك. واستمرّت بيروت على هذا النحو إلى أن سقطت بيد صلاح الدين الأيوبيّ سنة ١١٨٧، فبقيت المدينة بيد المسلمين حوالى عشر سنوات إلى أن استعادها الصليبيّون بعد ذلك، وبقيت بيدهم حتّى أواخر عهد وجودهم في المنطقة.

---

١ - كرد علي، خطط الشام، ٢: ٣٤.

٢ - الصغير، بنو معروف، ص٢٦.

٣ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص١٢٩.

ويذكر بعض مؤرّخي الموحّدين الدروز أنّ العمران في هذه الحقبة كان قد "كثر في جبل الشوف. وصارت العرب تتوافد إليه من كلّ بلاد احتلّها الفرنجة من حوران وبلاد دمشق وحلب وجوار جبل لبنان وأطرافه، فصار فيه خلق كثير. وتعاضد الأمير معن مع الأمير بحتر عميد التنوخيّين على محاربة الفرنجة. ثمّ اتّصل بهما وحالفهما الأمراء الشهابيّون[1]، الذين قدموا من حوران إلى وادي التيم عام ١١٧٣، وصاهروا المعنيّين وحالفوهم على محاربة الصليبيّين الذين كانوا قد انتزعوا وادي التيم من التنوخيّين، فاستولى الشهابيّون على حاصبيّا بعد قتال دام عشرة أيّام، واتّحدت هذه القبائل على محاربة الصليبيّين ومنعهم من بسط سيطرتهم على البلاد، فثارت نقمة الفرنجة وقرّروا القضاء عليهم، فاجتمعوا من بلاد الشقيف ومن بلاد عاملة في جنوب لبنان وقصدوا وادي التيم، فلمّا علم الأمير عامر الشهابي بقدومهم، جمع عساكره والتقاهم إلى مرج الخيام بعد أن استنجد بأمير الشوف، فتقاتل الفريقان مدّة ثلاثة أيّام إلى أن كان اليوم الرابع، وأوشك رجال وادي التيم على الانكسار، فوصل لنجدتهم الأمير عبد الله المعنيّ برجال الشوف، فنكس الفرنجة أعلامهم وولّوا مدبرين. وكانت قوّة قبائل لبنان وشدّة بأسهم التي عزّزتها وشائج المصاهرة بينهم، من الأسباب التي دفعت خلفاء وسلاطين الإسلام إلى اعتماد هذه القبائل لحماية المدن الساحليّة خصوصًا بعد اشتداد هجمات الصليبيّين على بلاد الشام منذ مطلع القرن الثاني عشر"[2]...

---

١ - يتّصل نسب الأمراء الشهابيّين الشريف بنسب النبيّ العربي ﷺ، من بني قريش، وأخذوا اسمهم من مالك الملقّب بشهاب من سلالة مرّه بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهد إلى الأمير ملحم البقري. ولقّب مالك بشهاب نسبة إلى قرية من قرى حوران، استوطنها بأمر من عمر بن الخطاب سنة ٦٣٦ م. ويقال إنّه لُقّب بذلك تبرّكًا بأحد أجداده لأنّ أمّه خرجت من نسل شهاب بن عبد الله القرشي من رهط آمنة أم الرسول ﷺ. (راجع الشدياق، أخبار الأعيان، الأمراء الشهابيّون؛ الأسود، ذخائر لبنان، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣). وكما بالنسبة للمعنيّين، كذلك بالنسبة للشهابيّين، إذ بالرغم من أنّ البعض يذكر أنّهم اعتنقوا الدرزيّة، فليس هنالك ما يؤكّد على ذلك، إنّما الغالب أنّهم بقوا على السنّة قبل أن يتنصّر أكثرهم كما هو معروف.

٢ - الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٢٩.

في هذه الأثناء، كانت الدولة الزنكيّة بقيادة نور الدين زنكي في دمشق، قد وطّدت علاقاتها الطيّبة مع بني بحتر التنوخيّين في لبنان، وكان على رأسهم الأمير زهر الدولة كرامة بن بحتر، المعتبر حارسًا لثغر بيروت، ومركزه حصن سرحمول. وأصدر نور الدين منشور تولية لزهر الدولة جاء فيه:

"الأمير النجيب زهر الدولة، مفيد الملك، أمير الغرب، كرامة، أدام الله تعالى عزّه وسلامه، مملوكنا وصاحبنا، ومَن أطاعه فقد أطاعنا، ومَن أعانه في جهاد الكفّار فقد عمل برضانا، وكان مشكورًا منّا، ومَن خالفه في الأمر وعصاه، فقد خالف أمرنا، واستحقّ المقابلة والسياسة على العصيان"[١].

هذا المنشور مؤرّخ في ربيع أوّل سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٥م). وبعد أقلّ من أربع سنوات، أصدر نور الدّين زنكي منشورًا آخر أعطى بموجبه الأمير زهر الدولة كرامة بن بحتر عدّة قرى في الغرب والبقاع وصيدا، وفرض عليه عدّة من أربعين فارسًا، وما أمكنه وقت المهمّات الشريفة[٢].

وواضح من المدوّنات أنّ التنوخيّين كانوا مسيطرين على مناطقهم في الغرب طوال عهد نور الدين زنكي المنتهي في العام ١١٧٤. وفي عهد صلاح الدين، والى التنوخيّون القائد المسلم، وناصروه في حروبه ضدّ الصليبيّين، وكان على رأسهم في الغرب: الأمير جمال الدين بن حجي بن كرامة، بينما الشهابيّون في وادي التيم والمعنيّون في الشوف.

١ ـ بن يحيى صالح، تاريخ بيروت، تحقيق هورسو ـ الصليبي، دار المشرق (بيروت،١٩٦٩) ص٤٣.

٢ ـ المرجع السابق.

فعندما شنّ صلاح الدّين هجومه على بيروت بهدف انتزاعهـا مـن الصليبيّيـن عـام ١١٨١، آزره التنوخيّون أمراء الغرب. أمّا بعد وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، وتنازُع الأيوبيّين على الحكم والقيادة في ما بينهم، شهدت المناطق التي كانت خاضعة لصـلاح الدين في لبنان، ومنها مناطق الموحّدين الـدروز، حقبـة مـن الاضطـراب، تسـبّبت فـي تأخير كبير في الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة. وقد ابتدع الأيوبيّـون سياسـة جديـدة تجاه الصليبيّين، هي تدمير المدن والقرى والقلاع التي لا يتمكّنون من المحافظة عليها، فكانت المدن اللبنانيّة تعمّر حين تكون بيد الصليبيّين، فـإذا انتقلـت إلـى أيـدي الأيوبيّيـن وتعرّضت للخطر، عمدوا إلى هدم أسوارها وقلاعهـا وأبنيتهـا حتّـى لا تعـود صالحـة. وعلى هذا الأساس هدم الأيوبيّون بيروت وصيدا وقلعة تبنين وقرى صـور، بالإضافـة إلى هدمهم العديد من المدن والقرى والقلاع في فلسطين. وقد أدّت عمليـة الهـدم هـذه، إلى تنقّل السكّان من مكان إلى آخر: من صيدا إلى بيروت، ومن السواحل إلى الجبـال، لأنّها أكثر أمنًا واستقرارًا بالرغم من ضآلـة مـوارد الجبـال الاقتصاديّـة. هـذه السياسـة الأيوبيّة تجاه الصليبيّين، ساعدت علـى جعـل السـواحل اللبنانيّـة منطقـة صـراع دائـم، وجعلت الجبال تدريجيًّا تستقبل السكان[1].

وبالرغم من أنّ العديد من القوى المحليّة قد نقم على سياسة الأيوبيّين، فـإنّ علاقـة الأمراء التنوخيّين كـانت دائمًـا حسـنة معهم، وكـانوا يسـتحصلون منهـم علـى صكـوك إقطاع لحفظ مقاطعاتهم والتصرّف بها لقاء خدماتهم للدولة ضدّ الصليبيّين.

١ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص١٩٧.

بَينَ المَغُول
والمَمَاليــك

شهد منتصف القرن الثالث عشر في المنطقـة حدثَيـن مفـاجئَين: الأوّل كـان غـزوة المغـول التـي عرّضـت المنطقـة بأجمعهـا للخـراب والفوضـى، والثـاني انتقـال سـلطة الأيوبيّين إلى المماليك.

فبعد أن شنّ المغـول حملاتهم علـى المنطقـة بـدءًا مـن العـام ١٢٦٠، شـنّ عليهـم المماليك هجومًا جرّارًا بقيادة اثنَين من قادتهم همـا: قطـز، وبيـبرس. والتقـى المـماليك بقوّات المغول التي قادها كتبغـا فـي عيـن جـالوت فـي أيلـول (سـبتمبر) ١٢٦٠، حيث سحق المماليك المغول، ودمّروا قوّتهم، وقتلوا قائدهم كتبغا. ثمّ قضى المملوكيّ بيـبرس على زميله قطز، وأعلن نفسه سـلطانًا علـى مصـر والشـام. وفـي لبنـان، شـدّد بيـبرس صلاته مع التنوخيّين بعد أن كانوا قد انقسموا، من حيث التأييد، بين المماليك والمغول. وتذكر المدوّنات أنّه في سنة ١٢٧٠، كتب بيبرس إلى الأميرَين التنوخيَّين: زيـن الديـن عليّ، وجمال الدين حجي، "يثني عليهما ويمدحهما واعدًا إيّاهما بجزاء عن صدقهما في الخدمة. غير أنّه لم يلبث أن تغيّظ عليهما بسبب مـا وُشـي إليـه فيهمـا... فسجنهما فـي مصر حيث بقيا إلى أن توفّي بيبرس، وقام بعده الملك السعيد، فأخرجهما مـن السـجن، وكتب إلى نائب الشام كتابًا يقول فيه بعدم رضاه عمّا حلّ بـالأمراء مـن الأذى، ويـأمر بردّ المسلوب منهم إمّا عينًا أو ما قيمته إن كان المسلوب قد هلك، ووجّه الأمير جمـال الديـن إلـى البـلاد الشـاميّة، ثـم كتـب إلـى نـوّاب الدّيـار الشـاميّة والصفديّـة والأكـراد والبعلبكيّة والحمصيّة، يلومهم علـى مـا أتـوه فـي بـلاد الأمـراء التنوخيّيـن فـي الغـرب ويأمرهم بردّ المسلوب". بيدَ أنّ أربـاب الفتنـة عـادوا فوشـوا فـي الأمـراء وشـاية مثـل الوشاية الأولى، وهي أنّهم متّحدون سرًّا مع فرنجة الثغور، غير أنّ الوشـاة لـم يفلحـوا

هذه المرّة إذ ظهر كذبهم بشهادة عدّة شهود في سنة ١٢٨٩. ولكن نُزعت من يد أولئك الأمراء إقطاعاتهم ولم تُردّ إليهم إلاّ في أيّام الملك الأشرف خليل قلاوون وأخيه الملك الناصر، الذي كتب في سنة ١٢٩٣ إلى الأمير سعد الدين خضر بن محمّد التنّوخي، فأقطعه عاليه وعين اللبانه والدوير والسباحة وبعضًا من العمروسية ومن المغيثة من مناطق الغرب، وكتب أيضًا إلى الأمير زين الدّين عليّ التنوخيّ يعيده إلى خدمته[1].

ويذكر أحد المنقِّبين الباحثين[2] أنّ الأمراء التنوخيّين ـ البحتريّين، منذ ظهور المماليك في مصر، راحوا يوطّدون علاقتهم بهم، ويعملون على الاستحصال على تثبيت إقطاعاتهم بالتعاون مع الأيوبيّين أو المغول في بلاد الشام، وبعضهم تعاون مع الصليبيّين في بيروت.

فقد استحصل الأمير سعد الدين خضر أمير الغرب سنة ١٢٥٦ من معزّ الدين أيبك سلطان مصر على المنشور التالي:

> العلاَمة: حسبي الله. جهاته: من الشوف: المعاصر الفوقانيه ـ بعدران ـ عين ماطور، بتلون، عين أوزيه، كفرنبرخ، ابريج، غريفه؛ ومن وادي التيم: تنّوره وظهر حمّاره؛ ومن إقليم الخروب: برجّه، بعاصر الشحيم. تاريخ ٢٧ ربيع أوّل سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م)

كما استحصل أخوه: الأمير جمال الدين حجّي من الملك الناصر يوسف ملك دمشق الأيوبيّ على منشور آخر هذا نصّه:

> العلاَمة: الحمد لله على نعائمه. جهاته: عرامون، عندرافيل، طردلا، عين كسور، رمطون، قدرون، مرتغون، الصباحيّة، سرحمور، عيناب، عين عنوب، الدوير. تاريخه: ٢٥ صفر سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢م)

---

١ ـ الأسود، ذخائر لبنان، ص ١٥٤ ـ ١٥٥؛ الشدياق، تنوير الأذهان، أخبار التنوخيّة.

٢ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٢١٤.

وكان الأمير التنوخيّ المذكور نفسه، قد توجّه إلى دمشق لمّا وصل المغول إليها سنة ٦٥٨ هـ /١٢٦٠م، وقابل القائد المغوليّ كتبغا، ممثّل هولاكو، واستحصل منه على صكّ بإقطاعه المذكور أعلاه.

وبينما يعتبر البعض أنّ الأمراء التنوخيّين قد انقسموا على أنفسهم، بسبب اضطراب أوضاع المنطقة، يعتبر البعض الآخر أنّ هؤلاء قد عرفوا مُسبقًا بالاتّجاهات السياسيّة الجديدة، فنظّموا علاقاتهم مع المماليك في مصر، بالرغم من تبعيّتهم الرسميّة للحكم الأيوبيّ في دمشق، قبل التوحيد المملوكيّ السياسيّ لمصر والشام. كما حاول بعضهم الحصول على الرضا المغوليّ. وظهر هذا الانقسام التنوخيّ جليًا بالنسبة إلى ولائهم للمماليك أو ولائهم للأيوبيّين والمغول، فقد حارب بعض التنوخيّين في معركة عين جالوت مع المماليك، بينما كان فريق آخر يحارب مع المغول والأيوبيّين[1]. وفي ذلك يقول مؤرّخ بيروت:

"إنّ جمال الدين حجي حارب مع المغول في معركة عين جالوت، بينما كان ابن عمّه الأمير زين الدين بن علي يحارب مع المماليك المصريّين" ويبرّر هذا التصرّف بقوله:

"ليكون أيّ مَن انتصر من الفريقَين كان أحدهما معه فيسد خلة رفيقه وخلة البلاد قصدا بذلك اصلاح الحال"[2].

وإذا كان المماليك قد شكّوا بولاء التنوخيّين لهم، فسجنوا أمراءَهم حتّى جلاء الصليبيّين، إنّما هم وضعوا ثقتهم بأمير تنّوخيّ يُدعى قطب الدين السعد، وهو الذي

---

١ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ٢١٥.

٢ - بن يحيى، تاريخ بيروت، مرجع سابق، ص٦٠.

أقدم بعض أنسبائه على قتله حوالى سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٧م، ما أدّى إلى انتقام شامل من التنّوخيّين، إذ جرّد المماليك حملة قاسية على الغرب، قتلت ونهبت وسبت لسبعة أيّام. وباعوا النساء والأطفال في أسواق الرقيق انتقامًا[١]. كان ذلك في عهد بيبرس. وهذا ما جعل الملك الناصر، بعد موت بيبرس، يُظهر عدم رضاه عمّا حلّ بالتنوخيّين كما ذكرنا سابقًا. وبالرغم من ذلك، فإنّ بعض الأمراء التنّوخيّين ظلّوا على صلتهم بالصليبيّين، فقد استحصل الأمير جمال الدين حجّي على إقطاع خاصّ في العمروسيّة من صاحب بيروت الصليبيّ هنغري دي مونغور. وفي الوقت ذاته، وربّما بسبب الاضطراب الذي أصاب الدولة المملوكيّة بعد وفاة بيبرس، والاختلافات حول الوصول إلى العرش، عمد بنو تغلب من مشغرة[٢] إلى إثارة القلاقل في المنطقة. وقمع المماليك هذه القلاقل ثمّ صادروا اقطاعات التنّوخيّين، ولم تُردّ إليهم إلاّ بعد سقوط طرابلس في أيدي المماليك سنة ١٢٨٩م[٣].

بسقوط الساحل اللبنانيّ بكامله في أيدي المماليك سنة ١٢٩١، استردّ التنوخيّون إقطاعاتهم. ويذكر بعض المدوّنات أنّ المماليك قد زادوا من إقطاعات التنّوخيّين على حساب الشيعة، إذ "أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيّين يأمرهم بأن يصلحوا شؤونهم مع التنوخيّين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات"[٤].

---

١ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٢١٦.

٢ - المرجع السابق، ص٢١٦.

٣ - بن يحيى، تاريخ بيروت، مرجع سابق، ص٦٢.

٤ - عاشور سعيد، العصر المماليكيّ في مصر والشام، دار النهضة العربيّة (١٩٦٥) ص٢٠٨.

المُوَحِّدُون الدُّرُوز
وحَمَلاتُ المَمَاليك

ليس من مسألة تاريخيّة لبنانيّة بلغ فيها الاختلاف في الرأي وذكر الأحداث والوصف حدّ التناقض مثلما بلغ في مسألة الموحّدين الدروز في العهد المملوكي.

قد يكون سبب هذا الاختلاف عدم إدراك حقيقة مَن كان سكّان كسروان في عهد المماليك، وأين كانت منطقة كسروان تحديدًا. ذلك أنّ المماليك قد شنّوا أربع حملات على كسروان بين ١٢٩٢ و١٣٠٥م، وفيما اعتبر بعض المؤرّخين أنّ الموحّدين الدروز كانوا من سكّان كسروان، وأنّ أكثر ضحايا تلك الحملات كانوا منهم، اعتبر البعض الآخر أنّ الموحّدين الدروز، على عكس ذلك تمامًا، كانوا من الذين اشتركوا مع المماليك ضدّ أهل كسروان في هذه الحملات.

ويذهب بعضهم إلى اعتبار أنّ الدروز كانوا ممّن حرّضوا المماليك على الكسروانيّين، إمّا طمعًا بالاستيلاء على المنطقة، أو انتقامًا من سكّانها الشيعة والنصيريّة، لسبب أو لآخر.

ويستحيل على الباحث أن يقرّر جازمًا هذا الرأي أو ذاك. ويبقى عليه، وجوب عرض الواقع بكلّ تناقضاته.

من المتّفق عليه بين جميع المؤرّخين أنّ المماليك جرّدوا حملات عسكريّة على كسروان بين نهاية القرن الثالث عشر (١٢٩٢) وبداية القرن الرابع عشر (١٣٠٥). إلاّ أنّ أمرَين يبقيان محاطَين بضبابيّة حينًا، وبستار أسود كثيف أحيانًا.

الأمر الأوّل، هو تحديد المنطقة التي كانت تُعرف إذ ذاك بكسروان،

والأمر الثاني هو الهويّة الدينيّة لأهل كسروان آنذاك.

بالنسبة لحدود كسروان في ذلك العصر، أغلب الظّن، أنّها كانت تمتدّ من نهر بيروت جنوبًا، إلى جبل صنّين وجبل الكنيسة شرقًا، إلى حدود جبيل شمالاً، وإلى البحر غربًا.

أمّا بالنسبة للهويّة الدينيّة لأهل كسروان آنذاك، فلا يختلف المدوّنون على أنّه كان فيها شيعة ونصيريّة ومسيحيّون، إلاّ أنّهم يختلفون في ما إذا كان يوجد موحّدون دروز إلى جانب هؤلاء. ومن هنا ينشأ التناقض. ولنرَ ماذا يقول المدوّنون في ذلك:

١ ـ يقول المقريزي[1] عن أخبار شهر شعبان من سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢م: "وفيه خرج الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطة بديار مصر، ومعه معظم العسكر إلى جبال كسروان، من جهّة الساحل، فلقيهم أهل الجبال، وعاد بيدرا شبه المهزوم، واضطرب العسكر اضطرابًا عظيمًا، فطمع أهل الجبال فيهم، وتشوّش الأمراء من ذلك، وحقدوا على بيدرا، ونسبوه أن أخذ منهم الرشوة، فلمّا عاد دمشق تلقّاه السلطان، وترجّل له عند السلام عليه، وعاتبه في ما كان منه".

إن عبارة "تشوّش الأمراء من ذلك وحقدوا على بيدرا ونسبوه أن أخذ منهم (أي من أهل كسروان) رشوة"، فسّرها بعض الباحثين بأنّها تعني أنّ الأمراء التنوخيّين هم الذين تشوّشوا ونسبوا... ويقول بعضهم إنّ التنوخيّين هم الذين يبدو أنّهم كانوا وراء هذه الحملة، إذ إنّهم حرّضوا المماليك على أهل كسروان، وخاصّة الشيعة والنصيريّة منهم لعدّة اعتبارات، أهمّها أنّ التنوخيّين كانوا يطمعون بحكم كسروان مباشرة[2]. في هذه الحالة، لا يكون الموحّدون الدروز مقصودين بهذه الحملة، بل العكس تمامًا.

---

١ ـ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق.

٢ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٢٢١.

٢ ـ صالح بن يحيى، وهو بحتريّ معاصر لتلك الأحداث توفّي حوالى سنة ١٤٤٦م، يؤرّخ هذه الحادثة كما يلي:

"توجّه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطة بمصر وبعض العساكر إلى جبال كسروان، واضطربت العساكر في شهر شعبان سنة أحد وتسعين وستماية (١٢٩٢م). توجّه الأمير بيدرا بمعظم العساكر المصريّة وصحبه من الأمراء الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر والأمير قراسنقر المنصوري والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي وغيرهم، وقصدوا جبال كسروان، وأتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما، والتقوا بالجبل، وحضر إلى الأمير بيدرا مَن أثنى عزمه وكسر حدّته فحصل الفتور في أمرهم حتّى تمكّنوا من بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم. وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم، وطمع أهل الجبال، فاضطر الأمير بيدرا إلى إطابة قلوبهم، والإحسان إليهم، وخلع على جماعة من أكابرهم، فاشتطّوا في الطلب فأجابهم إلى ما التمسوه من الإفرنج عن جماعة منهم كانوا قد اعتُقلوا بدمشق لذنوب وجرايم صدرت منهم. وحصل للكسروانيّين من القتل والنهب والطفر ما لم يكن في حسابهم، وحصل للأمراء والعسكر من الألم ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بيدرا ونسبوه إلى أنّه إنّما أهمل أمرهم، وفتر عن قتالهم حتّى تمكّنوا ممّا تمكّنوا لطمعه أنّه تبرطل منهم وأخذ منهم جملة كثيرة"[1].

٣ ـ هذا ما ورد عند المقريزي وابن يحيى بالنسبة للحملة الأولى على كسروان، والتي كان تاريخها سنة ٦٩١ هـ، أي سنة ١٢٩٢م؛ أمّا المؤرّخ الموحّد الدرزي الحديث سعيد الصغير، فيذكر أنّ هذه الحملة كانت تقصد الموحّدين الدروز. إذ قال إنّه:

---

١ ـ بن يحيى، تاريخ بيروت، مرجع سابق، ص٢٤ ـ ٢٥.

"في عام ١٢٥٧م، بعد أن عهد ملك مصر إلى الأمير سعد الدين خضر التنوخيّ بإمارة الشوف ووادي التيم وما جاورهما من البلدان، زحف على التنوخيّين ولاة بعلبك والبقاع فاقتتلوا بجوار عيتات من قرى الغرب، فانكسر الولاة وفاز عليهم التنوخيّون، واستولوا على ما كان معهم ثم مدّوا سيطرتهم على لبنان حتّى كسروان شمالاً عام ١٢٨٧م، وكان انتشارهم في الجبل الأعلى وفي مناطق لبنان ووادي التيم وسفح حرمون سببًا لتصادمهم مع الطوائف الأخرى، كما أنّ استقلالهم بحكم لبنان أزعج حكّام الشام الأجانب. ففي عام ١٢٩٣ زحفت جيوش المماليك لإخضاعهم فانتصروا عليها بعد معركة هائلة وقتلوا منهم مقتلة كبرى وشتّتوا فلولها"[1].

وهكذا يتّضح أنّ المؤرّخ، قد اعتبر أنّ حكّام الشام الأجانب: المماليك، قد قصدوا بحملتهم على كسروان سنة ١٢٩٣م (والأصح سنة ١٢٩٢) التنوخيّين (الموحّدين الدروز) وليس سواهم، وهذا على عكس ما ذكره سواه من المؤرّخين.

إلاّ أنّ هذا المؤرّخ، يقع في الشطط عندما يضيف أنّه بعد أن انهزم المماليك في حملتهم سنة ١٢٩٣، "أعادوا الكرّة سنة ٦٧٧ هـ (كذا) بعد أن اجتمعت العساكر والعشران من ولاة بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت، فتفرّق التنوخيّون إلى أن أمّنهم الملك السعيد حالما تولّى مكان والده: الظاهر، المتوفّي، فرجعوا إلى بلادهم"[2].

هنا، يظهر الشطط في اعتبار سنة ٦٧٧ هجرية، لاحقة لسنة ١٢٩٣ ميلاديّة، بينما الصحيح أنّ سنة ٦٧٧ هجريّة، يقابلها سنة ١٢٧٧م؛ ما يفيد بأنّ الكاتب قد خلط بين حملات المماليك على كسروان، وحملتهم على التنوخيّين في الغرب سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٧م) والتي مرّ ذكرها سابقًا.

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٣٠.

٢ ـ المرجع السابق.

ويذكر المؤرّخ نفسه أنّه "بعد أن عاثت المغول في بلاد الشام تخريبًا وتقتيلاً، غزوا وادي التيم عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٣م) فأحرقوا بعض قراه وسبوا وقتلوا من سكّانه مقتلة شنيعة. فنزح الناس إلى جبل لبنان، فقدّم لهم الأمير بشير المعني المساعدات والميرة، وتقدّموا شمالاً فاتّحد معهم المسيحيّون ورفعوا العلم الدرزيّ في جرود كسروان"[1].

يتّضح من هذا النصّ أنّ مؤرّخي الموحّدين الدروز، يعتبرون أنّه عندما جرّد المماليك حملتهم الأولى على كسروان سنة ١٢٩٢، كان الموحّدون الدروز فعلاً في كسروان "وكان علمهم مرفوعًا في أعلى جروده!".

وفجأة، يناقض المؤرّخ نفسه، إذ في سياق النصّ نفسه والصفحة نفسها يقول: "وفي سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٨م) تغلّب المسلمون على الإفرنج وأنصارهم الكسروانيّين، فأرسل حسام الدين إلى أمراء (غرب) بيروت التنوخيّين، ليتوجّهوا إلى كسروان وجروده، ويقاتلوا سكّانه"[2].

وبالانتقال إلى الحملة المملوكيّة الثانية على كسروان، التي جرت عام ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) يطالعنا المؤرّخون بالتالي:

٤ ـ المقريزي، أورد عن أخبار هذه الحملة في سنة ٦٩٩ هـ. المقطع التالي:

"في عشرين شوّال، توجّه الأمير أقوش الأفرم من دمشق لغزو الدرزيّة أهل جبال كسروان. فإن ضررهم اشتدّ، ونال العسكر عند انهزامها من غازان إلى مصر منهم شدائد، ولقيه نائب صفد بعسكره، ونائب حماه ونائب حمص ونائب طرابلس

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ المرجع السابق معتمدًا على: محمّد كرد علي، خطط الشام، ٣: ١٢٥ ـ ١٢٦.

بعساكرهم. فاستعدّوا لقتالهم وامتنعوا بجبلهم، وهو صعب المرتقى، وصاروا في نحو اثني عشر ألف رام. فزحفت العساكر السلطانيّة عليهم، فلم تطقهم، وجرح كثير منهم، فافترقت العساكر عليهم من عدّة جهات، وقاتلوهم ستة أيّام قتالاً شديدًا إلى الغاية، فلم يثبت أهل الجبال وانهزموا. وصعد العسكر الجبل بعدما قتل منهم وأسر خلقًا كثيرًا. ووضع السيف فيهم، فالقوا السلاح ونادوا بالأمان، فكفّوا عن قتالهم واستدعوا مشايخهم وألزموهم بإحضار جميع ما أخذوا من العسكر وقت الهزيمة، فأحضروا من السلاح والقماش شيئًا كثيرًا وحلفوا أنّهم لم يخفوا شيئًا، فقرّر عليهم الأمير أقوش الأفرم مبلغ ماية ألف درهم جبوها، وأخذ عدّة من مشايخهم وأكابرهم. وعاد إلى دمشق يوم الأحد ثالث ذي القعدة، وبعث البريد بالخبر إلى السلطان"[1].

يتّضح من هذا النصّ للمقريزي أنّ الموحّدين الدروز كانوا معنيّين مباشرة بهذه الحملة. كما يتّضح أنّ المؤرّخ سعيد الصغير، قد أخطأ عندما ذكر أنّ هذه الحملة قد جرت سنة ٦٧٧ هـ. لأنّ المقريزي قد أوردها في أخبار سنة ٦٩٩ هـ.

٥ ـ صالح بن يحيى، أرّخ هذه الحملة بقوله:

"كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدّت شوكتهم، وامتدّوا إلى أذى العسكر عند انهزامه من التتر سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م، وتراخى الأمر عنهم وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة، وأنّه لا يمكن الوصول إليهم"[2].

إلاّ أنّ بن يحيى يوضّح:

---

١ ـ المقريزي، كتاب السلوك، ص٩٠٢ ـ ٩٠٣.

٢ ـ بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٧.

"أنّ الهاربين من عساكر الملك محمّد بن قلاون من قازان سنة تسع وتسعين وستّماية تفرّقوا في البلاد، فحصل لهم أذيّة من المفسدين خصوصًا من أهل كسروان وجزّين، وأكثرهم أذيّة لهاربي أهل كسروان بالغوا إلى أنّهم مسكوا بعض الهاربين وباعوهم للفرنج، وأمّا التشليح والقتل فكان كثيرًا، وكان ناهض الدين بحتر (التنوخي) إذا مرّ عليه أحد من الهاربين أحسن إليه وأضافه وقام له ما يحتاج إليه، وكذلك فعل علاء الدين عليّ بن حسن بن صبح في قرية حديثا، فشُكرا وصار لهما ذكرًا فلبسا اثنينهما الخلع في نهار واحد، كلّ منهما بامرته طبلخانا، وذلك بواسطة ملك الأمراء جمال الدين أقوش الأفرم نايب الشام لمحاربة المفسدين، ثمّ عاملوا أهل كسروان بما ذكرناه"[1].

إذن، هذا المؤرّخ يؤكّد على أنّ الموحّدين الدروز (التنوخيّين) لم يكونوا مقصودين في هذه الحملة. وقد ذهب بحّاثة معاصر إلى استنتاج العكس تمامًا من هذه الحادثة، إذ قال إنّه يتبيّن هكذا أنّ مطامع التنوخيّين، وخاصّة الأمير ناهض الدين بحتر، في السيطرة على إقطاعات كسروان، كانت من الأسباب التي أدّت إلى هذه الحملة. وبالفعل، فإنّ الأمير ناهض الدين بحتر أصبح أمير طبلخانه سنة ٧٠٠ هـ. أي إثر حملة كسروان المذكورة[2]. إلاّ أنّ هذا لا يشرح التناقض الوارد بين المقريزي الذي ذكر بأنّ "الأفرم توجّه من دمشق لغزو الدروز" وبين صالح بن يحيى الذي اعتبر الدروز مكافَئين في هذه الحملة.

٦ ـ أمّا في أخبار الحملة المملوكيّة الثالثة على كسروان عام ١٣٠٢، فقد ذكر إبن القلاعي في زجليّاته أنّه في سنة ١٣٠٢م (٧٠٢ هـ) أرسل المماليك قوّة كبيرة إلى

---

١ ـ بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٧٨.

٢ ـ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤.

كسروان وإلى الجبليّين، فوقعت معركة كبيرة عند مدينة جبيل، إذ حمل الكسروانيّون على الجيش الشامي فقتلوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم، وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم، وقدمت الأكراد لنجدتهم فصدّهم كمينان في القيدار والمدفون، فلم يخلص منهم إلاّ القليل. وخرّبوا بعض بلاد الغرب، وكان أمراء الغرب التنوخيّون مع جيش دمشق، فعاد الجرديّون فغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونه وبحطوش وغيرها[1].

هنا يتّضح أنّ الموحّدين الدروز كانوا خارج أهداف الحملة، لا بل كانوا من أنصار المماليك.

٧ - وفي أخبار الحملة المملوكيّة الرابعة على كسروان عام ١٣٠٥، استخلص بعض الباحثين المعاصرين[2] أنّ اقوش الأفرم نائب الشام، وجّه سنة ١٣٠٤ بعثة من الشام برئاسة الشريف زين الدين محمّد بن عدنان الحسين لإصلاح الأمر بين الشيعة والكسروانيّين والتنوخيّين، ولكنّ هذه البعثة لم تحقّق أهدافها، وكانت نتيجتها زواج الشريف المذكور من أميره تنوخيّة من الغرب، ثمّ عاد أقوش وأرسل بعثة ثانية برئاسة الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية وبصحبته بهاء الدين قراقوش، وتحدّثت البعثة مع الكسروانيّين، كما أورد صالح بن يحيى فقال:

"إنّ الكسروانيّين أظهروا الخروج عن الطاعة وإنّه في ذي الحجة سنة ٧٠٤ جهّز إليهم أقوش زين الدين عدنان، ثمّ توجّه بعده تقي الدين وقراقوش وتحدّث معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك"[3].

---

١ - راجع: كرد علي، خطط الشام، ٢: ١٤٢.

٢ - مكّي، لبنان، ص٢٢٥.

٣ - بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٧.

٨ ـ وهنا يبرز تناقض خطير. والمقصود فتوى إبن تيمية. وهو مُفتي دولة المماليك، وقد اشترك شخصيًّا بهذه الحملة. إذ يبدو أنّه بعد التشبّث الكسرواني، الذي لا نستطيع الجزم في ما إذا كان مسيحيًّا أو شيعيًّا أو نصيريًّا أو درزيًّا... أصدر فتوى بهدر دماء أتباع بعض الديانات غير السنيّة وغير المسيحيّة واليهوديّة. إلاّ أنّ الاجتهادات قد تعدّدت حول هذه الفتوى. فقد روى القلقشندي بقوله: "كان شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى يرى أنّ قتالهم وقتال النصيريّة أولى من قتال الأرض، لأنّهم عدوّ في دار الإسلام، وشر بقائهم أضر"[١].

هذه النسبة في "قتالهم" جعلت البحّاثين لا يستقرّون على رأي واحد. فمن قائل بأنّها نسبة إلى الموحّدين الدروز، إلى قائل بأنّها نسبة إلى الشيعة، إلى آخر بأنّها نسبة إلى الكسروانيّين عمومًا!

الدكتور فيليب حتّي، أورد نصًّا صريحًا جاء فيه إنّ ابن تيمية، أفتى "بأنّ الدروز والنصيريّة ليسوا مسلمين وأنّهم دون النصارى مرتبة ويجب إبادتهم"[٢]، مستندًا بذلك إلى صلاح الدين المنجد[٣]. بينما محمّد عليّ مكي اعتبر أنّ الشيعة هم المقصودون بهذه الفتوى، إضافة إلى النصيريّة[٤].

٩ ـ ويقول حتّي في وصف ثلاث من حملات المماليك على كسروان:

"كانت الحملات العسكريّة التي وجّهها الملك ناصر سنة ١٣٠٢ و١٣٠٦ و١٣٠٧ ضدّ كسروان، من أعنف الحملات التي تعرّض لها لبنان ومن أشدّها فتكًا وخرابًا،

---

١ ـ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والارشاد (القاهرة،١٩٦٣) ١٣: ٢٤٨.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣٩٨.

٣ ـ المنجد صلاح الدين، ولاة دمشق في العهد العثماني (دمشق،١٩٤٩) ص٦ ـ ٧.

٤ ـ مكّي، لبنان، ص٢٣٠.

وكـانت كسروان آنذاك تمتدّ جنوبًا إلى نهـر بـيروت، وإلـى جبـل صنّيـن وجبـل الكنيسـة. وكـانت تشـمل أيضًـا منطقـة المتـن الشـماليّ والجنوبـيّ. وكـان سـكّانها من المسيحيّين (موارنـة ويعاقبـة) والـدروز والشيعة والنصيريّـة. وقـد اشـترك فـي هذه الحملة العسكريّة جنود من صفد وطرابلس ودمشق، وكـان القـائد العـام جمـال الدين الأقوش حاكم دمشـق، وقد أفتـى إبن تيميـة ـ وكـان من أعـاظم فقهاء عصـره في سـورية ـ بـأنّ الـدروز والنصيريّـة ليسوا مسلمين وإنّهم دون النصـارى مرتبـة ويجب إبادتهم، واشترك إبن تيمية نفسه فـي هـذه الحملـة... وكـانت المعركـة الفاصلـة في عين صوفر سنة ١٣٠٧، فقد أباد جيش المماليك البالغ عدده خمسـون ألـف مقـاتل قرابـة عشرة آلاف كسرواني، معظمهـم مـن الـدروز، وخرّبـوا بلادهـم، وقطعـوا أشجارهم، وذبحوا نساءَهم وأطفالهم، وتقاسمت ثلاثمئة عائلة تركمانيّة المنطقة الساحليّة الواقعة شمالي بيروت إلى جنوبي طرابلس كإقطاعات بينهـا[١]. وفـي ذلـك العهد كـانت العلاقات بين الموارنة والدروز على أحسن ما يكون من الودّ والصفاء، فإنّـه فـي عـام ١٤٤٤ رافق وفد يتألّف من الدروز والنصارى القـاصد البـابويّ إلـى رومـة فـي بعثـة صداقة وسلام"[٢].

١٠ ـ بينما يعتبر مكّي أنّه بناء لفتوى إبن تيمية بإباحة دم الشيعة والنصيريّة، جهّز أقوش سنة ١٣٠٥ جيشًا كبيرًا بلـغ ٥٠ ألـف محـارب وسـاعده فـي التعبئـة التنوخيّـون والدروز[٣]...

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩، عن: الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ١٢٣ ـ ١٢٥؛ وأيضًا الدويهي في المشرق، المجلّد ٤٤ (١٩٥٠) ص ١٦٠ ـ ١٦٤؛ و عوّاد إبراهيم، لبنان في عهد المماليك، المشرق، المجلّد ٤٠ (١٩٤٢) ص ١٦ ـ ٢١.

٢ ـ حتّي، المرجع السابق.

٣ ـ مكّي، مرجع سابق، ص٢٢٦.

١١ - ويقول المقريزي إنّه بعد هذه الحملة التي انتصر فيها المماليك وأعوانهم الدروز على سكّان كسروان، أقطع المماليك كسروان لبعض الأمراء (أمراء الغرب الدروز وأمراء البقاع وبعلبك) فذهبوا إليها "فزرعها لهم الجبليّة ورفعت أيدي الرفضة عنها"[1]. مع الاشارة إلى أنّ "الرفضة" الذين "رُفعت يدهم" مقصود بهم الشيعة.

١٢ - وجاء في بعض المدوّنات رواية أخرى عن هذه المعركة، تقول:

"أنّ أقوش الأفرم جمع عشرة أمراء من الدروز ومعهم عشرة آلاف مقاتل، وأنّ المعركة وقعت بين الكسروانيّين (المسيحيّين) والأمراء (الدروز) في عين صوفر في مطلع سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦م، وأنّ الدائرة دارت على الأمراء، وأنّ بعض الكسروانيّين هربوا بحرمهم وأولادهم وأموالهم ونحو ثلاثماية نفس من رجالهم اجتمعوا في مغارة نابيه فوق إنطلياس غربي مغارة البلاّنة، فدافعوا عن أنفسهم، ولم يقدر الجيش أن ينال منهم، ثمّ بذلوا لهم الأمان، فلم يخرجوا، فأمر نائب دمشق أن يبنوا على المغارة سدًّا من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاًّ من التراب، وجعلوا الأمير قطلوبك حارسًا عليها مدّة أربعين يومًا حتّى هلكوا داخل المغارة"[2].

١٣ - صالح بن يحيى، يروي لهذه المعركة وصفًا آخر فيقول:

"إنّ الأمير ناصر الدين الحسين أمير الغرب توجّه إلى كسروان ومعه أقاربه وجمعه فقُتل منهم الأميرَين (الأميران) نجم الدين محمّد وأخيه (وأخوه) شهاب الدين أحمد ولدَي (ولدا) الأمير جمال الدين حجّي في نهار الخميس ٥ محرّم بقرية نبيه (نابيه) من كسروان، وقتل معهم من أهل الغرب ثلاثة وعشرون نفرًا، وكانت وقعة

---

١ - المقريزي، السلوك، ٢: ١٥ - ١٦.

٢ - الحتّوني الخوراسقف منصور، نبذة تاريخيّة في تاريخ المقاطعة الكسروانيّة (بيروت، ١٨٨٩).

نبيه المذكورة وقعة رديّة لأنّ أهل كسروان تجمّعوا وقاتلوا بها. وكان فيها مغارة اجتمعوا فيها بعد القتال، ذكر أن كان عبرة أهل كسروان أربع آلاف راجل فراح تحت السيف منهم خلق كثير، والسالم منهم تفرّقوا في جزّين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك. وبعضهم أعطوه الدولة أمانهم"[1].

وجاء للمؤرّخ نفسه وصف شامل للمعركة بكاملها ذكر فيه:

أنّ أقوش "رسم بتجريد العساكر إليهم (أهل كسروان) من كلّ جهة وكلّ مملكة من المماليك الشاميّة. وتوجّه أقوش الأفرم من دمشق بساير الجيوش في يوم الاثنين ٢ محرّم سنة ٧٠٥ وجمع جمعًا كثيرًا من الرجالة نحو ٥٠ ألفًا وتوجّهوا إلى جبال الكسروانيّين والجرديّين. وتوجّه سيف الدين اسندمر نايب طرابلس وشمس الدين سنقرجاه المنصوري نايب صفد. وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس، وكان نسب إلى مباطنتهم. فجرّد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحو عنه هذه الشناعة التي وقعت. وطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه، واجتمعت عليهم العساكر واحتوت على جبالهم، ووطئت أرضًا لم يكن أهلها يظنّون أنّ أحدًا يطأها. وقُطعت كرومهم وأخربت بيوتهم. وقتل منهم خلق كثير، وتمزّقوا في البلاد،... وعاد نايب الشام إلى دمشق بالعساكر في ٤ صفر من السنة المذكورة، وجعل الناظر في بعلبك وجبال الكسروانيّة بهاء الدين قراقوش، فأخلا ما كان تأخّر بجبال كسروان وقتل أعيانهم جماعة أعطوا أمانًا لمن استقرّ في غير كسروان"[2].

أمام هذه البلبة في التدوينات، لا يمكن الجزم في ما إذا كان الموحّدون الدروز من المذاهب التي حلّل ابن تيمية هدر دماء أتباعها أم لا، وفي ما إذا كانوا بالتالي

---

١ - بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٩٦.

٢ - بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٧.

مستهدفين في الحملات المملوكيّة على كسروان أم لا، وإن كان المراقب يميل إلى الاعتقاد بأنّهم لم يكونوا مستهدفين، وذلك تبعًا للتبرير والشرح اللذَين أوردهما حتّي إذ قال:

"... تناولت سياسة المماليك الجديدة، إعادة توحيد الفرق الإسلاميّة المنشقّة وضمّها إلى حظيرة السنّة، وذلك لأنّ بعض هذه الفرق الإسلاميّة أعانت العدوّ وهادنته، وقد قتل المماليك من الإسماعيليّة والنصيريّة والشيعة عددًا كبيرًا. ويبدو أنّهم كانوا أشدّاء أقوياء وأنّ عددهم كان كبيرًا في جميع أنحاء سورية[1]. وقد هرب من الشيعة جماعات والتجأت إلى جبال لبنان والبقاع، ذلك لأنّ المماليك كانوا يرون في الشيعة خطرًا سياسيًّا. وقد حاول الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أن يرغم النصيريّة على بناء مساجد في قراهم، ولكنّه أخفق في جعلهم يصلّون فيها... أمّا الدروز فلم ينظر المماليك إليهم نظرتهم إلى الشيعة والإسماعيليّة، ذلك لأنّ الدروز كانوا قد انحرفوا عن السنّة في قضايا لاهوتيّة فلم يعتبروا أنّهم يشكّلون خطرًا سياسيًّا على المسلمين. فإنّهم عدديًّا كانوا أقليّة صغيرة، وجغرافيًّا كانوا يتوطّنون بقعة صغيرة محصورة، وسياسيًّا لم يكن لهم أهداف تشكّل خطرًا على المسلمين، ولذا فلم يكن المماليك يرون في الدروز مشكلة ذات بال. ولكن بالرغم من هذا كلّه فإنّ الملك الأشرف طلب إليهم أن يكونوا، ولو ظاهريًّا، مسلمين، إلاّ أنّ طلبه هذا لم يحقّق"[2].

ويبرّر حتّي ما اعتبره "حملات ضدّ الدروز في الأعوام ١٣٠٢ و ١٣٠٦ و١٣٠٧"، أوّلاً، بعدم تحقيقهم لطلب الملك الأشرف بالتظاهر بأنّهم مسلمون، وثانيًا

---

١ ـ بالاستناد إلى: ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت (بيروت،١٩٦٤) ص٣٠٤.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣٩٨.

لأنّه، "في سنة ١٣٠٠ هاجم النشّابة الدروز جيش الملك الناصر المنهزم أمام هجمات المغول التي أوصلتهم حمص ودمشق وهدّدت المنطقة بكاملها"[1].

مؤرّخ آخر[2] اعتبر أنّه "ليس من شكّ على الإطلاق بأنّ الطائفة التي عناها ابن تيمية في رسالته (التي برّر بها إباحة الدماء) هي الطائفة الشيعيّة"، مستندًا في ذلك إلى ما جاء في رسالة إبن تيمية إلى السلطان الناصر بن قلاوون، الذي طلب تبريرًا لهذه المجزرة، فكان جواب الإمام ابن تيمية متضمّنًا التبرير المطلوب. قال ابن تيمية:

"لمّا قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بالمسلمين ما لا يُحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص، فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عدده إلاّ الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يومًا يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار.... ولمّا خرجت العساكر الإسلاميّة من الديار المصريّة، ظهر فيهم الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولمّا نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه العزاء... وكلّ هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة، كان من أسباب خروج جنكيزخان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد، وفي قدومه إلى حلب، وفي نهب الصالحيّة، وغير ذلك من أنواع العداوة للاسلام وأهله، ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها منهم، في أمر لا يضبط شرّه، كلّ ليلة تنزل فيهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلاّ رب العباد: كانوا في قطع الطرقات وإضافة سكان البيوتات على أقبح سيرة، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين، فإمّا

---

١ - المرجع السابق.

٢ - مكّي، لبنان، ص٢٣٠ - ٢٣١.

أن يقتلوه، وإمّا أن يسلبوه، وقليل منهم من يفلت بالحيلة... وقد اتّفق العلماء على قطع الشجر وتخريب العامر عند الحاجة إليه، فليس ذلك بأولى من قتل النفوس، وإنّ القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها، وما آيسوا من المقام في الجبل إلاّ حين قطعت الأشجار وإلاّ كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم"[1]...

إنّ أصرح دليل على أنّ الموحّدين الدروز لم يكونوا هم المستهدفين بإفتاء إبن تيمية، وبحملات الإبادة التي شنّها المماليك على كسروان، هو إقدام المماليك بعد تلك الحملات، على اعتماد الأمراء التنوخيّين في اقطاعهم بعض المناطق من خلال نظامهم الاقطاعي الذي اتّبعوه.

وتذكر المدوّنات أنّ السلطان الناصر بن محمّد بن قلاوون قد كتب منشورًا للأمير التّنوخي ناصر الدين الحسين في ما يلي نصّه:

> الذي شهد الديوان المعمور أنّ الذي تعيّن باسم من يذكر من الأمراء الجبليّة أولاد أمير الغرب عند الروك[2] المبارك لاستقبال السنة الآتية، المدرك في السنة الماضية، بمقتضى الأوراق المحضّرة من الأبواب الشريفة في هذه السنة، خارجًا من الملك والوقف والمواريث الشرعيّة بمناظرة المجلس الشاميّ هو هكذا: الأمير ناصر الدين الحسين بن الأمير سعد الدين بن خضر أمير الغرب لخاصته وعشيرته: عرمون، وصير، وبشالا، وكيفون، وبيصور، وثلث عين عنوب، وثلث عيناب، وشمشون، وثلث كفرعمية، وثلث بتاتر، وبركة شطرا، ومرتغون، وثلث حصّة الملك في خلدة، ومغدلا، ومن الفريديس فدان، وعليها ٦٢ من الجند[3].

---

١ ـ أبو زهرة محمّد، إبن تيمية، دار الفكر العربي (١٩٥٨) ص٤٥.

٢ ـ الرّوك: كلمة مصريّة قبطيّة قديمة تعني الحبل. و الرّوك اصطلاح عُرف في القرون الوسطى، معناه عمليّة المسح وتقسيم الأراضي ودراسة خصبها وإمكاناتها الزراعيّة أو المعدنيّة إلخ. وجرت عمليّة الرّوك في لبنان ابتداء من سنة ١٣١٢.

٣ ـ مكّي، لبنان، ص٢٣٩.

ويذكر ابراهيم الأسود[1] أنّه في سنة ١٣١٣، "كتب الأمير ناصر الدين الحسين كتابًا إلى نائب دمشق أمير الأمراء الأمير تنكز يقول فيه إنّه هو وذوو قرباه آخذون على أنفسهم وقاية بيروت، وبازلون الجهد في خدمة الدولة، وإنّ غالب ما في يدهم من الإقطاعات ملك ثابت لهم بحق شرعيّ، وإنّها لهم بعدّة واحد وثلثين (ثلاثين) فارسًا، وكانت لآبائهم بثلاثة رماح". ثمّ التمس منه الرفق بهم فكتب أمير الأمراء إلى السلطان في مصر يخبره بذلك ويذكر له قدم أملاك الأمراء في الغرب. فأمر السلطان أن تبقى في أيديهم وأن يُزاد لهم من الجند بقدر ما زيد لهم من الإقطاعات، فبلغت الزيادة النصف، فضوعف عدد الجند حتّى بلغ اثنَين وستين فارسًا[2].

أمّا تفصيل بيان الإقطاعات للأمراء التنوخيّين الموحّدين الدروز، بحسب الرَّوك، وبالاستناد إلى اللائحة التي كُتبت في ديوان ناظر الجيش، فهي كالتالي:

للأمير ناصر الدين الحسين ابن الأمير سعد الدين خضر أمير الغرب ولعشيرته وذويه: عرمون، وصير وبشالا، وكيفون، وبيصور، وثلث عين عنوب، وثلث عيناب، وشمشوم، وثلث كفرعميه، وثلث بتاتر، وبركة شطرا، ومرتغون، وثلث حصّة الملك في خلده، ومغدلا، ومن الفريديس فدان[3].

وللأمير عزّ الدين الحسن ابن سعد الدين أمير الغرب ولذويه وخمسة خصيان: نصف عاليه، ونصف الخريبه، وعيثا، ونصف الدوير، ونصف السباحية، ونصف المغيثة، وربع قدرون، ونصف قطع أرض في قريته، وربع طردلا، وربع رمطون، وربع عين كسور.

---

١ ـ الأسود، ذخائر لبنان، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

٢ ـ يؤيّد هذه الوثيقة ذكر صالح بن يحيى لها في تاريخ بيروت، ص٨٦.

٣ ـ قابلها مع لائحة المنشور الواردة أعلاه.

وللأمير عز الدين حسين بن شرف الدين علي ولذويه وعشرة خصيان: نصف عيتات، ونصف دقّون، ونصف مجدليّا، ونصف شملال، وثلث عين عنوب، ونصف سرحمور، ونصف عين درافيل، وثلث بتاتر، وثلث عيناب، وقطع أرض في العمروسيّة، وثلث حصّة الملك في خلده، وثلث كفرعميه، ومن الفريديس فدّان.

وللأمير سيف الدين مفرّج بن بدر الدين يوسف بن زين الدين صالح ولذويه وعشرة خصيان: نصف عيتات، ونصف دفون، ونصف مجدليّا، ونصف شملال، ونصف عين درافيل، وثلث بتاتر، ونصف سرحمور، وثلث عيناب، وقطع أرض في العمروسيّة، وثلث كفرعميه، وثلث حصّة الملك في خلده، ومن الفريديس فدّان.

وللأمير علم الدين سليمان بن غلاب ولذويه وخمسة خصيان: نصف الخريبه، وعيثا، ونصف الدوير، ونصف السباحة، ونصف درب المغيثة، وربع قدرون، ونصف قطع أرض في قريته، وربع طردلا، وربع رمطون، وربع عين كسور.

وللأمير سيف الدين إبراهيم بن نجم الدين محمّد بن حجّي ولذويه وخمسة خصيان: ربع بطلون، وربع الطغرانيّة، ونصف القبي، ونصف محواره (بحوارة)، ونصف معيستون، وربع الدوير، وربع أقطو.

وللأمير شمس الدين عبد الله بن جمال الدين حجّي ولذويه وأربعة خصيان: نصف قدرون، ونصف رمطون، ونصف طردلا، ونصف عين كسور.

وللأمير عماد الدين موسى بن مسعود بن أبي الحبيس ولذويه وثلاثة خصيان: نصف دفون، ونصف الفساقين، ونصف شطرا، ونصف دير قوبل، ونصف عين حجيه.

إلاّ أنّ المماليك لم يكونوا واثقين تمامًا من ولاء هؤلاء الأمراء لهم، على ما يبدو. إذ في العام ١٣٢٣ "وقعت في بيروت بين الإفرنج وبين واليها عز الدين البيسري وأمراء عرمون معركة شديدة، فجرح بعض الأمراء، وكان الفوز للإفرنج. فاسقدم تنكز أميرُ الأمراء إليه وهو في دمشق، الأمراءَ التنوخيّين، والتركمان من كسروان،

وتسخّط عليهم، وسجنهم. فشفع لديه فيهم الأمير ناصر الدين الحسين، فأطلقهم ... لثبوت براءتهم لدَيه، ثمّ أمرهم بالإقامة ببيروت، فبنى الأمير ناصر الدين دارًا على شاطئ البحر"[1].

في هذا المجال، يذكر حتّي بشكل شامل أنّ "بني بحتر، هم الأمراء الإقطاعيّون الذين استولوا على بيروت وعلى منطقة الغرب، وهي سفوح الجبال المجاورة لبيروت والتي تمتدّ جنوبًا إلى أعالي الدامور. وكان مقرّهم أوّلاً قرية سرحمول وقرية عرمون. ويظهر أنّهم توطّنوا هذه المنطقة قبل سنة ١١٣٥، وكانوا أصحاب إقطاع، وكانوا يقدّمون خدماتهم العسكريّة للصليبيّين الذين استولوا على بيروت وصيدا. وفي أثناء الحروب التي وقعت بين التتر والمماليك كان آل بحتر أحيانًا يقاتلون مع الفريقَين، ليضمنوا لأنفسهم أن يكونوا في الكفّة الراجحة... وقد عهد المماليك إلى البحتريّين بحماية الشاطئ ضدّ هجمات الإفرنج ولا سيّما الغزوات التي كانوا يقومون بها من جزيرة قبرص. وبذلك تمكّن البحتريّون من تثبيت سلطتهم وحكمهم حتّى أواخر القرن الخامس عشر، وفي أثناء حكمهم النيّر السمح كانت مقاطعة الغرب تنعم بما يشبه الإستقلال الداخليّ، وتتمتّع بشيء من الازدهار الاقتصاديّ. وبالرغم من أنّهم كانوا ظاهريًّا مسلمين سنّيّين، فإنّه من المرجّح أنّهم كانوا دروزًا في عقيدتهم. وقد فتحوا أبواب مدينة بيروت تدريجًا أمام الأجانب من التجّار وجعلوا منها مرفأ لمدينة دمشق، فأخذت السفن تمخر بانتظام بين مينائها وجزيرة قبرص. وكان حجّاج الأرض المقدّسة يلتقون فيها ومنها كانوا يذهبون إلى فلسطين. وقد سمح للتجّار الأوروبيّين أن يبنوا خانات وحمّامات وكنائس[2]، فازداد عدد سكّانها إلى قرابة عشرة آلاف نسمة.

---

١ ـ الأسود، ذخائر لبنان، ص١٥٧.

٢ ـ عن: بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٩ ـ ٤٠.

وبسبب الصلات التي عادت فتوطّدت بينها وبين الممالك اللاتينيّة الصليبيّة وبعض البلدان الأوروبيّة، فإنّ مرفأ بيروت أصبح المرفأ التجاريّ الذي يغذّي داخليّة البلاد. وكانت بيروت تستطيع الاتّصال بدمشق عن طريق البريد الذي أنشأه السلطان بيبرس بين القاهرة ودمشق. أمّا في أوقات الخطر، فكانت تتّصل بالخارج بواسطة الحمام الزاجل أو بواسطة النيران. وكانت الإشارات الناريّة تُعطى ليلاً في مكان يسمّى رأس بيروت، وهو لسان مرتفع داخل البحر، ثمّ إلى قمّة بْوارج، وهي قمّة في جبل الكنيسة، ومنها إلى يبّوس في سلسلة جبال لبنان الشرقيّة، ومن هناك إلى جبل الصالحيّة الذي يُشرف على مدينة دمشق"[1].

ويضيف حتّي في شرحه قائلاً إنّه "كان من حسن طالع نيابة دمشق أن حكَمها بين ١٣١٢ و ١٣٤١، تنكيز، وهو مولّى من موالي السلطان الأشرف، وهو الذي يُعتبر سجلّ أعماله نقطة مشرّقة في أخبار المماليك في البلاد السوريّة. وقد أعاد تنكيز بناء جسر الدامور الذي كان يخرّبه طوفان النهر مرّة بعد أخرى، وأعاد بناء حصون بيروت، وبنى فيها خانًا جديدًا وحمّامًا للعامّة. وكان يمدّ يد العون إلى البحتريّين في إدارتهم البلاد. ومن جملة المدن التي انتفعت من حكمه الفاضل بيت المقدس، فإنّه جلب لها الماء. وأخيرًا اتُّهم بأنّه أساء استعمال المال المخصّص له فأُلقي عليه القبض وسُجن في الإسكندريّة وظلّ في السجن حتّى مات"[2]. أمّا خليفته فقد أمره السلطان أن يسرع في بناء اسطول ليثأر من دولة الكوزينيانيّين الصليبيّة التي كان أسطولها

---

١ ـ راجع: بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٨٠؛ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٢١٢ ـ ٢١٣.

٢ ـ راجع: بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ١٠٧ ـ ١١٧؛ إبن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، الطبعة الفرنسيّة (باريس، ١٨٩٣) ١: ١٢١؛ ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار إحياء الكتب العربيّة (القاهرة،١٩٦١) ١: ١٧٢.

البحري يقضّ مضاجع أهل الموانئ اللبنانيّة والمصريّة. وفي عام ١٣٠٣ أسر الفرنجة أحد أمراء بني بحتر عندما كان يصطاد الحجال بالقرب من الدامور، ولم يخلوا سبيله حتّى دفع لهم البحتريّون فدية قدرها ثلاثة آلاف دينار[١]. وفي سنة ١٣٦٥ هاجم الصليبيّون مدينة الإسكندريّة. وفي السنة ذاتها بدأ المماليك ببناء أسطول بحريّ على الشواطئ بالقرب من بيروت، ولكنّهم بعد أن أنزلوا في الماء سفينتَين للنقل وتكبّدوا النفقات الطائلة، عدلوا عن العمل فجأة، وقد تركوا هاتَين السفينتَين وهياكل السفن التي شرعوا ببنائها في مكانها للسوس ينخرها. أمّا الحديد فيها فقد نهبه بعض البيروتيّين. وقد اختار المماليك بيروت لبناء هذا الأسطول بسبب أحراج الصنوبر في ضواحيها، وكانت أعمّ من ذي قبل، ولوجود معدن الحديد بالقرب منها والذي كان يُصدّر إلى مصر. وفي سنة ١٣٨١ هاجم أسطول من جنوًا مدينة صيدا وأعمل فيها النهب والسلب. ثمّ هاجم بيروت التي كان صالح بن يحيى من المدافعين عنها، وهو واضع تاريخ بيروت في ذلك العهد، الذي أشرنا إليه مرارًا، وقد أُرسل نبأ هجوم الأسطول الجنويّ إلى دمشق بطريقة الإشارات الناريّة، فوصلت كتيبة من الفرسان مساء اليوم الثاني من وصول الأسطول، ولكنّ الوقت كان قد فات فلم تشترك هذه الكتيبة في الدفاع عن المدينة. وفي سنة ١٤٠٤ ظهر هذا الأسطول مرّة أخرى على شواطئ بيروت، وأعمل فيها النهب والسلب وأحرق أسواقها القريبة من الميناء، وروّع السكان فولّوا هاربين إلى الجبال. ولا يذكر لنا التاريخ محاولات أخرى عدائيّة بعد ذلك الحين. ويبدو أنّ الناس اقتنعوا بأنّ العلاقات التجاريّة الطبيعيّة أجدى وأكثر نفعًا على مرّ الأيّام. إلاّ أنّ المنطقة بدأت منذ العام ١٤٠٠ تتعرّض لاجتياحات المغول بقيادة تيمورلنك. وكانت أنباء المجازر والعنف البالغ تسبق تحرّكات الجيوش المغوليّة،

---

١ - راجع: بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢١٥؛ مكّي، لبنان، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

ممّا دفع بأهـالي بعلبك إلـى الاستسـلام للمغـول وهـم فـي طريقهـم إلـى دمشـق، فنهب المغول المدينة وخرّبوا قلعتها كمـا خرّبـوا عنجـر، وهـرب الشـهابيّون مـن وادي التيـم خوفًا من وصـول المغـول إليهـم، والتجـأوا إلـى الشـوف، إلاّ أنّ التنوخيّيـن قـد جمعـوا الأموال ودفعوها لتيمورلنك كي لا يهاجم مناطقهم".

وفي غمرة المنازعات التي كانت قائمة بين أمراء المماليك الأتراك، بـرز الظـاهر برقوق الجركسيّ الأصل، فاستولى على الحكم في مصر سنة ١٣٨٢. وقد أيّـد برقـوق نائب الشام: بيدمر الخوارزمـيّ، إلاّ أنّ الأمـراء الممـاليك الأتـراك فـي بـلاد الشـام قد تكتّلوا ضدّ السلطان الجديد، وأصبحت الحقبة الأولى من حكم برقـوق الجركسـيّ حقبـة نزاعات متواصلة بين السلطان والأمراء في بلاد الشام، وهي تمتدّ من سنة ١٣٨٢ إلى ١٣٨٩. أمّا الحقبة الثانية فتمتدّ من سنة ١٣٩٠ إلى ١٣٩٨.

أمّا الأمراء التنوخيّون الموحّدون الدروز، فوقفوا إلى جانب بيدمر وبرقـوق، بينمـا مال مماليك كسروان من التركمان ومماليك طرابلس من الأتراك ضدّ الحكم الجديد.

في هذه الأثناء، كانت العلاقات قد ساءَت كثيرًا بين التنوخيّيـن وتركمـان كسـروان منذ استيلاء هؤلاء على مقاطعة كسروان إثر الحرب الكسروانيّة في عهد النـاصر بـن قلاوون سنة ١٣٠٧ كما ذكرنا سابقًا، وقـد حـاول تركمـان كسـروان سـنة ١٣٧٣ أخذ مقاطعات الغرب من التنوخيّين بألف جنديّ، وكاد الأمر يتمّ للتُركمان لولا أن استدرك التنوخيّون أمرهم بذهاب وفد من أعيان الغـرب إلـى القـاهرة ليثبتـوا إقطاعـاتهم هنـاك، وهكذا أصبح التنوخيّون في خصومة دائمة مع تركمان كسروان. وعندما أصبح برقوق سلطانًا، أخلص له التنوخيّون ووقفوا فـي مختلـف المناسـبات إلـى جانبـه، وكذلـك فعل موارنة الشمال. وقد شهدت هذه الحقبة من التاريخ تقاربًا درزيًّا ـ مارونيًّا، حتّى إنّه في العام ١٤٤١، زار وفد مارونيّ ـ درزيّ قداسة البابا في روما.

في هذه الأثناء، حدث أن تمكّن المماليك الثائرون على حكم برقوق من خلع برقوق سنة ١٣٨٩ والسيطرة على الدولة، إلاّ أنّ برقوق عاد فتمكّن بعد سنة من استعادة مكانته والانتقام من أخصامه، في معركة "شقحب" الشهيرة سنة ١٣٩٠ بالقرب من دمشق. وقد ساعد التنوخيّون السلطان في هذه المعركة، ولكنّهم تعرّضوا في مناطقهم لهجوم كبير شنّه عليهم تركمان كسروان وحاكم بيروت واسمه "المنطاشي"، فقد انتهز هؤلاء فرصة وجود التنوخيّين في القتال مع برقوق في شقحب، فهاجموا مناطق الغرب التنوخيّة وقتلوا ٩٠ نفرًا منهم، كما نهبوا أرزاقهم وبيوتهم وتجارتهم في بيروت. ثمّ عاد التركمان الكسروانيّون فهاجموا مرّة ثانية قرى الغرب بعد عودة التنوخيّين من شقحب، فقتلوا منهم ٤٠ شخصًا.

فلمّا عادت سيطرة برقوق، وجّه من البقاع قوّة بقيادة علاء الدين بن الحنش، "ومعه عشران البقاع بالاشتراك مع التنوخيّين لتأديب تركمان كسروان، فقتلوا أميرهم علي ابن الأعمى، وقتلوا جماعة معه، ونهبوا التركمان". وخرج التنوخيّون منتصرين من هذه المحنة مع التركمان والمناشطة.

عَشيَّـــــــــة
الفَتح العثمَاني

بعد الغزو المغوليّ لبلاد الشام سنة ١٤٠٠ على يد تيمورلنك، ونزوح عدد كبير من السكّان إلى الجبال اللبنانيّة طلبًا للأمان، امتلأت تلك الجبال بأهل القدرة والكفاءَة. في هذه الأثناء، استمرّ الإقطاع القديم بتجدّد، ممّا ساعد على استقرار الإقطاعيّين واطمئنانهم لما بين أيديهم من إقطاع. فأخذ ذلك الإقطاع يتحوّل إلى أيدي أسر إقطاعيّة

مستمرّة تتوارث عملها بموجب التقليد من دون أن يكون هنـاك أيّ قـانون يمنحها حقّ التوارث. وكان بعض الإقطاعيّين يؤجّر جزءًا من إقطاعـه، فيتحـوّل الإقطـاعي بذلـك إلى صاحب سلطة لأنّه يقوم ببعض مهامّ الدولة. وكان من نتائج هذا الواقع أن تحوّلـت الأسر الإقطاعيّـة إلـى حكومـات محليّـة صغيرة، تتحـالف وتتنـاحر وفقًـا لمصالحهـا الخاصّة، وليس وفقًـا لسياسـة الدولـة. وبـدأت إذ ذاك تظهـر بينهـم المنازعـات القبليّـة: القيسيّة واليمنيّة، مبتدئة من البقاع، ثمّ منتقلة إلى مختلف المناطق فـي الجبـال اللبنانيّـة. كما تميّزت هذه "الحكومات" الإقطاعيّة في لبنـان عـن بقيّـة منـاطق الإقطـاع المملوكـيّ بطابع مذهبيّ لم يظهر واضحًا إلاّ عندما حدث الاستقرار الإقطاعيّ في القرن الخـامس عشر، ولكن سرعان ما امتصّ الصراع القيسيُّ اليمنيُّ هذا الطابع المذهبيّ فـي أواخـر القرن المذكور[1].

وقد اعتبر بعض المؤرّخين أن "استتباب الأمن في لبنان، في هذه الحقبة، وسيطرة الموحّدين الدروز على مرافقـه، قـد أوجـد تزاحمًـا علـى الرئاسـة بيـن أكـابرهم، فكـان التنازع على الحكم والسيطرة يثير كوامن الحزبيّة في لبنان، لانتماء سكّانه إلى الحزبَين العربيَّين القديمَين: القيسيّ واليمنيّ. فكان ينتسب لكلّ حزب فريق من سكّان البلاد"[1]...

مع إطلالة القرن السادس عشر، وقرب انتهاء حكم المماليك على يد العثمانيّين فـي العام ١٥١٦، كانت الإمارة التنوخيّة قد "تمكّنت من بسط نفوذها من بيروت إلى صيدا، شـاملة جـزءًا مـن الشـوف، إلـى الغـرب والمتـن. ولكـنّ الصـراع بيـن عشـائر العائلـة التنوخيّة وانقسامها إلى يمنيّة وقيسيّة أضعفها في القرن الخامس عشر، ما فتـح المجـال أمـام المعنيّيـن فـي الشـوف للـبروز مـع مطلـع العهـد العثمـاني، وقـد سـاعد الاسـتقرار

---

١ ـ مكّي، لبنان، ص٢٦٢.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٣٣.

الإقطاعيّ في هذا القرن على تفسّخ التّوخيّين، الذين عملوا على بعث مذهب التوحيد الدرزيّ على يد الأمير السيّد التنوخيّ في عبيه، بعد أن توقّف الضغط المملوكيّ عن المذاهب غير السنيّة.

وفي خضمّ الصراع اليمنيّ، كان قد اشتهر من الحزب القيسيّ في القرن الخامس عشر، المعنيّون، الذين تزعّموا الحزب بعد انشقاقهم عن الحزب اليمنيّ، لخلاف الأمير فخر الدين الأوّل مع الأمير جمال الدين الأرسلانيّ اليمنيّ، فقوي بهذا التحوّل الحزب القيسيّ، الذي كان يضمّ التنوخيّين والعسافيّين الأكراد السنّة حكّام كسروان، والشهابيّين حكّام وادي التيم، والحرفوشيّين الشيعة حكّام بعلبك وغيرهم، وضعف الحزب اليمنيّ الذي كان يضمّ الأرسلانيّين وآل علم الدين التنوخيّين الموحّدين الدروز، وآل سيفا السنّة وغيرهم. وهكذا "فبعد أن كانت الرئاسة تتهادى بين البحتريّين وبين الأرسلانيّين (التنوخيّين الموحّدين الدروز) أخذ يزاحمهم عليها المعنيّون"[1].

وكان المعنيّون قد تمكّنوا من الاحتفاظ بإماراتهم الشوفيّة منذ أيّام الصليبيّين، وكانوا دائمًا على صلة ووفاق مع الشهابيّين في وادي التيم. ولكنّهم لم يبرزوا إلى ذلك الحين في زعامة البلاد، باعتبار أنّ التنوخيّين أمراء الغرب، كانوا يحتلّون مركز الصدارة في الجبال اللبنانيّة. وفي القرن الخامس عشر زادت أواصر العلاقة بين الشهابيّين والمعنيّين بالتزاوج، وتدخّل الأمير يوسف المعني سنة ١٤٧١ لمساعدة ابن أخته الأمير عليّ الشهابيّ ضدّ الأمير بكر الشهابيّ عمّ الأمير عليّ. وأدّى ذلك التدخّل إلى توحيد الشهابيّين وتقوية المعنيّين في الوقت ذاته، ولعلّ هذا العمل هو الذي ساعد الأمير فخر الدين عثمان المعنيّ ابن شقيق الأمير يوسف على البروز في ما بعد، في مطلع العهد العثمانيّ[2].

---

١ - الصغير، مرجع سابق، ص٣٤.

٢ - مكّي، مرجع سابق، ص٢٦٧.

الفَصل الرَّابع

فِي الحَقَبَةِ العُثمَانِيَّة

إنتقَالُ الإمَارَة إلى المَعنِيِّين؛ ظُهُــــورِ الجُنبلاطِيِّين؛

الحرُوب القيسيَّة - اليمنيَّة وإنتهَاء الإمَارَة المعنيَّة؛ إنتقال الإمارة إلى الشهابيِّين واندحَار

اليمنيِّين نهائيًّا؛ النِّزَاعُ اليَزبَكيُّ - الجنبْلاطِي ونُشُوءُ جَبَل الدُّرُوز فِي حُورَان؛

صراعَاتٌ سُلطَوِيَّة

إنتقال الإمارة إلى المعنيين

يقول المؤرّخ الموحّد الدرزيّ سعيد الصغير[1] ما حرفيّته:

"لمّا دخلت الجيوش العثمانيّة بلاد الشام (١٥١٦م/ ٩٢٢هـ) بقيادة السلطان سليم الأوّل، وانتصر على آخر ملوك الشراكسة في معركة مرج دابق، كان المعنيّون متّفقين مع الفاتح الجديد. بينما ساعد البحتريّون (التنوخيّون) الشراكسة. وبعد دخول السلطان سليم الأوّل مدينة دمشق، كتب إلى أمراء الجبل يدعوهم إليه، فوفد عليه الأمير فخر الدين المعنيّ أمير الشوف، والأمير جمال الدين الأرسلانيّ أمير الغرب، والأمير عسّاف التركمانيّ أمير بلاد كسروان وبلاد جبيل، فأثبتهم على مناطقهم، وقدّم عليهم الأمير المعنيّ الذي خطب أمام السلطان بالنيابة عن الأمراء خطبة جميلة، استمال قلب الفاتح، فخلع عليه ولقّبه "سلطان البرّ"، وأوصاهم: أن يحسنوا السياسة لقومهم، وأن يسعوا بكل ما يؤول إلى عمران بلادهم، فقدم إليه الناس من كل جانب إلاّ الأمراء التنوخيّين والقيسيّين فلم يحضروا، لأنّهم كانوا من حزب الدولة الشركسيّة. وتوسّط لهم الأمير المعنيّ فرضي عنهم العثمانيّون، ولكنّهم ساعدوا صاحب صيدا حينما أظهر عصاية على العثمانيّين، ففشل وقُتل وهو ابن الحرفوش، وأُلقي الرؤساء الدروز في غياهب السجون، ثمّ أطلق سراحهم بعد حين".

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص٣٥.

ويقول الشدياق تحت عنوان: "في نسبة الأمراء المعنيين إلى الإسلام"، إنّه سنة ١٥١٥ كتب الغزالي نائب دمشق إلى الأمير فخر الدين عثمان (المعني الأوّل) أن يجمع عسكرًا ويحضر إليه، فحضر وسار معه إلى مرج دابق، صحبة قانصوه الغوري (المملوكيّ الجركسيّ) فالتقاه السلطان سليم بجيوشه، ولمّا اشتّد القتال أمر الغوري نائبيه الغزالي وخير بك أن يتقدما الجيش ليُقتلا لخيانتهما، ففرّا إلى عسكر السلطان سليم، وفرّ الأمير فخر الدين مع الغزالي. ولمّا قدم السلطان سليم إلى دمشق دخل إليه الأمير فخر الدين ودعا له فصيحًا فخلع عليه السلطان وفوّض إليه كلّ أمور الشام، وجعله مقدّمًا على الجميع[1].

أمّا حتّي، فاعتبر أنّه لمّا وقعت معركة مرج دابق، بين الأتراك والمماليك، وقف بنو بحتر، أمراء الغرب، إلى جانب المماليك يساعدونهم عسكريًا، بينما ظلّ بنو معن، أمراء الشوف، في موقف المتفرّج المترقّب. ويبدو أنّ فخر الدين المعنيّ الأوّل أجرى مفاوضات سريّة مع والي حلب، خير باي، والغزالي والي دمشق، وكلاهما من الذين خانوا المماليك. ولكن بالرغم من هذه المفاوضات السريّة فإنّ فخر الدين أوعز إلى رجاله قائلاً: "دعونا ننفرد لننظر لمَن تكون النصرة فنقاتل معه"[2].

على أيّ حال، فقد تمّ في خلال ذلك التحوّل ما اختصره بعض المؤرّخين بقولهم عن الأمير فخر الدين بن عثمان المعني: "هو أشهر الأمراء المعنيّين، وبه غابت شمس الإمارة التنوخيّة وأشرقت شمس الإمارة المعنيّة"[3].

---

١ - الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٢٩٢ - ٢٩٣.

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٤٣٧.

٣ - الشهابي الأمير حيدر، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، نشر نعّوم مغبغب (القاهرة،١٩٠٠).

وهكذا، فإنّه مع نهاية حكم المماليك وبدء حكم العثمانيّين، زالت الإمارة التنوخيّة بعد حكم استمرّ منذ أوائل العهد العبّاسيّ إلى نهاية العهد المملوكيّ، أي ما يقارب ثمانية قرون من الزمن، وقامت الإمارة المعنيّة.

وسواء كان المعنيّون قد بقوا على سنيّتهم، أو كانوا قد اعتنقوا مذهب التوحيد الدرزيّ في ما بعد، فلا شكَّ في أنّ الموحّدين الدروز الذين كانوا يخضعون للإمارة التنوخيّة، أصبحوا مذ تسنَّم المعنيّون سدّة الإمارة، رعايا للإمارة المعنيّة. وقد شهدت مناطقهم في هذه الحقبة من الزمن، صراعًا داميًا عنيفًا وطويلاً، بين حزبَي اليمنيّة والقيسيّة. وأصل هذه الحزبيّة أنّ قبيلة بني قيس، التي ينتسب إليها القيسيّون أو يُسمّون نسبة إليها، قبيلة عربيّة شماليّة مواطنها ضفاف الفرات، أمّا الحزب اليمني، فكان ينتمي إلى قبائل عربيّة جنوبيّة هجرت مواطنها الأولى ونزحت شمالاً إلى سورية. وقد استمرّ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب في هذَين الحزبَين، القيسيّ: عرب الشمال، واليمنيّ: عرب الجنوب، وامتدّ حتّى شمل العالم الإسلاميّ برمّته من خراسان إلى الأندلس. أمّا في شرقيّ المتوسّط، وعلى الأخصّ في لبنان، فإنّ هذا الصراع استمرّ بين حزبَين، اليزبكيّ: القيسيّ، والجنبلاطيّ، إلى يومنا هذا[1]. ويبدو أنّ العثمانيّين قد أجّجوا هذا الصراع العربيّ من أجل مصلحة العثمنة.

وكان في بداية احتدام الصراع القيسيّ اليمنيّ في لبنان، في أواخر القرن الخامس عشر، قد برز في البقاع أمير يُدعى ناصر الدين بن محمّد بن الحنش، وأصبح مقدّمًا على مختلف المناطق البقاعيّة، وعُرف بشيخ العرب.

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٣٩.

هذا الأمير كان ذا عصبيّة يمنيّة متطرّفة. وقد وقعت بين الأمير ناصر الدين ونائب الشام المملوكيّ: قانصوه المحمّدي، عدّة معارك سنة ٩٠٥ هـ/ ١٤٩٧م، اضطرّ الأمير على أثرها إلى الهرب. ثمّ عاد بعد ذلك إلى مقاطعته البقاعيّة مستغلاً تغيير النائب في دمشق، فبدأ بالتوسّع نحو الجنوب، إذ هاجم أمير الجنوب عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين بخمسة آلاف مقاتل،... وتمكّن ناصر الدين من السيطرة على الجنوب وأصبح معروفًا بعد ذلك بلقب أمير صيدا والبقاعيَن وشيخ الأعراب أو شيخ العرب. ومن ناحية ثانية انقرضت عائلة بشارة الشيعيّة من حكمها الإقطاعيّ في الجنوب، بعد أن ظلّت مسيطرة في المنطقة أكثر من قرن من الزمن وأعطت اسمها للمنطقة الواقعة جنوبي الليطاني: بلاد بشارة. وبهذا الانتصار للأمير ناصر الدين بن الحنش، تزعّم هذا الأخير الأمراءَ التنوخيّين والمعنيّين، وقويت بذلك العصبيّة اليمنيّة التي كان الأمير ناصر الدين يعتمدها. ثمّ امتدّت سلطته إلى بلاد حماة فعُرف بلقب أمير عربان حماة وحمص[1].

ولمّا وقعت الحرب بين المماليك والعثمانيّين وانهزمت القوّات المملوكيّة، جعل السلطان المملوكيّ: طومان باي، الأمير ناصر الدين مسؤولاً عن الشام، لأنّه لم يتحالف مع العثمانيّين. وبالفعل، فقد صدّ الأمير ناصر الدين قوّات العثمانيّين في القابون لمدّة ثلاثة أيّام قبل دخولهم دمشق، ومكافأةً له رُشّح ليكون أتابكًا على دمشق. ولكن بعد هزيمة المماليك استسلم الأمير ناصر الدين للسلطان سليم فأبقاه في مركزه الأساسيّ أميرًا على صيدا والبقاعَين[2].

---

١ - إبن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار إحياء الكتب العربيّة، (القاهرة،١٩٦١) ٥: ١٠٦؛ راجع: مكّي، لبنان، ص٢٧٤.

٢ - مكّي، لبنان، ص٢٧٥.

سرعان ما خرج ناصر الدين على طاعة العثمانيّين وهرب بعد وقت قصير. واتُّهم في هذا العصيان مع الأمير الحنشيّ الأمراء زين الدين قرقماز المعنيّ، ونسيبه علم الدين سليمان، بالإضافة إلى الأمير شرف الدين التنّوخيّ، باعتبار هؤلاء الثلاثة من حزب ناصر الدين. فحاربهم جان بردي الغزالي الذي كان قد أصبح عثمانيًّا، واعتقلهم في صيدا، ثمّ أرسلهم بحرًا إلى صور، ثمّ إلى قلعة صفد ومنها إلى قلعة دمشق. وقتل الغزالي الأمير ناصر الدين بن محمّد بن الحنش وقطع رأسه وأرسله مع الأمراء المعتقلين إلى حلب حيث كان السلطان سليم موجودًا، فعفا السلطان عن الأمراء وأعادهم إلى بلادهم.

وهكذا انهارت تجربة عائلة حنش بإنشاء إمارة لبنانيّة كبيرة بسبب حزبيّتها اليمنيّة، وانقلاب العائلات القيسيّة عليها. ثمّ تحوّلت إلى عائلة إقطاعيّة صغيرة في فتقا الكسروانيّة حتّى كانت سنة ١٥٤١، إذ تآمر الأمراء أولاد الحنش مع المقدّم ميكائيل والي الذوق على قتل الأمير منصور العسّافي، في غزير، ولكنّ العسّافي تمكّن من قتلهم جميعًا، وبذلك انقرضت هذه العائلة الإقطاعيّة.

كانت هذه الظروف مؤاتية للأمير فخر الدين الأوّل، فبعد أن ثبّت سلطته في إمارته الشوفيّة، وقد خرج الأمير ناصر الدين الحنش، ومعه أمراء من التنوخيّين والمعنيّين، بالعصيان على العثمانيّين، ونادوا بشعار اليمنيّة، ولكنّ هزيمة الحنش ومقتله، وغضب العثمانيّين على الذين ساعدوه، أمور أدّت إلى زوال الزعامة التنوخيّة اليمنيّة من لبنان، وإلى بروز زعامة جديدة قيسيّة، قائمة على تحالف المعنيّين والشهابيّين.

ومع أنّ المؤرّخين عامّة اعتبروا أنّ السلطان سليم الأوّل (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) "كان حقًّا عظيمًا" وأنّه "لم تقم دولة إسلاميّة في التاريخ تُضاهي دولته في اتّساعها أو في مدّة

بقائها"... وأنّ "رعايا السلطان سليم كانوا يعرفونه بالقانونيّ، لأنّه جمع القوانين والشرائع القديمة المتعلّقة بالجيش وأصحاب الاقطاع وواجبات الرعيّة وحقوقها ونظّمها بشكل مجموعة قوانين"[١]... فإنّ بعض مؤرّخي الموحّدين الدروز يعتبر أنّ "السياسة العثمانيّة كانت أداة للتدمير والخراب عوضًا عن التمدين والعمران..." وأمام هذا الواقع "استعدّ الموحّدون الدروز لمجابهة عدوّهم بعد أن عمّروا قراهم ونظّموا أرزاقهم واحترسوا من الغزو المفاجئ". ويرى هؤلاء المؤرّخون أنّ "الأسرة المعيّنة (التي يعتبرونها موحّدة درزيّة) أخذت (بعد استلام فخر الدين الأوّل زمام الإمارة) بتقوية نفوذها في لبنان ونشر سلطانها على ما جاورها من البلدان، فقام الأمير فخر الدين الأوّل بتوحيد اللبنانيّين، وبسَط سيطرته على بلاد تمتدّ من حدود يافا جنوبًا حتّى طرابلس شمالاً، وبنى بنايات عظيمة وقلاعًا حصينة، فاستراح الناس في حكمه، وأصبح للبنان شأن حسده عليه وُلاة تركيا، وأخذوا يكيدون لإخضاعه وإلحاقه بولايتهم. فرفض ابن معن الخضوع لهم، وبقي مستقلاً بشؤونه الداخليّة، فجهّز والي دمشق جيشًا كبيرًا لغزو الدروز في الشوف عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م، وفاجأهم في قراهم الآمنة، فدمّرها قرية بعد أخرى، وبلغ ما نهبه وأحرقه ٧٥ قرية، وقتل الأنفس دون مراعاة النساء والأطفال، واستولى على مجلّدات من كتبهم الدينيّة وغنم ما لا يُحصى من البقر والجمال والغنم وغير ذلك"[٢].

ويقول هؤلاء المؤرّخون إنّ "الوالي التركيّ عمد للخدعة عندما استدعى الأمير فخر الدين بحجّة تصفية الأمور بينهما، فبعد وصوله إلى دمشق قتله سنة ٩٥١ هـ/ ١٥٤٤م... فهاجت النفوس لمقتله وأخذ ابنه الأمير قرقماز يستعدّ للأخذ بالثأر، فتألّب

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٤٤٦.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٣٧، مستندًا إلى: كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ٢٣٧.

حوله كلّ مَن يشاطره العداء للعثمانيّين من موحّدين دروز ومسيحيّين، وأخذوا يغيرون على الجيوش العثمانيّة المتنقّلة في البلاد". وقد استمرّت الحال على هذا المنوال حتّى عام ١٥٨٥م، لمّا سلب مجهولون في جون عكّار الأموال الأميريّة المجموعة من مصر وسورية وهي بطريقها إلى الآستانة، "فوجّهت الدولة إبراهيم باشا وضربت على أيدي المعتدين، وسار جعفر باشا حاكم طرابلس وأحرق بلاد عكّار"[١]، انتقامًا للأموال المنهوبة. ولكنّ عداء ولاة الاتراك للموحّدين الدروز جعلت الولاة يوجّهون التهمة إلى الأخيرين الذين أنكروها، لأنّ الحادثة جرت في أقصى الشمال الذي لا يستوطنه الموحّدون الدروز، فلم تُقنع الأدلّة الصادقة الدولة لكراهيتها للموحّدين الدروز الذين يأبون الرضوخ لسيطرتها، فجرّدت عليهم عشرين ألف مقاتل بقيادة حاكم مصر العام: إبراهيم باشا، لكسر شوكة سيادتهم واستئصال الأمراء المعنيّين.

إتّبع إبراهيم باشا الخدعة والغدر إذ خيّم بالقرب من عين صوفر، فوق عاليه، سنة ١٥٨٨م، وأذاع على سكّان الجبل رسالة يدعوهم فيها إلى الاجتماع به لتصفية الحال، فرفض الأمير قرقماز الدعوة لأنّه لم ينسَ غدر الأتراك بوالده، وحضر الأعيان والعقّال، فاستقبلهم إبراهيم بالبشاشة والترحاب حتّى اطمأنّوا، لأنّهم لم يروا معه سوى نفر قليل من حاشيته، ولمّا خيّم الظلام ونامت الوفود الموحّدة الدرزيّة الآمنة، أقبل جنود إبراهيم باشا من كمائنهم وقتلوا ستمائة موحّد درزي وهم نيام، ثمّ انتشروا في الجبل وأمعنوا في النهب والسلب، وألقوا القبض على زعماء الغرب، وأرسلوهم مغلولي الأيدي إلى الآستانة، حيث أثبتوا براءتهم من سلب الخزينة. أمّا الجيش العثمانيّ فبعد أن نهب ٢٤ قرية من قرى الموحّدين الدروز، "تجمّع رجال الموحّدين

---

١ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ٢٤٠.

وهاجموا العسكر فقتلوا قائده "أويس باشا" وخمسمائة من جنده. عندئذ طلب إبراهيم باشا "ترحيلة" ليغادر الجبل، فأرسل إليه ابن معن مئة ألف "دوكا" و٤٨٠ بندقيّة وخيلاً وأشياء ثمينة، فاستلمها الوزير العثماني، ثمّ أمر بإحراق ١٩ قرية درزيّة، وأعدم ثلاثمائة رجل، وكان الأسطول العثمانيّ خلال ذلك قد أخرج إلى صيدا أربعة آلاف جنديّ، وضرب جميع الساحل، وأخذ ثلاثة آلاف أسير"[1].

ثمّ "أعادت حكومة استنبول المعتقلين إلى أوطانهم، وسلّمت ولاية الغرب وبلاد الشوف إلى الأمير جمال الدين الأرسلانيّ والأمير منذر سيف الدين التنّوخيّ. وكان الأمير قرقماز المعنيّ قد لجأ إلى "عشّ النسر" بشقيف تيرون (قلعة نيحا) قرب جزّين، ورفض الاستسلام لإبراهيم باشا، فأمر هذا الأخير بإشعال النار في المغارة وسدّها حتّى مات اختناقًا (كان ذلك سنة ١٥٩٥م) تاركًا ولدَيه القاصرَين: فخر الدين ويونس، برعاية والدتهما الأميرة نسب التنوخيّة، التي أشارت على مربّيهما، الحاج كيوان، أن يخبّئهما في منطقة كسروان، فترعرعا بين آل الخازن القيسيّين، فكتموا خبرهما خوفًا من غدر العثمانيّين واعتداء اليمنيّين عليهما. وبعد ستّ سنوات قدما إلى خالهما: الأمير سيف الدين التنوخيّ، فأحسن تربيتهما. ولمّا بلغ فخر الدين سنّ الرشد ١٥٩٧م/ ١٠١٠هـ، سلّمه مقاليد الشوف، فطفق يتنقل متنكّرًا من أنحاء المتن إلى جهات الشوف ليتعرّف إلى مؤيّديه، فلقي كلّ تشجيع من مختلف الفئات المتحرّقة لخلع نير العثمانيّين، وتمكّن بحنكته وحسن إدارته من توحيد اللبنانيّين، واقترن بكريمة الأمير جمال الدين الأرسلانيّ ليأمن الحزب اليمنيّ، وحالف الشهابيّين أمراء وادي التيم، وقام بجمع الأموال وإرسالها إلى استنبول ليأمن شرّ العثمانيّين وهو ضعيف، وخصّ بعض وزراء

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٣٨، مستندًا إلى: كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ٢٤٩.

الآستانة بمبالغ من المال، فساعدوه على قمع شكاوي ولاة المدن السوريّة، وتمكّن (بواسطة الموحّدين الدروز المتّحدين) من تطهير لبنان من عصابات الأشقياء والسلاّبين، وغزا ابن طرباي (من يمنيّي طيّ، كان إقطاعهم من عجلون إلى يافا، وكانوا ينتصرون أحيانًا على ابن معن) ثلاث مرّات، فرحل إلى الرملة، وانتصر على ابن سيفا (والي طرابلس من أصل كرديّ)، واستولى على بلاد كسروان وبيروت، وأضفى سلطته على سهل البقاع، فسهل له الاتّصال الدائم بدروز وادي التيم[1].

ظُهُــــــور الجُنبلاطِيّين

"ينتسب المشايخ الجانبولاديّون إلى "جانبولاد" من الأكراد الأيوبيّين، المعروف بابن عربي، الذي تولّى معرّة النعمان وغيرها. ولفْظ "جانبولاد" أصل لفْظ جنبلاط، الذي تستعمله العامّة في لبنان، فغيَّروه بكثرة الاستعمال"[2].

وكان "جانبولاد" قد تولّى مدينة "كلّس" السوريّة في حوالى العام ١٥٧٢. وفيما عقبه على تولّي كلّس ابنه حبيب، أصبح ابنه الثاني المعروف بحسين باشا أمير الأمراء في حلب في العام ١٥٨١. وسرعان ما عزل حسين باشا أخاه حبيبًا عن تولّي كلّس وتولّى هو عليها، فعاد حبيب واستردّ كلّس عازلاً أخاه، واستمرّ الأخوان يتعازلان "فكان تارة يتولاّها حسين باشا وتارة أخوه المير حبيب إلى أن تولاّها رجل يُقال له ديو سليمان، فجمع حسين باشا السكمان وطرده وتولّى مكانه. وبخلال ذلك عُيّن في وزارة

---

١ ـ الصغير، مرجع سابق، ص٣٨ ـ ٣٩.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٤٥.

حلب، فوضع في كلّس ضابطًا عنه يُدعى عزيز كتخدا، وسار إلى حلب حيث كثرت جنوده وأمواله لأنّه كان شجاعًا حسن السياسة... وفي العام ١٥٩٩ أنجد حسين جانبولاد الصدر الأعظم: محمّد باشا بن سنان، في حربه ضدّ أمير الحبشة الذي هو الآخر إسمه حسين باشا.

في هذه الأثناء شنّ أحد السكمان، واسمه رستم، هجومًا على كلّس فنهبها وصادر أعيانها وقتل الضابط عزيز كتخذا. وعندما عاد حسين جانبولاد إلى كلّس، قتل رستم واستعاد كلّس وأصلح أمورها... ثمّ تزوّج إبنة يوسف باشا سيفا... وما لبث أن أنجد بعسكره نصّوح باشا والي حلب ضدّ العسكر الدمشقي... ولم يمضِ وقت طويل حتّى سوّلت نفس والي حلب هذا له قتل حسين جانبولاد ناسيًا فعله الجميل معه، فسعى حسين جانبولاد حينئذ ضدّ نصّوح، وتمكّن من انتزاع ولاية حلب منه رسميًّا، بأمر من الدولة، فكانت ردّة فعل نصّوح أنّه قال: ـ إذا ولّت الدولة على حلب عبدًا زنجيًّا أطيعه لا ابن جانبولاد ـ فاشتعلت إذ ذاك نار الحرب على أبواب حلب بين الجانبولاديّين وعسكر نصّوح باشا، واستمرّت الحرب أربعة أشهر، إلى أن انتهت بصلح توسّط فيه قاض اسمه السيّد محمّد شريف، فدخل إذ ذاك حسين جانبولاد واليًا على حلب في العام ١٦٠١، غير أنّ الصدر الأعظم قد قتله في العام ١٦٠٥ "لتباطئه عن نجدته في محاربة العجم، فتولّى حلب عنوة بعد موته ابنُ أخيه عليّ". وإثر تعرّض عليّ جانبولاد لهجوم من قِبَل يوسف باشا سيفا، والي طرابلس، في العام ١٦٠٧، اتّصل بالأمير فخر الدين المعني، فاجتمعا عند نبع العاصي، "وتشاورا في قصد ابن سيفا"[1]. مع العلم أنّ العداوة كانت قد أخذت مجراها بين المعنيّ وابن سيفا.

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٤٧ ـ ١٤٨.

بتحالف فخر الدين المعنيّ وعليّ جانبولاد الخارج عن طاعة السلطان، تعاون القائدان على محاربة جند دمشق الذين ساندهم يوسف باشا بتكليف من السلطنة العثمانيّة، وتمكّن عليّ جانبولاد وفخر الدين من قهر سيفا والدمشقيّين، كما استوليا على بلاد طرابلس واللاذقيّة وحماه وحمص وعكّار وجبلة وحصن غزير لمدّة سنتَين، ونفّذ فخر الدين "حكمه من أضنه إلى نواحي غزّة، فجرّدت الدولة جيشًا يزيد على ٤٠ ألف جندي بقيادة مراد باشا، الذي تمكّن، بعد قتال مرير وحصار، من احتلال حلب ودمشق وما بينهما. إلاّ أنّ الوزير العثمانيّ عاد ورضي على ابن معن لأنّه أرسل ثلاثماية ألف قرش مع ولده عليّ. فأنعم عليه بسنجقيّة صيدا وبيروت وغزير، ولم يشمل بلاد الشوف التجنيد الإجباريّ الذي عمّ جميع البلاد"[1].

أمّا عليّ جانبولاد، فاستمرّ متمرّدًا على السلطة العثمانيّة، وكثرت الشكاوى ضدّه إلى السلطان أحمد "فغضب من أفعاله وأصدر له فرمانًا يتهدّده، فكان يُنكر بعض أفعاله ويعتذر عن بعضها... فاشتدّ حنق الدولة عليه، وأرسلت مراد باشا بثلاثماية ألف مقاتل لقصاص علي وتمهيد البلاد... فجمع عليّ ثمانين ألف مقاتل"[2]... ولكنّ علي جانبولاد انهزم وفرّ إلى مالطا، وضبطت السلطنة كلّ أمواله وقتلت رجاله. وبعد حين، قصد عليّ اسطنبول مسترحمًا، فعفا عنه السلطان "وولاّه منصب طمشوار في بلاد الروملّي... وسنة ١٦١١ توفّي عليّ جانبولاد في بلغراد... أمّا أقاربه فاختفى بعض أولادهم في بلاد حلب وكلّس. وسنة ١٦٣٠، حضر جانبولاد بن سعيد بولده رباح من بلاد حلب، إلى بيروت، لما بينهم وبين آل معن من الصداقة والوداد. ولمّا عمّ خبره، قدم إليه أكابر جبل لبنان ودعوه إلى الإقامة في بلادهم، فأجاب وأتى معهم وأقام في

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٤٠.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٤٩.

مزرعة الشوف، فاعتبره الأمير فخر الدين، حتّى كان يعتمد عليه في مهمّات أموره، وكان الشيخ أبو نادر الخازن (المارونيّ) مدبّر الأمير فخر الدين، فاتّحد مع جانبولاد وصار بينهما محبة وثيقة"[1].

بحضور جانبولاد إلى لبنان، واعتباره من قِبَل فخر الدين، يبدأ تاريخ الأسرة الجنبلاطيّة، في تاريخ الأعيان الموحّدين الدروز. وقد تزوّج عليّ، حفيد جانبولاد، إبنة قبلان القاضي التنّوخي كبير مشايخ الشوف. ولمّا تُوفي القاضي سنة ١٧١٢، بلا عقب، اتّفق أكابر الشوف أن يكون صهره عليّ جانبولاد في مرتبة قبلان، رأسًا عليهم، فولّاه الأمير حيدر الشهابي، بناء على هذا، مقاطعات الشوف، وقد أحسن عليّ إدارة مقاطعته فحصلت الراحة والأمان فيها واستمال الناس إليه... وصار شيخ المشايخ[2]. وبذلك أضحى الشوف من إقطاع الجنبلاطيّين الذين اتّبعوا دين الأكثريّة في مناطقهم: دعوة التوحيد الدرزيّة.

الحرُوب القيسيَّة - اليمنيَّة وإِنتهَاء الإمَارَة المعنيَّة

من مراجعة تواريخ أعيان الموحّدين الدروز في القرنَين السادس عشر والسابع عشر، وحتّى بداية القرن الثامن عشر، يتّضح أنّ الصراع القيسيّ - اليمنيّ الذي مُني به مجتمع الموحّدون الدروز، كان من أقسى الصراعات الدامية وأطولها، ممّا أضعف قوّة الموحّدين الدروز كثيرًا، وحدّ من نموّها وتقدّمها إلى أدنى الحدود. ولا تتّسع

---

١ - الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٥١.

٢ - الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٥١.

المجالات لوصف دقائق تلك الحروب والمعارك، التي امتدّت على مدى مئات السنين، والتي لم تكن حربًا بالمعنى التقنيّ للكلمة، إنّما هي كانت عداوة متأصّلة ومستمرّة، يستحيل الإحاطة بأخبار معاركها الدامية إحاطة شاملة ومنسّقة. وقد اختصر المؤرّخ الموحّد الدرزيّ سعيد الصغير تلك الحروب على الشكل التالي[١]:

عندما جرّدت الدولة العثمانيّة الحملات ضدّ الأمير فخر الدين المعني، اشترك في هذه الحملات قائد عثمانيّ إسمه "الحافظ" هاجم البلاد من جهة وادي التيم، وهدم منازل الشهابيّين في حاصبيا، وأتلف أملاكهم، فهربوا من أمامه، ولكنّه لم يتوغّل في بلاد الموحّدين الدروز، إلاّ بعد أن جهّز عام ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م جيشًا ضمّ عساكر غزّة وصفد وصيدا وبيروت وحماه وعشائرهم، وأثار الشقاق بين سكّان البلاد بتقوية الحزب اليمنيّ، وإثارة أمراء الغرب وبعلبك ووادي التيم وبعض أهل الشوف ضدّ المعنيّين والقيسيّين، فوقع بين أهل الجرد والغرب والمتن وعسكر الدولة، وبين أهل الشوف القيسيّين، قتال قرب نهر الباروك انكسر فيه العسكر وأنصاره انكسارًا عظيمًا، وقتل منهم خمسماية قتيل أكثرهم من السكان، وكان عدد عسكر الدولة عشرين ألفًا[٢]، فأحرق أحمد باشا وابن سيفا قصر بيت معن في دير القمر، وأحرقوا عبيه، وأسروا الأمير ناصر الدين التنّوخي، فأكرمه الحافظ ومنحه مقاطعة الشوف التي اضطرّ معظم أهاليها للرحيل إلى وادي التيم. وأقام الأمير يونس المعنيّ في بانياس. وبعد تراجع الجيش وازدياد مظالم اليمنيّين، قوي القيسيّون وتطاولوا على اليمنيّين، خصوصًا بعد أن تولّى وزارة اسطنبول محمّد باشا قبودان صديق فخر الدين، فذهب الشيخ يزبك عماد لمقابلة صديقه الأمير فخر الدين في إيطاليا، طالبًا منه التدخّل لتخفيف

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٤٠ وما يليها.

٢ ـ بالاستناد إلى: كرد علي، خطط الشام، ٢: ٢٥٧.

حدّة الخلاف، ولكنّ التوتُّر الحزبيّ ازداد سنة ١٦١٥، وجرّد الأمير عليّ المعني بقيادة الشيخ مظفّر علم الدين والأمير مذحج بن محمّد أرسلان، هجومًا هزم اليمنيّة إلى جوار الشويّفات، وقُتل منهم مائتان، ومن القيسيّة ثلاثون. وفي نفس اليوم جرى قتال بين رجال الحزبَين في عبيه، وأغميد، وعينداره، انتصر فيه القيسيّون، وغرّم الأمير عليّ المعني سكّان بيروت بألف قرش لموالاتهم إبن سيفا. وفي السنة التالية (١٦١٦) تغلّب الأمير على يوسف سيفا ووزّع المقاطعات على أنصاره، فولّى عمّه يونس مقاطعة الشوف وبلاد بشاره ومقاطعة كسروان، والأمير منذر التنوخيّ مقاطعة الجرد والغرب، ومقدّمي كفرسلوان اللمعيّين المتن[١]، والأمير عليّ الشهابي مرجعيون والحولة، وحسين اليازجي بلاد صفد والشقيف، وأبقى على ولاية صيدا حسين الطويل[٢].

إثر عزل الحافظ عن دمشق، وتولّيها من قِبَل محمود باشا، عاد فخر الدين من إيطاليا إلى لبنان، واهتمّ بإطفاء نيران الفتنة القيسيّة - اليمنيّة، "وتكاتفت الأسر الموحّدة الدرزيّة من جديد على حفظ كيان جبلها، فشيّدت فيه هذه الإمارة العربيّة التي كانت تحاول الدولة العثمانيّة إخضاعها لسيطرتها...

"في هذه الأثناء، كان فخر الدين يهيّئ الأسباب لاستقلاله التام، فاتّخذ عام ١٦٣٢ مدينة بيروت عاصمة لإمارته ليسهل عليه الاتّصال بحلفائه أمراء إيطاليا. وكانت

---

١ - ينتسب الأمراء اللمعيّون إلى بني فوارس، إحدى الطوائف العشر الذين قدموا من الجبل الأعلى إلى لبنان، فقام منهم رجل يكنّى بأبي اللّمع وقطن كفرسلوان في المتن، لحدث بينه وبين مقدّميها بني الصوّاف عداوة فتغلّب أخيرًا عليهم، وسنة ١٦٥٢ توفي المقدّم أبو اللّمع ودُفن في المتَيْن، ومن سلالته الأسرة اللمعيّة، التي كانت من الأسر الدرزيّة الإقطاعيّة إذ تولّت اقطاع المتن بعد معركة عين دارة، وفي وقت لاحق، تنصّر اللمعيّون وأصبحوا موارنة. راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٦٥ - ٧٢.

٢ - بالاستناد إلى: كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ص ٢٥٧.

أملاك الموحّدين الدروز فيها كثيرة، فشيّد فيها (في بيروت) القصور والحصون. إلاّ أنّ الدولة المستشعرة خطر المعنيّ كانت تستعدّ للقضاء عليه. ففي سنة ١٦٣٤ جرّدت جيشًا بريًّا عدده ٧٦ ألف جندي بقيادة الكجك أحمد باشا الأرناؤوطي والي دمشق وواليَيْ حلب والقاهرة، تساندهم مدافع استقدموا لها من مصر أربعة آلاف قنطادر بارود، وهاجم الأسطول البحريّ مدن الساحل ليمنع ما قد يأتي لنجدة فخر الدين من التوسكانيّين والبنادقة، وساعد بنو سيفا وأصحاب الأحزاب الجيش العثمانيّ في المعارك الساحليّة، فأصبح الموحّدون الدروز بين ثلاث قوى مباغتة، جابهوها بخمسة وثلاثين ألف مقاتل، فانتصروا في معركتَين نشبتا قرب صفد وتراجعت عساكر الشام. وبعد معارك قبّ الياس (في البقاع) وطرابلس تضعضع الموحّدون الدروز لقلّتهم أمام كثرة المهاجمين الذين لم يأبهوا لوفرة قتلاهم، ففشل الموحّدون الدروز في المعركة الثالثة التي جرت عند خان حاصبيا، وقُتل فيها عليّ المعني بطعنة رمح، وعمّه يونس بخدعة الكجك أحمد الذي استقدمه إلى صيدا وغدر به. وبعد تشتّت الموحّدين الدروز وتوغّل العثمانيّين وأنصارهم في البلاد، التجأ الأمير فخر الدين إلى شقيف تيرون (قلعة نيحا) ثمّ إلى مغارة جزّين، فجدّ أعداؤه في طلبه وضيّقوا عليه الحصار حتّى اضطروه للاستسلام بعد اختفاء سنة. فأرسله الوزير العثمانيّ إلى استنبول، حيث استقبله السلطان باحترام، ولكنّه لامه على أعماله، فاعتذر إليه بأنّه لم يقتل غير العصاة وأنّ بناءَه لقلعتَين قبالة حلب لوقاية تلك الأنحاء من عدوان الانكشاريّة. فعيّن العثمانيّون على جبل الشوف الشيخ سرحال عماد[1] من الباروك،

---

١ ـ المشايخ العماديّون الموحّدون الدروز ينتسبون إلى رجل من مدينة العماديّة القريبة من مدينة الموصل يُسمّى عمادًا، قدموا إلى الجبل الأعلى وأقاموا في قرية تُسمّى مرطحوان، ثمّ انتقلوا إلى قرية هناك تُسمّى تليتا، ثمّ انتقلوا إلى مقاطعة العرقوب وقطنوا في الزنبقيّة، وبعد زمن حدثت فتنة بينهم وبين الجانبولاديّين، فاقتتلوا، وقتلوا من الجانبولاديّة جماعة ونهبوهم وفرّ الباقون إلى مزرعة الشوف، وانتقل العماديّة إلى عين وزيه، ومنها إلى الباروك. عن الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٧٦.

والأمير عليّ علم الدين[1] على الغرب والجرد والمتن، فقام هذا الأخير بأسر أتباع المعنيّين وبضبط أرزاقهم، وغدر بأقربائه التنوخيّين أثناء مأدبة أقاموها له في سرايا الأمير منذر في عبيه، فقتل الأمراء وردم البرج على صغارهم ولم يترك منهم ذكرًا يخلفهم، وشدّد على رؤساء القرى ليخبروا عن أرزاق آل معن والخازن، فازداد الاضطراب وكثرت الفتن حتّى عجز ابن علم الدين عن تأدية المال السلطانيّ، ممّا أثار نقمة العثمانيّين عليه، فتوجّه لقتاله آغا الانكشاريّة ومعه متولّي صفد وبيروت وطرابلس، فانهزم بعياله ورحل معه يمنيّة بلاد الغرب والجرد والمتن والشحّار والشويفات بعيالهم ومواشيهم، وكانوا نحو سبعة آلاف، فدخلوا بلاد كسروان وانهزم من أمامهم القيسيّة، وكسروهم في مرحاتا في ضهور الشوير"[2].

وهكذا، فإنّ الفتنة القيسيّة اليمنيّة التي كان فخر الدين قد أخمدها، عادت لتذرّ قرنها من جديد، على يد عليّ علم الدين، وعاد الموحّدون الدروز يدفعون من دمائهم غاليًا ثمنًا لعصبيّتها وما أفرزته من حقد.

إثر هذه الأحداث "قدم الأمير ملحم المعنيّ (ابن الأمير يونس) من وادي التيم سنة ١٦٣٥ وجمع القيسيّين. وقاتل اليمنيّين قرب عينداره، فانتصر عليهم رغم مساعدة جيش الدولة لهم، وقُتل من الفريقَين زهاء أربعمائة قتيل، من بينهم مدبّر الكجك أحمد، واستولى على العاصمة دير القمر، وحالفه الأمير عسّاف فارسلا رجالهما فطردوا

---

١ ـ الأمراء آل علم الدين الموحّدون الدروز ينتسبون إلى الأمير علم الدين سليمان بن غلاب بن علم الدين بن معن بن متعب بن أبي المكارم بن عبد الله بن هرماس بن طريف بن طارق بن عبد الله بن إبراهيم بن محمّد بن عليّ بن أحمد بن عيسى بن جمهر بن تنّوخ مسلسلاً إلى ابن ماء السماء اللّخمي، فعلم الدين بن سليمن تبرّأ من آل تنوخ وصار أميرًا على اليمنيّة. عن الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٢٩.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٤٤ ـ ٤٥.

الأميرَين عليّ علم الدين وعليّ بن سيفا حتّى أوصلوهما جبال الكليبة، واحتلّ القيسيّون بيروت وصور وعكا، فانهزم الأمير عليّ علم الدين إلى دمشق، وعاد منها بخمسماية جنديّ، فهاجمهم في أسفل قبّ الياس سعيد عماد بأربعمائة رجل من العرقوب، فأخلت لهم العساكر الخيام حتّى توسّطوها، وأطبقوا عليهم فلم يسلم منهم (من أهل العرقوب) إلاّ القليل، فاختفى الأمير ملحم في الشوف مدّة عجز خلالها ابن علم الدين عن إيجاد السكينة في البلاد، فاضطرّت الدولة للاعتراف بالأمير ملحم المعنيّ (القيسيّ) على لبنان، مستثنية البقاع ومرجعيون. وأخذت تغذّي الفتن بين القيسيّة واليمنيّة، فنشبت بينهم معارك عمّت أضرارها البلاد"[1].

هذا الأمير، توفّي سنة ١٦٦٨ بعد أن اتّسع حكمه إلى بلاد البترون شمالاً، وصفد جنوبًا، وقويت به شوكة القيسيّين. وبعد وفاته، "حكم ولداه قرقماز وأحمد، إلى أن تولّى الشام أحمد باشا عام ١٦٦٩، فكاتب ولاة القدس وغزّة وطرابلس وابن طربيه لحرب بني قيس، وقدم إليه بنو علم الدين والحزب اليمنيّ، فلمّا وصلت عساكره إلى سعسع عرض عليه الشهابيّون (وهم من القيسيّين) المصالحة مقابل مبلغ من المال فرفض، فهربوا إلى جهات كسروان، واحتلّت العساكر حاصبيّا وراشيّا، وهدمت سرايات آل شهاب ومنازل (جماعات) حزبهم، وأمر أحمد باشا بقطع خمسين ألف شجرة من توتهم في مرجعيون والبقاع، وأعطى حكم وادي التيم للأميرَين محمّد ومحمود (اليمنيّين) ولدَي علم الدين المتوفّى (الذي وردَ ذكره سابقًا) وللمقدَّم زين الدين.

"وكان المعنيّون قد انتقلوا من بعقلين إلى عين زحلتا بسبعة آلاف مقاتل، فطلب الوالي منهم خمسمائة كيس، فرفضوا أن يدفعوا غير مائتَي كيس خلال أربعة أشهر،

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٤٦.

وأرسلوا رهنًا للدفع: الأمير قاسم أرسلان والمقدّم شرف الدين اللمعيّ، وعند إهمال الدفع جرّد عليهم الجيوش، فانتقلوا إلى بلاد جبيل، فولّى الشيخ سرحال عماد (اليمنيّ) حكم جبل الشوف وجمع نفقة العسكر، وولّى ولدَي الأمير عليّ علم الدين (اليمنيّين): محمّد ومنصور، حكم المتن والجرد والغرب، وأمر والي طرابلس بتعقّب زعماء القيسيّة، فأحرق منازل آل أبي اللّمع والخازن وحمادة، وفرّ الشهابيّون إلى الجبل الأعلى، وعاد العسكر إلى دمشق دون أن يهتدي إلى مخبأ المعنيّين.

"ولمّا تولّى صيدا سنة ١٦٦٣ أرسل كتاب أمان للأميرَين المعنيَّين قرقماز وأحمد، وطلب منهما مقابلة وكيله في عين مزبود، فبعد قدومهما مطمئنَّين وشربهما للقهوة، هاجمهما كمين من السكمان، فقُتل قرقماز ونجا أحمد الذي أُصيب بضربة سيف سبَّبت له إعوجاجًا دائمًا لعنقه وأصابته بالعقم... فتولّى حكم البلاد الأمير محمّد عليّ علم الدين (اليمني) يساعده الشيخ أبو علوان من قيسيّة الباروك، والمقدّم زين الدين" إلاّ أنّ هذا الاجراء الذي أُتبع بإشراك القيسيّين في الحكم عن طريق تعيين أحد قيسيّة الباروك مساعدًا للأمير اليمني، لم يمنع من تجدّد القتال بين القيسيّة واليمنيّة، إذ حصلت "معركة الغلغول عند برج بيروت سنة ١٦٦٤، وانتصر فيها القيسيّون، وانهزم زعماء اليمنيّين إلى بلاد الشام؛ فتولّى الأمير أحمد المعنيّ حكم بلاد الشوف والمتن والجرد والغرب وكسروان، واستقدم الشهابيّين من الجبل الأعلى إلى وادي التيم، وزوّج ابنته للأمير موسى الشهابي"[١].

في عهد الأمير أحمد المعنيّ هذا، استشرت الفتن القيسيّة ـ اليمنيّة، وزادت عليها فتن أخرى، درزيّة ـ شيعيّة.

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٤٧.

فبالرغم من أنّ الأمير أحمد ومشايخ البلاد وآل شهاب في دير القمر قد جمعوا الحماديّين الشيعة الذين لجأوا إلى الشوف عام ١٦٧٥ هربًا من زحف ولاة دمشق الذين جرّدوا حملة عليهم بسبب عدم دفع مشايخ الشيعة: الحماديّين، المطلوب للدولة، بيدَ أنّ المعنيّ قد أنقذ الوضع بدفع المطلوب من الحماديّين إلى الدولة من مال إمارته. ولم يمضِ وقت طويل حتّى فاجأ الحماديّون بمؤازرة الحرافشة قرية نيحا، وقتلوا فيها أميرًا شهابيًّا وخمسين رجلاً من شيوخ وادي التيم، فجرّد الشهابيّون الموحّدين الدروز للأخذ بالثأر، إلاّ أنّ الأمير أحمد المعنيّ آثر الصلح "مقابل خمسة آلاف قرش وفرسَين أصيلَين يدفعهم آل حرفوش الشيعة جزية كلّ سنة. ولمّا امتنعوا عن الدفع بعد سنوات هاجم ابن معن مقاطعات آل حمادة وأحرق بعض الأماكن وقطع ما يملكون من شجر". بيدَ أنّ هذا لم يمنع من اتّفاق أبناء سرحان حمادة والأمير المعنيّ سنة ١٦٩٤ على رفض تأدية مال الدولة، التي "وجّهت عليهم جيشًا نزع حكمهم وشتّتهم في الجبال، فمات من أزلامهم مائة وخمسون شخصًا بين الثلوج. ثمّ أرسل والي طرابلس إلى الأمير أحمد المعنيّ يعرض عليه حكم بلاد حمادة (الشيعة) مقابل مال معلوم، فرفض ابن معن قبولها، فجرّدت عليه الدولة ثلاثة عشر ألف جندي لأنّه ساعد آل حمادة برجال من الشوف، فتخلّى عنه القيسيّة والنكديّة[١] والعيديّة وبعض اليزبكيّة والخوازنة[٢]. فاضطرّ الأمير أحمد للاختفاء عند انسبائه الشهابيّين في وادي التيم[٣]، وبذلك تولّى

---

١ ـ المشايخ النكديّون الموحّدون الدروز: ينتسبون إلى قبيلة من عرب الحجاز، توجّهوا مع عرب آخرين لفتوح مصر وبلاد المغرب، فأقاموا في مملكة مراكش فسمّوا هناك ببني نكد، ولمّا قدم الأمير معن الأيّوبي إلى الشوف سنة ١١٢٠ حضروا إليه وصاروا عنده من جملة أعوانه حتّى انقطعت ذريّة آل معن، فتقرّبوا من الشهابيّين. راجع الشّدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٨٥ ـ ١٩٤.

٢ ـ آل الخازن: أسرة مشايخ إقطاعيّة مسيحيّة مارونيّة.

٣ ـ بعضهم يقول بأنّ هذه الحادثة جرت عام ١٦٨٥ وانّ الأمير علم الدين المعني توجّه يومها بمائتَي فارس وعيالهم إلى جبل حوران للسكن فيه، وكان هذا بدء نشوء المجتمع الموحّد الدرزي في جبل حوران كما سيأتي لاحقًا.

المقاطعات السبع (التي كانت بحوزة المعني) الأمير موسى علم الدين فرفض الشعب ولايته، واضطرّت أسرته للنزوح إلى سورية، فكتب والي صيدا إلى اسطنبول يقول: - لا يمكن أن يحكم بلاد الدروز سوى بيت معن - وأظهر استعداد الأمير أحمد المعني لذلك، فصدر مرسوم بولايته سنة ١٦٩٤ مقابل مائتَي كيس دفعها للسلطان فساس البلاد ثلاث سنوات، توفّي بعدها عام ١٦٩٧ وانقرضت بموته الأسرة المعنيّة"[١].

إنتقال الإمارة إلى الشهابيِّين واندحَار اليمنيِّين نهائيًّا

يقول المؤرّخ المحقّق الدكتور كمال الصليبي إن "الشهابيّين، يدينون بالسنّة، غير أنّ الإمارة التي انتهت إليهم خضعت في الأكثر، للاقطاعيّة الدرزيّة"[٢].

وفي تاريخ الأعيان، أنّ "هؤلاء الأمراء، ينتسبون إلى الأمير مالك الملقّب بشهاب ابن الأمير الحارث بن هشام المخزومي القرشي الحجازي"[٣].

وتذكر المدوّنات أنّه بعد وفاة الأمير أحمد المعنيّ، اجتمع أمراء الموحّدين الدروز ومشايخهم في سهل السمقانيّة لاختيار أسرة تتولّى الحكم بعد المعنيّين، فحالت الحزبيّة المستحكمة بين الأسر اللبنانيّة دون اتّفاقهم على تولية أحد منهم، ولمّا استعصى الحلّ وافقوا على استقدام أحد الشهابيّين من وادي التيم وتوليته الحكم مكان أنسبائه المعنيّين، فانتخبوا ابن أخت أحمد المعنيّ: الأمير حيدر الشهابي صاحب حاصبيا. ولصغر سنّه

---

١ - الصغير، بنو معروف، ص٤٨.

٢ - الصليبي د. كمال سليمان، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٦٧) ص٣٢.

٣ - لمعرفة نسب الأسرة الشهابيّة وأصولها وفروعها، راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٣٥ وما يليها.

اختاروا وصيًّا للحكم الأمير بشير الشهابيّ ابن أخت الأمير المعنيّ، فحكم في دير القمر، وأطاعه الناس لعدله وكرمه، فازدادت فعاليّة الأسر الكبيرة في توجيه سياسة البلاد كآل أبي اللمع*، وآل نكد*، وآل عماد*، وآل تلحوق[١]، وآل عبد الملك[٢]، وآل العيد[٣]...

في عهد بشير شهاب الأول (١٦٩٧ ـ ١٧٠٧) عمّ البلاد هدوء نسبيّ، عكّرته بعض الحوادث الحربيّة، منها أنّ الأمير الشهابي قد نازل الشيعة اليمنيّين في العام الثاني لحكمه (١٦٩٩) فانتصر عليهم واعتقل كبيرهم مشرف بن عليّ الصغير، واستولى على ما يملكونه مَن بلاد صفد إلى جسر المعاملتين وبلاد بشاره، وأسند حكمها إلى الشيخ محمود أبي هرموش[٤]، ونصّب ظاهر عمر الزيداني عاملاً على صفد، فحصّن عكا، ووقعت بينه وبين والي دمشق معارك قتل فيها شقيقه، وما لبثت بلاد صفد أن تعرّضت للتدمير بعد أقلّ من خمس سنوات.

---

١ ـ المشايخ التلحوقيّون الموحّدون الدروز: ينتسبون إلى قبيلة بني عزّام من عرب الجزيرة الفراتيّة، أتوا مع الأمير معن الأيّوبي إلى الشام، فاستدعاهم الأمير عامر الشهابيّ إليه إلى حوران وأقاموا هناك، ثمّ انتقلوا إلى وادي التيم. راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٩٤ ـ ١٩٩.

٢ ـ المشايخ آل عبد الملك الموحّدون الدروز: ينتسبون إلى بلاد الحجاز، قدموا مع الأمراء التنّوخيّين وتوطّنوا في الكنَيْسة في مقاطعة المناصف (جبل لبنان) ثمّ انتقلوا إلى عاليه، ثمّ إلى بتاتر وأقاموا فيها. راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٩٩ ـ ٢٠١.

٣ ـ آل العيد المشايخ الموحّدون الدروز: أسرة تنوخيّة الأصل من بني أبي الفوارس، جاؤوا إلى لبنان من الجبل الأعلى وقيل من جبل السماق بناحية حلب وأقاموا في وادي التيم، وعلى أثر دعوة التوحيد انتقلوا إلى ناحية الشوف وسكنوا قرية البصيّل الواقعة أمام المقيرط في قاطع نهر الصفا، وكان لهم قصر فيها، جرت حرب بين سكّان كلّ من القريتَين فرحل مَن بقي مِن بني العيد إلى عين زحلتا سنة ١٦٣٣ وسكن بعضهم بعقلين وبعضهم الآخر الفريديس حيث حملوا كنية دمج. راجع: أبو سعد أحمد، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، دار العلم للملايين، ط٢ (بيروت،١٩٩٧) ص٦٥٢.

٤ ـ آل أبو هرموش: أسرة مشايخ موحّدة درزيّة، نسبها البعض إلى عرب العقيدات (كحّالة عمر رضا، معجم قبائل العرب (بيروت ١٩٦٨) ٣: ١٢١٦)، وبعض آخر إلى العشيرة الشويزانيّة (الباشا محمّد خليل، معجم أعلام الدروز، الدار التقدميّة (١٩٩٠)، قدم جدودها من سوريا أوائل القرن التاسع ونزلوا مع سائر القبائل في منطقة ضهر البيدر، ثمّ تقدّموا إلى نواحي نبع الصفا حيث بنوا قرية عين زحلتا، وسكن بعضهم الفريديس والكنيسة والسمقانيّة، ومن السمقانيّة تفرّعت أسرة أبي هرموش إلى كفرمتّى.

وعندما توفّي بشير شهاب الأوّل مسمومًا في العام ١٧٠٧، تولّى مكانه الأمير حيدر شهاب، وقيل إنّ حيدرًا هو الذي سمّم لبشير بالحلوى. وإذ نقض الشيعة حكم الشهابيّين، غزاهم الأمير أحمد شهاب بالمقاتلين الموحّدين الدروز وتغلّب عليهم في النبطيّة "فعظُم ذلك على والي صيدا بشير باشا، وأرسل يقوّي أمراء بني علم الدين وغيرهم من الحزب اليمنيّ في الغرب والجرد، فقوي بأسهم في بلاد الشوف، وقد حالفهم حاكم الشويفات الأرسلانيّ الأمير يوسف، وسرعان ما انتخب الموحّدون الدروز اليمنيّون الأمير يوسف أرسلان أميرًا عليهم في العام ١٧١٠، وكان الشهابيّ لا يزال أميرًا. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنّ والي صيدا، الذي استمال الشيخ محمودًا أبا هرموش[1]، وهو قيسيّ من نيحا، أطلق على هذا الأخير لقب باشا، ومنحه رتبة أمير الأمراء، ومدّه بجنود كثيرة حتّى قوي أمره واتّفق مع الوالي على تولية الأمير يوسف علم الدين (القيسيّ) إمارة لبنان مكان الأمير الأرسلانيّ، فاعتزل الأمير الأرسلانيّ إذ ذاك الحكم، وامتنع هو وعشيرته عن الاشتراك في المعارك القيسيّة - اليمنيّة بعد ذلك التاريخ. أمّا الأمير حيدر، فقد هجر إمارته، وقصد إلى كسروان، وصحبه فريق من القيسيّين، من آل نكد*، والقاضي[2]، وعبد الملك*، وتلحوق*، ونزلوا عند المشايخ الحبيشيّين الموارنة في غزير، وأرسل عياله إلى

---

١ - راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ١٨ - ٢١.

٢ - آل القاضي: أسرة مشايخ موحّدة درزيّة عريقة تنتسب إلى جدّها الأوّل القاضي عماد الدين حسن المعني التنوخيّ الملقّب بأبي اليقظان المتوفّى سنة ١٣٦٧م، وقد اختصّت هذه الأسرة بتولّي القضاء في عهود التنوخيّين والمعنيّين والشهابيّين، وكان موطنها الأوّل رمطون، ومنها انتقلت إلى عين دارة فكفرمتّى وبيصور ودير القمر، ومن هؤلاء قاضيو دميت والسمقانيّة وغابة جعفر، ومنهم فرع سكن عيناب من ذريّتهم الشيخ أحمد بن زين الدين صالح العينابي الذي له حجرة في عيناب تحمل تاريخ سنة ١٢٤٤هـ/ ١٧٢١م، وقد تفرّعت أسرة القاضي إلى ثلاث فروع: آل ناصر الدين في كفرمتّى، وآل القاضي في بيصور ودير القمر والسمقانيّة، وآل أمين الدين في عبيه.

مقاطعة الفتوح، وبينها ولداه ملحم وأجمد. وبقي له من محازبيه في إمارته اللمعيّون وسواهم من القيسيّين.

ولمّا وصل محمود باشا أبو هرموش إلى دير القمر، استدعى الأمراء آل علم الدين من جهة دمشق، ووجّه قوّة نحو غزير لمداهمة الأمير الشهابيّ، فقاتل بنو حبيش مع الأمير قتالاً شديدًا طيلة نهار بكامله، تقهقر على أثره عسكر محمود باشا إلى البحر. وفرّ الأمير حيدر وصحبه إلى جهات الهرمل، واختبأ في مغارة فاطمة المسمّاة "مغارة عزرائيل" في سفح جبل الهرمل، ونزح أهالي غزير إلى أنحاء طرابلس.

وإذ خلت غزير من الرجال القيسيّين، دخلها العسكر اليمنيّ سَحرًا وأحرقها وهدّمها بعدما نهبها، فقيل: "في تاريخها ندمت غزير".

بقي حيدر مختبئًا في المغارة لمدّة تقارب السنة، كان محمود باشا الهرموش بخلالها يتمادى في ظلمه، وبخاصة ضدّ القيسسيّين. وقد راح القيسيّون يعملون لإعادة حيدر إلى الإمارة، فكانت ردّة فعل الهرموشيّ أنّ قرّب جماعة الحزب اليمنيّ منه، بزواجه بابنة أحد أمراء بني علم الدين الموحّدين الدروز اليمنيّين، ممّا زاد في الثقل على القيسيّين، فراحوا يطالبون الأمير حيدر الشهابيّ بالحضور من أجل مواجهة الموقف، إلى أن كان العام ١٧١١، وهو العام الحاسم في الصراع القيسيّ اليمنيّ في لبنان.

خرج الأمير الشهابيّ من المخبأ في الهرمل، قاصدًا المتن، حيث نزل عند المقدّم حسين اللمعيّ في رأس المتن، وهو أحد محازبيه القيسيّين، ومن هناك استدعى قادة القيسيّين في البلاد، فقدم إليه اللمعيّون والعَماديّون والخوازنة، بالإضافة إلى عامّة قادة الحزب القيسيّ في البلاد.

في المقابل، لمّا بلغ الخبر محمود باشا أبا هرموش خشي الأمر، وأرسل إلى دمشق يستدعي الأمراء اليمنيّين الفارّين من البلاد، ويستنفرهم لمحاربة القيسيّين. فحضر هؤلاء من الغوطة، ومعهم تسعماية من رجالهم. وما إن وصلوا إلى دير القمر حتّى اجتمع إليهم اليمنيّون من الغرب والمتن والجرد. ثمّ كتب محمود باشا إلى مولاه بشير باشا والي صيدا، وإلى نصّوح باشا والي دمشق، يستنجدهما، فنهض بشير باشا بعسكره إلى حرج بيروت، ونصّوح باشا بعسكره إلى قبّ الياس، وباتت البلاد في حالة استنفار قصوى.

خطّط للمعركة وأدارها من الجهة اليمنيّة محمود باشا أبو هرموش، فطلب إلى بشير باشا أن يزحف بعسكره إلى بيت مري، ومن نصّوح باشا أن يرابط في المغيتة فوق حمّانا، ونهض برجاله إلى عين دارة عازمًا على أن يزحف من المحاور الثلاثة المذكورة في توقيت واحد على رأس المتن، لإنهاء الأمير حيدر وعامّة القيسيّين.

في هذه الأثناء، تجمّع القيسيّون جميعًا في رأس المتن. وعندما بلغت أنباء تحرّكات اليمنيّين بقيادة أبي الهرموش الأميرَ حيدر الشهابي، جرت مناقشات بين قادة القيسيّين، تقرّر بنتيجتها الزحف ليلاً إلى عين دارة، لاستفراد محمود باشا أبي هرموش هناك والقضاء عليه.

ويصف الشدياق هذه المعركة التي قرّرت مصير الحزبيّة اليمنيّة ـ القيسيّة على الشكل التالي:

"نهض الأمير (حيدر الشهابيّ) بهم وقسّم ثلاثة أقسام، فدهموا عين دارة سدفة[1]، فدخل إليها أوّلاً المقدّم عبد الله والمقدّم حسين عنوة. وثارت الحرب وأخذوا بالطعن

---

١ ـ السدفة: سوداء الليل.

والضرب ودخل عسكر الأمير القرية عنوة. وثبت الرجال القيسيّة... فتحطّمت اليمنيّة وسط ساعة مهولة، وهلك من الفريقَين خلق كثير. وأمّا المقدّم حسين اللمعيّ فقتل ابن الصوّاف صاحب المتن اليمنيّ. وعند الظهيرة انتصرت القيسيّة وسدّت المسالك في وجوه اليمنيّة فلم ينجُ منهم إلاّ القليل. فقتل من الأمراء آل علم الدين ثلاثة ، وأسر أربعة، وقبض على محمود باشا. أمّا الوزيران، فلمّا بلغهما ما حلّ باليمنيّة في عين دارا، فرّا بعساكرهما راجعين إلى صيدا ودمشق. وبعد انفضاض القتال دخل على المقدّم حسين (أبي اللّمع) رجل لقّبه بالمقدّم على عادته، فغضب قائلاً: أقتل ثلاثة أمراء ويُقال لي مقدّم بعد؟ وقام إليه بالسيف وقتله، يريد أن يلقّب بالأمير. ثمّ توجّه الأمير (الشهابيّ) إلى الباروك ومعه الأمراء الأربعة المأسورون، فأمر بقطع رؤوسهم، وهم: الأمير يوسف، والأمير عليّ، والأمير منصور، والأمير أحمد (علم الدين). وانقطعت بهم سلالة آل علم الدين. ثمّ أمر بقطع رأس لسان محمود باشا وإبهاميه، ولم يقتله احترامًا للدولة وحفظًا لعادة البلاد. ثم نهض الأمير (حيدر الشهابيّ) من الباروك إلى دير القمر ظافرًا وجلس واليًا. فأمر المقدّمين اللمعيّين وأباح الزواج بينه وبينهم. فتزوّج بنت الأمير حسين (اللمعيّ) وزوّج ابنته من الأمير عسّاف ابنه، وأقطعه قاطع بيت شباب وبكفيّا. ثمّ تزوّج من أمّ الأمير مراد (اللمعيّ) وأقطعه نصف المتن وبسكنتا، فولد له منها الأمير عمر جدّ الأمير بشير (الشهابيّ الثاني) الكبير. وزوّج أخته من الأمير عبد الله (اللمعيّ) وأحبّه حبًّا عظيمًا لما شاهده من فتكه يوم عين دارا. ثمّ أقطع قبلان القاضي إقليم جزين، وأقطع علي النّكديّ الناعمة وما يليها، واستخلص من الأمير يوسف أرسلان مقاطعة الغرب الأعلى لأنّه كان يميل إلى اليمنيّة، وأقطعها محمّد تلحوق وأخاه بشيرًا وشيّخهما وأقامهما جندًا للأمير يوسف (أرسلان) المذكور. وأقطع الشيخ جنبلاط عبد الملك مقاطعة الجرد وشيّخه ليجعل أهلها اليمنيّين قيسيّين.

ورفع مراتب هؤلاء المشايخ بكتابته لهم الأخ العزيز. وخصّ لذاته خمس قرى، وهي بعقلين ونيحا وعين ماطور وبتلون وعين دارا. فاستقلّ له الأمر (للأمير حيد شهاب) وارتفع شأنه فأطاعه الجميع. فأجرى الأحكام العادلة في رعيته"[1]...

ويقول أحد مؤرّخي الموحّدين الدروز المحقّقين إنّه بنتيجة هذه المعركة "قويت شوكة القيسيّين وعَظُم أمرهم ونزح من البلاد كثير من اليمنيّين وخرّبت ديارهم وزال ذكرهم من الشوف... وتمادت القيسيّة على اليمنيّة في كلّ مكان قتلاً وعدوانًا، فاضطرّ الكثيرون من الحزب اليمنيّ للنزوح إلى جبل حوران... غير أنّ هذه المعركة التي لاشت الحزب اليمنيّ، كانت سببًا لإضعاف الدروز عامّة"[2]...

ويشرح مؤرّخ محقّق معاصر بنية مجتمع الموحّدين الدروز في لبنان بعد معركة عين دارة فيقول: إن "الأسرة الشهابيّة انتصبت على رأس الأسر اللبنانيّة الإقطاعيّة، وسمح التقليد لأبنائها بلقب الإمارة، تشاركهما في ذلك (اللقب) أسرتان أخريان هما آل أبي اللمع وآل أرسلان... وتلا الشهابيّين في الوجاهة آل أبي اللَّمع الموحّدون الدروز، الذين كانوا في الأصل مقدّمي المتن... وجاء في المقام الثالث آل أرسلان، أسياد الغرب، الذين كانوا في البدء أمراء الغرب الأسفل، وآل بحتر أمراء الغرب الأعلى ومنطقة الشحّار، وقاعدتها أعبيه، وعندما قضى آل علم الدين على آل بحتر في ١٦٣٣، استولى الأرسلانيّون على إقطاعهم وأصبحوا أصحاب جميع مناطق الغرب، ونجا الأرسلانيّون من النكبة التي حلّت بالفريق اليمنيّ في ١٧١١، لاعتدال موقفهم، فاحتفظوا بإقطاعهم الأصليّ في الغرب الأسفل، لكنّهم فقدوا منطقتَي الغرب الأعلى والشحّار، ومع أنّهم حافظوا على لقب الإمارة، إلاّ أنّ أسرتهم بقيت ضعيفة الشأن طيلة

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٢١ ـ ٢٢.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٥١ ـ ٥٢.

العهد الشهابيّ، ولم يرجع لهم مركز الصدارة بين الأسر الإقطاعيّة الموحّدة الدرزيّة حتّى انقضى العهد الشهابيّ في ١٨٤١. وحين فاز اللمعيّون بلقب الإمارة في ١٧١١، لم يبقَ في لبنان إلاّ أسرة واحدة من المقدّمين الموحّدين الدروز، هي أسرة آل مزهر [١]، التي كانت تلحق، في المكانة الإسميّة، بأسرة آل أرسلان. إلاّ أنّ نفوذها الفعليّ اقتصر على حقّ الإقطاع في قرية واحدة، هي حمّانا في المتن. أمّا أسر المشايخ، فكانت أكثر عددًا، وأبعد نفوذًا، منها: آل جنبلاط، وآل عماد، وآل أبي نكد، وهي الأسر القديمة، وقد أضاف إليها الأمير حيدر أسرتَين هما آل تلحوق وآل عبد الملك، وقد كوّنت هذه الأسر الخمس من الطائفة الموحّدة الدرزيّة طبقة "المشايخ الكبار"، تربط في ما بينها أواصر الزواج، وتقابلها، عند الموارنة، أسرتان قديمتان من المشايخ هما: آل الخازن وآل حبيش، ثمّ أُضيفت إليهما في ما بعد أسرة آل الدحداح. وإذ منحت كلّ من هذه الأسر الثماني حقّ الإقطاع في منطقة واحدة على الأقلّ، فقد عُرفت عند الجميع بأسر المقاطعجيّة. فكان لآل جنبلاط معظم الشوف، فيما بقيت المناصف (حول دير القمر) لآل أبي نكد، والعرقوب لآل عماد، وفي الغرب، كانت منطقة الشحّار لآل أبي نكد، والغرب الأعلى لآل تلحوق، أمّا الجرد، وهو أصغر المناطق الموحّدة الدرزيّة (في لبنان) فكان من نصيب آل عبد الملك... وكان آل جنبلاط أرفع "المشايخ الكبار" مقامًا بين الموحّدين الدروز، وكانت لهم في الشوف زعامة قديمة يرجع عهدها إلى أيّام جد الشيخ جنبلاط الذي عاصر الأمير فخر الدين وعصى عليه. وكان للشيخ جنبلاط في الشوف خصم سياسيّ هو الشيخ يزبك بن عبد العفيف (عماد)، الذي ناصر الأمير فخر

---

١ - آل مزهر: أسرة مقدّمين موحّدة درزيّة في حمّانا، تتحدّر من بني فوارس التّنوخيّين، وهي من العشائر التي قدمت إلى لبنان بأمر الخليفة العبّاسيّ حوالى سنة ٧٥٩، وكان على رأس هذه العشيرة المقدّم مزهر، وهو ابن الأمير فوارس ابن عبد الملك ابن مالك أو أحد أحفاده، نزل بنو مزهر في كفرسلوان، ثمّ انتقلوا إلى حمّانا.

الدين ضدّه. فانقسم الموحّدون الدروز في الشوف آنذاك بين الفريق الجنبلاطيّ والفريق اليزبكيّ... وحين تولّى الأمير حيدر شهاب تدعيم النظام الإقطاعيّ اللبنانيّ، اعترف بآل جنبلاط مشايخ على الشوف. لكنّهم استطاعوا في ما بعد أن يوسّعوا نطاق نفوذهم، فشمل جزّين وما جاورها من المناطق، كإقليم التفّاح وجبل الريحان، حتّى نافسوا الشهابيّين بالثروة والجاه. وأثار نجاحهم حسد المشيخات الموحّدة الدرزيّة الأخرى، خصوصًا آل عماد، ممّن اعتبروا أنفسهم أندادًا لهم. وإذ كانوا عاجزين وحدهم عن الوقوف في وجههم، تزعّموا حلفًا من المشايخ نادى بتأييد الفريق اليزبكيّ. وهكذا، فما كادت الخصومة القيسيّة ـ اليمنيّة أن تزول من الوجود، حتّى بدأ الموحّدون الدروز ينقسمون في ما بينهم على نحو جديد. فناصر بعضهم الفريق الجنبلاطيّ، وبعضهم الآخر الفريق اليزبكيّ[1].

النِّزَاعُ اليَزبَكيُّ - الجنبْلاَطِي وَنُشُوءُ جَبَل الدُّرُوز فِي حُورَان

حدّة الاقتتال اليمنيّ ـ القيسيّ الذي انتهى بسيطرة القيسيّين نتيجة لمعركة عين دارة التي وقعت في ١٨ محرّم سنة ١١٢٢هـ / ١٧١١م، أدّت إلى نزوح عدد كبير من الأسر الموحّدة الدرزيّة إلى جبال حوران، وكان أكثرهم من اليمنيّين المغلوبين على أمرهم، حيث نشأ هناك مجتمع موحّد درزيّ يكاد يوازي اليوم عددًا وأهميّة مجتمع الموحّدين الدروز في لبنان.

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص٣٨ ـ ٣٩.

وقبل أن نعرض لهذا الموضوع، سنحاول أن نلقي نظرة على تطوّر أوضاع مجتمع الموحّدين الدروز في لبنان بعد معركة عين دارة، ونشوء النزاع اليزبكيّ ـ الجنبلاطيّ.

يقول الشدياق، إنّه "في العام ١٧٨٨ توفّي الشيخ عبد السلام العماد وله ولد يسمّى قاسمًا،... وكان عاقلاً فصيحًا جدًّا حتّى ضُرِب المثل بفصاحته. وصارت مناظرة بينه وبين الشيخ علي جانبلاط[١]، أدّت إلى المشاحنة، فانقسمت طائفة الدروز إلى قسمَين: جانبلاطيّ ويزبكيّ. غير أنّ المشايخ النكديّين ورجالهم لم يدخلوا في هذا الانقسام. وعمّ هذا الانقسام الأمراء الشهابيّين واللمعيّين والنصارى اللبنانيّين، وصار اسم يزبكيّ علَمًا جنسيًّا لبني عماد وبني تلحوق وبني عبد الملك ومَن والاهم. وكان زعيم اليزبكيّة بنو عماد، وزعيم الجانبلاطيّة بنو جانبلاط"[٢].

إلاّ أنّ المؤرّخ الموحّد الدرزيّ المحقّق سعيد الصغير، يذكر أنّه "بعد وفاة الأمير حيدر (الشهابي سنة ١٧٣٢) تولّى ولده الأمير ملحم الإمارة... والسيطرة للقيسيّة. فخشي على نفوذه من اتّحاد كلمة البلاد، وطفق يغذّي الخلاف بين مشايخ الدروز، فأخذ مشايعو الحزب اليمنيّ والناقمون على الحزب القيسيّ الحاكم يتكتّلون باسم الحزب اليزبكيّ نسبة إلى الشيخ يزبك عماد، بينما ترأس الحزب القيسيّ الشيخ عليّ جنبلاط، وأصبحت كنيته إسمًا للحزب، ودخل الأمراء الشهابيّون تحت هذا الانقسام، فكان بعضهم يميل للفريق الجنبلاطيّ والبعض الآخر يميل للفريق اليزبكي"[٣]. هذه

---

١ ـ يلاحظ تحريف اسم جان بولاد، إلى جانبولاد، إلى جانبلاط، إلى جنبلاط. وجميع هذه الأسماء لأسرة واحدة كما ورد قبلاً.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٧٧.

٣ ـ الصغير، بنو معروف، ص ٥٢، بالاستناد إلى: الشهابي الأمير حيدر، الغرر الحسان، ٢: ٥٠.

الرواية، تتطابق مع ما استخلصه الصليبي إذ ذكر، كما مرّ سابقًا، انّ أصل العداء يعود إلى خصومة الشيخ جنبلاط، مع الشيخ يزبك العماد[1].

وأفاد تحقيق الصليبي أنّه "ما أن بلغ القرن الثامن عشر منتصفه حتّى ارتبط الانقسام الجنبلاطيّ اليزبكيّ بين الموحّدين الدروز بالنزاع بين الشهابيّين على الإمارة. ففي ١٧٥٤، حين اعتزل الأمير ملحم الإمارة التي تسلّمها من أبيه حيدر سنة ١٧٣٢، وسلّمها لأخيه منصور، شعر أخوه الآخر، أحمد، بمرارة الخيبة. وكان منصور ينعم بتأييد أل جنبلاط، أصحاب الكلمة المسموعة بين الموحّدين الدروز وحلفاء آل الخازن الأقوياء بين الموارنة. أمّا أحمد، فلم يجد من مؤيّديه إلاّ المشايخ الناقمين على نفوذ آل جنبلاط، وآل الخازن، كآل عماد وتلحوق وعبد الملك من الموحّدين الدروز، وآل حبيش والدحداح من الموارنة، ممّن عُرفوا بالحزب اليزبكيّ. وبعد وفاة الأمير ملحم في ١٧٦١، نازع أحمد أخاه منصورًا الإمارة، فأصبح الانقسام اليزبكيّ ـ الجنبلاطيّ بين المشايخ على أتمّه، لولا آل أبي نكد، الذين لم ينصروا فريقًا على آخر إلاّ في القضايا الحاسمة، وأبى آل أبي اللمع، وهم من الأمراء، الانغماس في شؤون المشايخ، فتزعّموا غرضًا خاصًّا بهم. وهكذا فعل أمراء آل أرسلان. أمّا الشهابيّون الحاكمون فوقفوا، مبدئيًا، فوق الاحزاب. لكنّهم، في واقع الأمر، شُغلوا دائمًا بالنزاع اليزبكيّ ـ الجنبلاطيّ واستغلّوه لمنفعتهم... وهكذا، فما كاد القرن الثامن عشر يدنو من نهايته، حتّى شمل النزاع اليزبكيّ ـ الجنبلاطيّ، وقد نشأ بين الموحّدين الدروز، الإمارة اللبنانيّة كلّها. ولم تكن قدرة الموحّدين الدروز، حتّى ذلك الحين، على فرض انقساماتهم على سائر اللبنانيّين، إلاّ تعويضًا تافهًا لهم على ما

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٣٩.

فقدوه في غضون ذلك القرن من سطوة ونفوذ... وزاد النزاع اليزبكيّ الجنبلاطيّ في إضعاف الموحّدين الدروز"[1].

وكان الأمير ملحم شهاب الذي تنازل لأخويه الأميرَين أحمد ومنصور عن الإمارة في العام ١٧٥٤ قد انقطع إلى حياة تديّن وزهد وأقام في بيروت "وانعكف على درس الفقه ومعاشرة علماء الإسلام... وفيها تنصّر أولاد الأمير ملحم وتبعهم أكثر الأمراء الشهابيّين، ثمّ الأمراء اللمعيّون"[2].

إستمرّت الاضطرابات الأهليّة إلى أن بلغ الأمير يوسف الشهابيّ، إبن الأمير ملحم، سنّ الرشد، ويقال إنّه كان قد اعتنق المسيحيّة، غير أنّ ذلك ليس ثابتًا. وفي اجتماع قوميّ عامّ عقد عام ١٧٧٠ في الباروك، أعلن الأمير منصور، الذي كان قد تفرّد بالإمارة، عن عزمه على التنازل إلى ابن أخيه، الأمير يوسف، الذي أعلن حاكمًا على البلاد[3].

ويقول المحقّق الموحّد الدرزيّ سعيد الصغير إنّه بعد وفاة الأمير ملحم شهاب سنة ١٧٥٩، استلم شقيقاه منصور وأحمد الوصاية على ولده يوسف، فتنازعا على الانفراد بالولاية، فساعد الحزب اليزبكيّ الأمير أحمد، والحزب الجنبلاطيّ الأمير منصورًا، لأنّ "الشهابيّين رغم تنصّرهم لم يتخلّوا عن الشعار الدرزيّ في سعيهم لتحصيل الإمارة؛ فلمّا خشي يوسف من انتقام عمّه منصور، فرّ من دير القمر إلى المختارة، مع الشيخَين كليب وخطّار أبي نكدي (كذا) وكانا قد اتّفقا والشيخ عليّ جنبلاط على تولية

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٤٠.

٢ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٣١.

٣ ـ الشهابي، الغرر الحسان؛ الشدياق، أخبار الأعيان.

يوسف، المعتصم في بشامون، ووافقهم على ذلك شيخ العقل: الشيخ اسماعيل أبو حمزة، فعقد اجتماع في الباروك عام ١٧٧٠ حضره رؤساء البلاد، وانتخبوا الأمير يوسف أميرًا لجبل الدروز، فاضطرّ منصور للتنازل عن الولاية وسكن بيروت"[١].

صراعاتٌ سُلطَويَّة

عندما تسنّم الأمير يوسف الشهابيّ كرسيّ الإمارة اللبنانيّة، "كانت الحالة العامّة في الشرق الأدنى قد أخذت تتغيّر. فالضعف الذي مُنيت به السلطة المركزيّة في السلطنة العثمانيّة، والذي تزايد مع انصرام القرن الثامن عشر، سمح لعدد من المغامرين بالاستيلاء على الحكم في بعض الولايات، منها الولايات الشاميّة ومصر، ممّا أحرج الباب العالي حرجًا شديدًا. وفي الوقت ذاته، أثار هذا الضعف اهتمام أوروبّا في شؤون السلطنة، فاغتنمت روسيا في الأخصّ، هذه الفرصة، لتوسيع رقعة نفوذها نحو الجنوب. حتّى إنّها وجدت نفسها، في ١٧٦٨، في حرب مع السلطنة العثمانيّة للمرّة الثالثة في مدى قرن. وفيما كانت هذه الحرب قائمة، استطاع الروس تحويل انتباه العثمانيّين عن الجبهة في الشمال بإثارة الاضطراب في بلاد الشام، فكان أن أصبحت شؤون هذه البلاد، للمرّة الأولى، موضوع نزاع دوليّ خطير. وكانت منطقة الجليل، لا الإمارة اللبنانيّة، أوّل من تورّط من بلاد الشام في هذا النزاع. فقبل أواسط القرن، استطاع أحد الزعماء المحلّيّين هناك، ويدعى ضاهر العمر، أن يُقيم نفسه سيّدًا على المنطقة كلّها، ويحتلّ بلدة عكا في ١٧٥٠. ولم يتعرّض العثمانيّون له بشيء في بادئ

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٥٤.

الأمر، إذ كان سلوكه يوحي لهم بالثّقة. فما أن قويت شوكته، حتّى ضاقوا به ذرعًا. وعمل ولاة دمشق وصيدا وطرابلس على إثارة شكوك الدولة ضدّه. وسرعان ما أحسّ ضاهر بأنّه في خطر، فأخذ يحتاط لنفسه. وكانت روسيا آنئذ في حرب ضدّ العثمانيّين. فوجدت في الخلاف القائم بين ضاهر العمر وجيرانه الولاة فرصة للتدخّل. فأبحرت بعض البوارج الحربيّة الروسيّة إلى شرق البحر المتوسّط لتقوم بمناورات هدفها تشديد عزائم ضاهر ضدّ العثمانيّين. ورأى ضاهر الظرف مؤاتيًا، لانشغال الأتراك على الجبهة الشماليّة، فأعار العروض الروسيّة أذنًا صاغية، ووجد أنّ بينه وبين المملوك عليّ بك، صاحب مصر، ما يجعل هذا الأخير، يرحّب بفكرة القيام معه بعمل مشترك ضدّ والي دمشق. ذلك أنّ عليّ بك كان يطمح، بعد أن انتزع السلطة في مصر، في ١٧٦٣، ونادى باستقلاله عن الباب العالي، في ١٧٦٨، إلى فرض سلطانه أيضًا على بلاد الشام. وهكذا بدأ الهجوم، في ١٧٧٠، حين أرسل عليّ بك قائد عسكره، محمّدًا أبا الذهب، للزحف مع ضاهر على دمشق.

"وكان أن فرّ والي دمشق هاربًا، فاستسلمت المدينة بعد مقاومة قصيرة، وأصبح محمّد أبو الذهب إلى حين، الحاكم المطلق في بلاد الشام. ووجد العثمانيّون أن لا حيلة لهم لايقافه عند حدّ، فعرضوا عليه تعيينه واليًا على مصر إن هو انقلب على سيّده. وهكذا، تحالف أبو الذهب مع العثمانيّين، فترك ضاهر العمر وانسحب إلى بلاد الشام"[1].

إنّ ما يجب إدراكه قبل الاطّلاع على كيفيّة تعاطي الموحّدين الدروز مع هذا الواقع، هو أنّ ضاهر العمر، كان شيعيًّا، وأنّه كان يعمل على إنشاء كيان شيعيّ في

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٤٣ ـ ٤٤.

البلاد التي وضع يده عليها. وهكذا، "فعندما قدم جيش المصريّين من مصر عام ١٧٧١ بقيادة محمّد بك أبي الذهب ودخل عكا حليفًا للشيخ ضاهر العمر، حالف المتاولة[1] هذَين الجيشَين القويَّين، المستندَين إلى روسيا، وتطاولوا على أطراف جبل الشوف ومرجعيون والحولة، فجمع الأميران يوسف وخاله إسماعيل حاكم وادي التيم والشيخان علي جنبلاط وعبد السلام عماد جيشًا كبيرًا سار لقتال المتاولة (الشيعة) الذين كانوا قد اجتمعوا في جزّين، وتقاتل الجمعان تحت قلعة نيحا، فانتصر الدروز (الموحّدون) وتعقّبوا المتاولة (الشيعة) حتّى احتلّوا جزّين وناموا فيها، ثمّ تقدّموا في اليوم الثاني وتغلّبوا على المتاولة (الشيعة) وتعقّبوهم حتّى النبطيّة، عند ذلك وصل الشيخ ضاهر العمر ومعه خمسمائة فارس منجدًا المتاولة (الشيعة)، فاشتدّ أزر المتاولة (الشيعة) وحملوا على الدروز (الموحّدين) خاسرين، فركب الشيخ كليب نكد برجال الدروز (الموحّدين) من حاصبيّا ومجدل شمس وتلك الجهات، وهاجموا المتاولة (الشيعة) ومنعوهم من التغلغل في إقليم الخرّوب وتلك الأنحاء[2].

وكان والي دمشق، عثمان باشا، قد التجأ إلى لبنان عندما تغلّب المصريّون على والي الشام، وبعد تراجعهم إلى مصر "رجع وولده محمّد باشا ويوسف آغا جبري من جبل الدروز (لبنان) ومعه خمسة آلاف درزي"[3].

---

١ ـ يقصد المرجع بكلمة "المتاولة": الشيعة.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٥٤ ـ ٥٥، الذي يذكر، نقلاً عن الشدياق، أنّ سبب انكسار الموحّدين الدروز هنا، يعود إلى أنّ الأمير يوسف أذى بني منكر بإيعاز الشيخ عبد السلام عماد دون مراعاة صداقته للشيخ عليّ جنبلاط، فأوعز هذا لحزبه بالانسحاب من القتال؛ ويذكر نقلاً عن حيدر شهاب (الغرر) أنّ الشيخ عبد السلام عماد كان يميل للأمير منصور فانسحب من القتال ليدخل الأمير يوسف.

٣ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ٣٠٥.

ويستمرّ التأثير المباشر على الموحّدين الدروز في هذه الحقبة، مع احتلال المراكب الروسيّة لمدينة بيروت وتغريمها الأمير يوسف شهاب بسبعة آلاف وخمسمائة غرش، وإرسال والي دمشق قوّة لتحصين بيروت بقيادة أحمد الجزّار، وذلك بدسيسة الأمير يوسف، ليقضي على نفوذ عمّه منصور، المقيم في بيروت. وبعد أن استقلّ الجزّار بالحكم وشعر يوسف بخطره، سعى لإخراجه من بيروت، إلاّ أنّه عجز عن ذلك، لأنّ الجزّار حصّنها بمساعدة والي دمشق، وراح يضيّق على الموحّدين الدروز والموارنة.

أمام هذا الواقع، تعهّد الأمير منصور لقائد الأسطول الروسيّ بدفع ثلاثمائة ألف قرش، في ما إذا أجبر الجزّار على إخلاء المدينة، فضرب الأسطول المدينة بمدافعه "وضايقها بالحصار أربعة أشهر، ممّا اضطرّ الجزّار لمغادرتها إلى عكا. ودخل الأمير يوسف وغرّم المسلمين (في بيروت) بثلاثمئة ألف قرش دفعها للقائد الروسيّ، وغرّم الشيخَين عبد السلام عماد وحسين تلحوق لموالاتهما الجزّار، وأبعدهما مع غيرهما من مشايخ اليزبكيّة إلى خارج البلاد. فاعتدوا على قرى الشيخ عليّ جنبلاط في البقاع... وعندما اشتدّ القتال بين الموحّدين الدروز وبين الجزّار، جرّد عليهم عثمان جيشًا قاتله الموحّدون الدروز في جهات البقاع، في عدّة وقائع، فانهزم عثمان باشا في الظلام تاركًا المدافع والذخائر والمؤن والأسلاب التي ضبطها أثناء زحفه"[1].

وهكذا، فعندما قويت سلطة الجزّار، سارع في العام ١٧٧٦ إلى فرض ضرائب جديدة إضافيّة على لبنان، فرفضها الموحّدون الدروز، لأنّه "خصّ بها أصحاب العمامات... وأعلن الأمراء اللمعيّون العصيان. فأرسل الجزّار عسكرًا من الأكراد

١ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ٣٠٧.

حارب الموحّدين الدروز في البقاع، فقتل بعضهم، وقُتل من الأكراد أربعون رجلاً، وأحرق العسكر عدّة قرى للموحّدين الدروز في البقاع... وقد استاء الموحّدون من الأمير يوسف لأنّه وافق على هذه الضريبة، وقابل شيخ العقل الشيخ يوسف أبو شقرا، الأمير يوسف في دير القمر، وطلب منه إلغاء هذه الضريبة، فرفض... إلاّ أنّ النكديّين عادوا واقنعوا الأمير بإلغاء الضريبة خوفًا من الثورة.

"في هذه الأثناء، أرسل الجزّار فضبط مدينة بيروت، وجمع غلال الشهابيّين فيها، فطلب الأمير يوسف من النكديّين أن يفتكوا بستّماية فارس كان وجهّهم الجزّار إلى بيروت. فكمن النكديّون بمائتَي رجل بالقرب من الدامور، وفاجأوا الجند بالقتال لظنّهم بأنّ الخيل لا تقوى على سلوك الوعر، بيدَ أنّ الخيّالين هاجموهم وقتلوا وأسروا بعضهم. وكان بين الأسرى شيخان نكديّان، تقاعس الأمير يوسف عن التوسّط لإخلاء سبيلهما، فغضب النكديّة عليه، وحالفوا الجنبلاطيّة على خلعه، إلاّ أنّ الشيخ كُليب النكديّ عارضهم، وانتصر عليهم في معارك جرت بينهم بسبب هذا الخلاف، الذي اغتنمه الجزّار، فسارع إلى إرسال مَن يُدعى أسعد طوقان، طالبًا من النكديّين مائة ألف قرش غرامة الأسيرَين النكديَّين اللذَين كانا قد فرّا من سجنه، فاضطرّ النكديّون إذ ذاك إلى اللجوء لجبل عامل، عندئذ، دخل الأمير يوسف دير القمر، وأعطى منازل النكديّين وبعض أملاكهم إلى شقيقه بعد أن صادر أموالهم"[1].

في خضمّ هذه الفوضى، كان الموحّدون الدروز يدفعون ثمن التنازع على السلطة غالبًا، وراحت مصالحهم تتعرّض للانهيار ضحيّة الصراعات الحزبيّة والسياسيّة. إذ لمّا ازدادت ردود الفعل الشاجبة، من قبلهم، لِما أسموه "مظالم الأمير يوسف" اضطرّ

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٥٥ ـ ٥٦.

هذا الأخير للتنازل عن الإمارة، لبعض الوقت، لشقيقَيه. فتعدّدت المناوشات بين الأسر الموحّدة الدرزيّة التي كانت تختلف بتأييد المتزاحمَين على الحكم، وتبذل أموالها لاكتساب عطف الولاة الأتراك على الأمراء الشهابيّين. ففي العام ١٧٨٣ جرى خلاف بين النكديّة والجنبلاطيّة لأنّ الجنبلاطيّة آزروا شقيقَي يوسف على خلعه، واضطروه لمغادرة دير القمر، والالتجاء إلى عكا، فساعده النكديّة والتلاحقة والملكيّة والحزب اليزبكيّ على استرجاع الإمارة. فالتجأ شقيقاه إلى الأمراء اللمعيّين وفرّ الجنبلاطيّون إلى حاصبيّا.

ويمكن اختصار هذه الحقبة من تاريخ الجبل، بأنّ "السنوات العشر الواقعة بين ١٧٧٨ و١٧٨٨، التي ثار فيها من الأمراء الشهابيّين واحد بعد الآخر ضدّ الأمير يوسف، مُطالبين بالإمارة، يؤيّدهم الجزّار والجنبلاطيّون من الموحّدين الدروز" كانت تمهيدًا لحرب أهليّة، إذ "ما أن جاءت سنة ١٧٨٨ حتّى قامت في البلاد حرب أهليّة تسنّى فيها للجزّار أن يهاجم يوسف، فانهزم الأمير في القتال، وخسر كرسي الإمارة. وعين الجزّار خلفًا له، نسيبه بشير شهاب، النصرانيّ المولد. فتولّى هذا الإمارة وعُرف ببشير الثاني. وبتأييد من الجزّار والجنبلاطيّين الموحّدين الدروز أصبح بشير الثاني أميرًا على لبنان"[1]. وكان الأمير يوسف، قبل هذه النهاية "قد ولّى الشيخ بشير النكديّ مقاطعة مرجعيون اعترافًا بفضل النكديّين عليه. وصادر بعض أرزاق الجنبلاطيّة، وبعض الشهابيّين، واضطهد بني العيد، وأبي شقرا، وحمدان، وأبي هرموش، والعقيلي، وسمل عيني الشيخ محمّد القاضي وقطع لسانه، وقتل الشيخَين يوسف أبا شقرا وعليّ دبّوس، وفرض الضرائب غير المشروعة"... في هذه الأثناء،

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٤٦.

كانت، قد عمّت الإنقسامات الحزبيّة، بين جنبلاطيّ ويزبكـيّ، وحلّت الجنبلاطيّـة محلّ القيسيّة، وصار اسم يزبكيّ عَلَمًا لأسر عماد وتلحوق وعبد الملك ومَن والاهم[1].

وهكذا، فعندما بدأ حكم الأمير بشير الثاني الملقّب بالكبير، كـان مجتمـع الموحّديـن الدروز في لبنان، في حال من الانقسام بلـغ حـد الاقتتـال. ومـع بدايـة عهـد بشـير، بـدا وكأنّ الموحّدين الدروز مقبلون على مزيد من التضعضع.

---

١ - راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ١٣٢.

الفَصلُ الخَامِس

بَينَ المصريّين والعُثمانيّين

نُشوءُ الكَيانِ فِي جَبَلِ حوران؛

المُوحّدُون الدُّرُوز فِي عَهدِ بَشِير الثَّانِي؛

نِهَايَةُ الشّيخ بَشِير جنبْلاط وتَضَعضُع المُوحّدِينَ الدُّرُوز؛

المُوحّدُون الدُّرُوز وإبرَاهِيم بَاشَا

نُشوءُ الكيانِ في جبلِ حوران

في الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة للجمهوريّة العربيّة السوريّة جبل، يتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٦٠٠ و١٥٠٠ متر، يحدّه من الشرق سهل الرَّحبة ومنطقة الصفا الوعرة المتّصلة ببادية الشام، ومن الجنوب بادية الأردنّ، ومن الغرب سهل حوران ومنطقة اللجاه البركانيَّة، ومن الشمال الهيجانة التّابعة لمحافظة الشام، وتبلغ مساحة أراضيه نحو ستّة آلاف كيلومتر مربّع، فطوله من الجنوب إلى الشمال ٨٠ كيلومترًا، وعرضه شرقًا بغرب، ٧٥ كيلومترًا. هذا الجبل، هو جبل حوران.

عندما اشتدّت الصراعات القيسيّة ـ اليمنيّة بين الموحّدين الدروز في جبال لبنان، وتطاحنت فيها الأسر الموحّدة الدرزيّة في القرن السابع عشر، هاجر بعض الأسر المغلوبة إلى هذا الجبل، يوم كان موطنًا لقبائل البدو في بعض جهاته، وللسنيّين وبعض المسيحيّين في البعض الآخر. وكان أوّل هؤلاء المهاجرين: الأمير علم الدين المعنيّ، الذي انتقل إلى هذا الجبل في العام ١٦٨٥ ومعه ما بين ١٥٠ و٢٠٠ مقاتل موحّد درزيّ يصحبون نساءَهم وأطفالهم، فاستوطنوا القرى المجاورة لمنطقة اللجاه الوعرة، واتّخذ المعنيّ قصر "مقرى الوحش" في قرية نجران، حصنًا ومسكنًا.

وعندما حاولت القبائل البدويّة التي اعتادت الغزو أسلوب معيشة، أن تغزو هذه الجماعة القليلة العدد، صدّ المقاتلون الموحّدون الدروز الغزوات، ثمّ هاجموا القبائل

الغازية في مناطقها، وبعد حقبة من المناوشات لم تدم طويلاً، تمكّن الموحّدون الدروز من فرض أنفسهم على القبائل البدويّة، وعلى الحضّر من سنيّين ومسيحيّين مستوطنين في تلك الأنحاء. وبعدما استعاد المعنيّون السيطرة على جبل لبنان لبعض الوقت، عاد الأمير علم الدين تاركًا مقاليد القيادة لوكيله: حمدان الحمدان[1].

في هذه الأثناء، ومع استمرار الصراعات الحزبيّة في جبل لبنان، أخذ يتدفّق انتقال الأسر الموحّدة الدرزيّة إلى هذا الجبل، فازدادت من جرّاء ذلك المعارك بين القادمين الجدد والقبائل، وأهمّها قبيلة خمير التي كانت تعتبر هذه البلاد منطقة حرّة لها، فأخذت تستنجد بالقبائل البدويّة للقضاء على الموحّدين الدروز، قبل استفحال أمرهم، فأوفد الحمدانيّ رُسلاً إلى الموحّدين في لبنان وجبل الشيخ والجبل الأعلى بحلب وصفد وجبل الكرمل بفلسطين، يدعونهم إلى وطنهم الجديد الذي يفيض خيرًا بأراضيه الخصبة، ووعد رسل الحمدانيّ كلّ من يأتي لاستيطان ذلك الجبل من الموحّدين الدروز بأن يُعطى منزلاً يسكنه وإعانات تُمكّنه من استغلال الأرض التي يستملكها دون مقابل، فازداد إذ ذاك تدفّق الأسر الموحّدة الدرزيّة من تلك المناطق التي تسودها الاضطرابات، خصوصًا بعد معركة عين دارة (١٧١١) التي تشتّت فيها الحزب اليمنيّ.

مع تدفّق هؤلاء المهاجرين، راحت الأسر الموحّدة الدرزيّة تبني هذا الجبل، فترمّم قراه المهجورة وتُصلح أراضيه وتربّي فيه المواشي. وكان يتخلّل ذلك حروب مستمرّة مع البدو الذين ما برحوا يشنّون الغزوات ضدّ المجتمع الجديد، ممّا كان يؤدّي إلى

---

١ - بنو الحمدان الموحّدون الدروز: أصلهم من قرية كفرا القريبة من شملان في قضاء عاليه لبنان، خرب قريتهم بنو علم الدين التنوخيّون، فنزحوا مع بني أبي فخر وصحبهم إلى حوران.

توسّع رقعة الموحّدين الدروز بالاستملاك وإحياء الأرض. كذلك وقعت صدامات بين الموحّدين الدروز والحضرّ الذين كانوا يقطنون تلك الأرجاء، وقد حذوا حذو البدو في اعتبار الموحّدين الدروز الوافدين دخلاء على البلاد، وأخذوا يقاومون تسرّبهم مقاومة دامت نحو قرنَين، وانتهت بانتزاع الموحّدين الدروز لهذا الجبل الخصب من الحوارنة مالكي سفحه الغربي، ومن البدو المستقلّين بمرتفعاته وجهاته الشرقيّة. وكان أن تراجع البدو نحو الصحراء، ورضي المسيحيّون من الحوارنة بسيطرة الموحّدين الدروز، ولا نعلم ماذا حلّ بالمسلمين الحضرّ. وبذلك أصبح الموحّدون الدروز أسياد الجبل وولاة أمر مصير الأقوام النازلة بجوارهم فيه. وقد استمرّ توافد الجماعات الموحّدة الدرزيّة، كما استمرّت المناوشات مع البدو والحضرّ.

وبعد أن عَظُم أمر هذه الأعمال الحربيّة، أرسل صالح باشا، والي دمشق، جندًا قبضوا على زعيم الموحّدين الدروز في الجبل: الشيخ يوسف الحمدان، ومن ثمّ أمر بقتله. كان ذلك في العام ١٨٢٨م. فنزح أهله إلى الشوف لبعض الوقت، وسكنوا نيحا، ثمّ عادوا إلى الجبل بعد عزل صالح باشا، واستمرّوا حاكمين الجبل حكمًا أوتوقراطيًّا مستندًا إلى مؤازرة الأسر الإقطاعيّة التي كانت تتصرّف بقراها وبعامّة الناس تصرّفات المالك، حتّى أصبح الجبل صورة مطابقة لهيكليّة المجتمع الإقطاعيّ في جبل لبنان، الذي نزحت منه هذه الجماعات فرارًا من نظامه الإقطاعيّ وسيطرة القويّ وتعسّفه، فكان أن وقع عامّة الشعب بالذي فرّوا منه، وزاد في متاعبهم اعتبار الحمدانيّين أنفسهم أسياد الجبل، يأخذون الجزيَة من الشيوخ الفلاّحين، حاجبين الملكيّة عن العامة، حتّى إنّ إقامة كلّ فرد في موطنه كانت رهنًا برضى الزعيم الحمدانيّ الذي كان يهب المنازل والأراضي لمَن يشاء، وينتزعها ممّن يشاء. فاضطرّ الكثيرون للنزوح إلى القرى الجنوبيّة والشرقيّة بهدف الابتعاد عن السلطة الإقطاعيّة.

وممّا كان يحول دون مقاومة الموحّدين الدروز لهذا النظام، خضوعهم للزعامة الروحيّة التي كانت تدعو الشعب للالتفاف حول الزعامة الزمنيّة، حفظًا لجمع الشمل والتضامن في الحروب والغزوات الكثيرة التي كانوا يجابهون بها كلّ طامع بحماهم، وقد أصبح جبلهم ملجأ لكلّ جماعة موحّدة درزيّة مضطهدة في مناطقها، إذ عندما تعرّض جبل الكرمل للتخريب وللظلم، فرّ الموحّدون الدروز منه إلى جبل حوران. وقد تألّف من هذا المجتمع جيش محارب فيه الجنود والقادة "يصبرون على الشدائد وتحمّل المشقّات، لصحّة أبدانهم وقوّة إيمانهم". وكان سلاحهم السيف والرمح والفأس والخنجر والدبّوس. أمّا مواردهم فكانت من إنتاج الأراضي الزراعيّة، ومن المواشي التي كانوا يُعنون بتربيتها.

هكذا كان وضع جبل الدروز، موطن الموحّدين الدروز الجديد في جبل حوران، عندما تسنّم الأمير الشهابيّ، بشير الثاني الكبير، سدّة الإمارة في لبنان، عام ١٧٨٨. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح مصير الموحّدين الدروز مرتبطًا بمكانَي وجودهم الكثيف: جبل لبنان، وجبل حوران[١].

المُوحِّدُون الدُّرُوز
فِي عَهدِ بَشِير الثَّانِي

يعتبر المؤرّخ الموحّد الدرزيّ سعيد الصغير، أنّ حكم الأمير بشير الثاني، كان وبالاً على الموحّدين الدروز الذين ولّوه، فافتتح أوّل سنة من ولايته بفرض ضرائب

---

١ ـ للاطّلاع على كامل المعلومات عن جبل الدروز (حوران) راجع: الصغير، بنو معروف، مرجع سابق، ص ١٢٣ وما يليها؛ أبي راشد حنّا، جبل الدروز، ط١ (القاهرة،١٩٢٥)، ط٢ (بيروت،١٩٦١)؛ أبي راشد حنّا، تاريخ حوران الدامية، ط١ (القاهرة،١٩٢٦)، ط٢ (بيروت،١٩٦١).

باهظة ليؤدّي للجزّار خمسة آلاف كيس ثمن الولاية، وإذ قامت ضدّه حركة تمرّد في المتن، توجّه بأنصاره إلى عين دارة للاقتصاص من الثائرين، وأرسل عسكرًا إلى كفرسلوان لحرق منازل بني حاطوم[1]، فصدّ هؤلاء العسكر وسلبوه. ثمّ اجتمع المتنيّون في حمّانا، واتّحدوا مع آل نكد، وآل عماد، على محاربة بشير، ما اضطرّ الجزّار إلى إعادة الأمير يوسف إلى الحكم لبضعة أشهر، إلاّ أنّه لمّا قام الأمير يوسف بزيارة الجزّار في عكّة شاكرًا له توليته، أمر الجزّار بشنقه، لأنّ بشيرًا كان قد دفع له ألفَي ليرة ذهبية للفتك بعمّه يوسف. كان ذلك عام ١٧٩٠.

وبرفض الموحّدين الدروز عامّة لولاية بشير، استعان الأمير بعساكر دمشق وعكّة، وحقّق بذلك نصرًا على الموحّدين الدروز في معظم المعارك، ما جعل مناصب البلاد يوفدون الشيخ قاسم جنبلاط إليه، مُعلنًا باسمهم موافقتهم على عودته إلى الحكم، متعهّدين بتسليمه نصف مليون قرش. ولكنّ الشهابي قد خشي من أن يكون في الأمر خدعة، وآثر استلام الولاية بالقوّة. وكانت المعركة الأولى بعد هذه المحاولة السلميّة، أن قُتل لبشير أربعماية من عسكر الأرناؤوط، وبخلال تراجعه عن الجبل، أحرق حاصبيّا، ثمّ أمر بهدم أبنية للشهابيّين في بيروت وبنى سور المدينة بحجارتها، وقد اضطرّ بعض الموحّدين الدروز إلى الهجرة إلى حوران، وكان بينهم حلفاء الشهابي: الأمراء الجنبلاطيّون الذين وجدوا أنفسهم في وضع خطر، بعد أن تعذّر على بشير العودة إلى الجبل.

---

[1] آل حاطوم: أسرة موحّدة درزيّة في كفرسلوان وراس المتن، انتقلت إليهما من دير القمر، نتيجة الضرر الذي أصابها مع ابراهيم باشا، وهي من الأسر التي جاءت من شمالي سورية مع التنّوخيّين، واعتنقت الدعوة التوحيديّة في وادي التيم، واشتركت بفاعليّة في الأحداث التي عاشها الموحّدون الدروز.

في العام ١٧٩٢، قرّر الجزّار تبعًا لمصالحه، أن يُعيد الأمير بشيرًا إلى مركز الإمارة بالقوّة، فجهّز جيشًا من اثنَي عشر ألف جنديّ، وزحف باتّجاه جبل لبنان، فالتقاه الموحّدون الدروز المجتمعون في بعقلين وعين بال، وحاربوه في عدّة مواقع، وكان على رأسهم النكديّة والعماديّة، وقد تمكّن هؤلاء من دحر الجزّار، الذي تراجع إلى صيدا. ومن هناك، اضطرّ إلى إعلان موافقته على تولية الأمير حيدر ملحم شهاب وابن أخته الأمير قعدان شهاب، مقابل دفع أربعة آلاف كيس خلال ستّ سنوات[1].

بيد أنّ هذا الاتّفاق لم يكن حاسمًا، فإنّ سوء إدارة الأميرَين الشهابيَّين، جعلت اللبنانيّين عامّة يرفضون ولايتهما، فقدِم بشير في أيلول (سبتمبر) ١٧٩٣ عائدًا إلى لبنان، فاستقبله العماديّون واللمعيّون. ومجدّدًا، نزح من البلاد خصومه من الشهابيّين والنكديّين والتلاحقة وآل القاضي. وبعد معارك كثيرة، استقرّت الولاية لبشير، بمساعدة الشيخ بشير جنبلاط وأنصاره.

بعد أن جمع الأمير بشير أموالاً طائلة، تمنّع عن دفع المترتّب عليه لعسكر الجزّار، فأرسل هذا الأخير واعتقل الأمير والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف، وزجّهم في سجون عكّا. وولّى مكان بشير، ولدَي الأمير يوسف: حيدرًا وقعدان. ويُروى أنّ ولدَي الأمير يوسف قد ظلما وانتقما وبالغا في الجور، خصوصًا على آل جنبلاط وآل عماد أنصار بشير، ما عمَّم الاستياء، وأدّى إلى زيادة هجرة الموحّدين الدروز إلى حوران.

هنا يذكر الصليبي أنّ الجزّار كان قد استدعى أبناء الأمير يوسف ليوليهما إمارة لبنان بالمشاركة في سنة ١٧٩٣، ثمّ في ١٧٩٤، ثمّ في ١٧٩٨. وكانت الحرب تشتعل

---

١ - الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٨٢ - ٨٣.

في كلّ مناسبة بين أنصار بشير وأنصار أبناء الأمير يوسف، فيتدخّل فيها الجزّار لإثارة الموحّدين الدروز ضدّ النصارى، وبعض الاحزاب السياسيّة ضدّ بعضها الآخر[1]...

وهكذا، لم يمضِ وقت طويل، حتّى أفرج الجزّار عن الأمير بشير شهاب والشيخ بشير جنبلاط، فتوجّها إلى البلاد، وفرّ هذه المرّة ولدا الأمير يوسف، فصادر الأمير بشير أملاك النكديّة، وعبد الله القاضي، لموالاتهم حيدرًا وقعدان. وعيّن نجم العقيلي مندوبًا له عند الجزّار.

"وبعد أن استتبَّ الأمر لبشير، ورضي بحكمه معارضوه من آل شهاب وآل عماد والقاضي وتلحوق وغيرهم، سعى لإضعاف الموحّدين الدروز حتّى يستقلّ بإدارة البلاد، فاستغلّ خلافاتهم ليفتك بهم، وقد بدأ بآل نكد لشدّة كرهه لهذه الأسرة التي بذّت غيرها في خصامه، وليتخلّص من قوّة سلطتها ونفوذ كلمتها، إذ كانت تحكم دير القمر وقرى كثيرة، حتّى كان الديريّون يجلّون أحد المشايخ النكديّة أكثر ممّا يجلّون الحاكم نفسه، حتّى إنّه اضطرّ (الأمير بشير) لبناء قصره على أكمة بيت الدين المشرفة على دير القمر، وكان ينازع النكديّين على كثير من أملاكهم وقراهم، يغتصبها إذا قوي ويستثمرها النكديّون إذا ضعف، ويستقلّون بواردات الدير وضرائب السهلة ورسوم أرباب الصناعة دون تأدية شيء لأمير البلاد، الذي كان يشترك والشيخ بشير جنبلاط بنصيب من واردات الإمارة اللبنانيّة وبلاد بشاره وحاصبيّا وبعلبك[2]. ففي ٢٣ شباط (فبراير) سنة ١٧٩٥، أقبل أمراء البلاد ومشايخها وزعماؤها إلى بيت الدين لاجتماع

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٥٠.

٢ ـ راجع: أبو شقرا حسين، الحركات في لبنان، نشر عارف أبو شقرا (بيروت،١٩٥٢) ص٦.

عام، فدخل القصر المشايخ: بشير جنبلاط، والعماديّة، والنكديّة، وقد نزعوا سلاحهم قبل دخولهم كما تقضي بذلك العادة، فبعد أن رحّب بهم الأمير قُدِّمت لهم القهوة والمرطّبات، خرج (الأمير) وتبعه الشيخ الجنبلاطيّ والمشايخ العماديّة، ومُنع المشايخ النكديّة من الخروج، وقُتلوا جميعًا، وعددهم عشرة، وهم أولاد الشيخ كليب النكدي. واستولى الأمير على بعض أملاكهم، وأعطى الباقي لآل جنبلاط وعماد والقاضي والعقيلي، حتّى يأمن معارضتهم هذا العمل، أمّا الأطفال النكديّة الصغار فقد فرّ بهم الشيخ سلمان النكدي إلى دمشق، ثمّ استقدمهم الجزّار إلى صيدا وعيّن لهم نفقة[1].

أمّا الشّدياق، فيصف الحادثة بشكل مختلف، إذ يروي أنّه "في العام ١٧٩٧ اتّفق المشايخ الجانبلاطية (الجنبلاطيّة) والعماديّة والأمير بشير عمر (شهاب) الوالي على قتل المشايخ النكديّة، فاستدعى الأمير بشير المشايخ أولاد الشيخ كليب إليه إلى دير القمر، ولمّا دخلوا مجلسه، خرج من القاعة وأغلق الباب، فأسرع الشيخ بشير جانبلاط والمشايخ العماديّة ودخلوا القاعة وجعلوا يُخرجونهم واحدًا فواحدًا، ويقتلونهم ضربًا بالسيف. وكانوا خمسة، وهم: بشير، وواكد، وسيّد أحمد، وقاسم، ومراد. ثمّ أرسل الأمير بشير أعوانًا إلى عبيه يقبضون على أولاد الشيخ بشير (النكدي) ففرّوا إلى وادي الناعمة، واختبأوا هناك، فأرسل الأمير أعوانًا أحضروهم إليه، فوضعهم في السجن. وكانوا أربعة وهم: عليّ، وجهجاه، وسعد الدين، وكليب. وبعد قليل دخل إليهم المشايخ العماديّة وقتلوهم. وأمّا الصغار منهم فهربوا مع الشيخ سلمان إلى دمشق. فضبط الأمير أملاك الجميع، فأبقى جزءًا وأعطى الباقي للمشايخ القاتلين. ثمّ إنّ

---

١ - الصغير، بنو معروف، ص٦٠.

الجزّار دعا الشيخ سلمان إليه، فتوجّه بالمشايخ الصغار إلى عكّا، وكانوا ستّة عشر ذكرًا، فعيّن الجزّار لهم نفقة وأكرمهم"[1].

وبينما كان التأزّم في أوساط الموحّدين الدروز على هذه الحال، كان نابوليون بونابارت قد احتلّ مصر، ثمّ زحف على فلسطين. ولمّا حاصر الفرنسيّون عكّا سنة ١٧٩٩، دعا الجزّار الأمير بشير إلى معونته، لكنّ الأمير اعتذر، وامتنع عن مساعدة بونابارت. أمّا على صعيد مجتمع الموحّدين الدروز، فقد كان الموحّدون شاعرين بأنّ الجزّار يرغب في القضاء على عشائرهم التي كانت باتّحادها تتغلّب على جيوشه، فعندما احتلّ الفرنسيّون مصر، ووصلت جيوشهم إلى عكّا، وخشي فريق منهم، خاصّة رجال الدين، من إجبارهم على اعتناق المسيحيّة، وقرّروا النزوح إلى جبل حوران، لم يوافقهم المفكّرون الموحّدون الدروز العلمانيّون، وقد اقترح الشيخ بشير جنبلاط وآل عماد إجلاء الموحّدين من قرى الغرب (الشويفات ـ عاليه ـ وتوابعهما) والساحل، فعارضهم الشيخ عبد الله القاضي البيصوري لأنّ نابوليون كان يتودّد إلى الموحّدين الدروز ليساعدوه* على مقاتلة الجزّار، عدوّهم اللّدود. ونُقل عن نابوليون أنّه قال لكاتبه الخاص: "ألاّ يخيّل إليك يا بوريان أنّ الدروز ينتظرون بفارغ الصبر ضعف الجزّار ليقعوا به ويذيقوه ما أذاقهم وأذاق آباءَهم قبلاً من الويل والعذاب؟". وباستناده إلى هذا الأمل، أرسل إلى الأمير بشير بتاريخ ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٧٩٨ كتابًا، عدّد به انتصاراته، وختمه بقوله: "إني أسرع في إيصال أخبار الانتصارات إليك لثقتي بأنّها تفرحك لكونها تكسر شوكة ذلك الطاغية الجبّار، الذي أذاق البشريّة عمومًا، والدروز الأشدّاء خاصّة، عذابًا أليمًا، ومرادي جعل الدروز شعبًا مستقلاً ومنحه ميناء بيروت،

---

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٩٠.

لتكون مركزًا تجاريًا هامًا، ويمكنك أن تذيع في جميع القرى الدرزيّة أنّ الذين يجلبون لنا الموادّ الغذائيّة وبالأخصّ النبيذ، يجزون أحسن جزاء"[1].

غير أنّ الموحّدين الدروز لم يتحمّسوا لهذه الوعود، فاجتمعوا في مقام الأمير التنوخيّ في عبيه، وتحالفوا على مقاومة الفرنسيّين، وعلى مقاومة الأمير بشير في الوقت نفسه. ثمّ ربط العماديّون طريق عكّا في البقاع، واستولوا على قافلة تنقل خمرًا من بكفيّا إلى الفرنسيّين المرابطين حول عكّا، فغضب الأمراء اللمعيّون وأرسلوا رجالاً نهبوا قرية العماديّين: كامد اللوز، في البقاع. وبعد تراجع نابوليون عن عكّا سنة ١٧٩٩، أعلن اليزبكيّة والنكديّة وأهالي حاصبيّا، أي معظم الموحّدين الدروز، عن خلع الأمير بشير، الذي أوفد إلى جهات حلب الشيخ حسن وَرْدْ بهدايا يستعطف بها رئيس الوزراء التركي، الذي قدم بالجيوش لطرد الفرنسيّين من البلاد. ثمّ أرسل الأمير إلى دمشق ثمانين مدّ قمح وشعير، ومائة ألف قرش... "فأُنعم عليه بحكم جبل بني معن ووادي التيم وبلاد بعلبك وبلاد المتاولة (الشيعة) وبلاد جبيل، وأن يكون مستقلاً بحكمها، كما كانت بزمن بني معن"...

بدأ الأمير بشير إذ ذاك بجمع الأموال من البلاد، فمنعه آل عماد من القدوم إلى العرقوب. وإذ تغلّب عليهم برجال الشوف وجند من دمشق، انتقل هؤلاء إلى وادي التيم، وقد أعانهم الجزّار بمدّهم بقوّة قاتلوا بها في غربي البقاع، الشيخ بشير جنبلاط، حليف الأمير بشير.

في هذه الأثناء، بلغ استياء أكثر الموحّدين الدروز من الأمير بشير أشدّه، ممّا اضطره هو والمشايخ الجنبلاطيّين إلى مغادرة البلاد، فاستقلّ بالحكم من جديد ولدا

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٦١.

الأمير يوسف، وأخذ العماديّون من أهالي المتن أضعاف ما خسروه نهبًا، من قرية كامد اللوز.

لم يعدُل الأميران ولدا يوسف: حسين وسعد الدين في أحكامهما. بل ظلما الناس، ليشبعا جشع الجزّار. فقامت ضدّهما الفتن. وأرسل أعيان البلاد وفدًا أحضر الأمير بشير من قلعة الحصن سنة ١٨٠٠، فتوسّط شيخ العقل: الشيخ حسين ماضي، مع آل العماد للمصالحة مع الأمير، ففرضوا شروطًا رفضها الشهابي، ولكنّه عاد وقبل بها لخوفه من أن يصدّه جرجس باز مدبِّر الأميرَين ولدَي يوسف، وعسكر الجزّار، عن دخول دير القمر.

ثمّ جرى الصلح بين آل نكد وآل جنبلاط وآل العماد وغيرها من الأسر الموحّدة الدرزيّة المتخاصمة. إلاّ أنّ الجزّار سارع إلى إرسال جيش إلى دير القمر لاحتلالها، بقصد تَوليةِ ولدَي الأمير يوسف، فقابلهم خمسمائة موحّد درزي بقيادة بشير جنبلاط، وغنموا خيلاً وسلاحًا، وعاد جنود الجزّار مهزومين. كذلك هاجم ثلاثة آلاف جنديّ الشويفات، فصدّهم الأرسلانيّون بألف مقاتل. وبعد عدّة معارك، عجزت فيها عساكر الجزّار عن إخضاع الموحّدين الدروز لحكم أبناء الأمير يوسف، توسّط مشايخ العماديّة والتلاحقة على إنهاء الخلاف بتولية الأمير حسين، ابن الأمير يوسف، بلاد جبيل. واستمرّ الجزّار في التفرقة، واستمرّ الموحّدون الدروز في الانقسام. فقد اتّفق الجزّار مع آل العماد على تولية الأمير عبّاس شهاب للبلاد، بينما رغب الجنبلاطيّة بتنصيب الأمير سلمان شهاب، لقاء ربع مليون قرش، إلاّ أنّ الجزّار رفض العرض. عندئذ أعلن الجنبلاطيّة تأييدهم للأمير بشير، الذي عاد إلى البلاد للمرّة الرابعة، واسترضى الجزّار بالمال حتّى وطّد ولايته، وسارع إلى إغراء آل أبي علوان لانتزاع حكم العرقوب من آل العماد، بعد أن أثار

ضدّهم أهل المنطقة. كما أثار الفتن بين الأسر بموافقة الجزّار، الذي كان همّه الحصول على الأموال.

وإذا كان العباد قد تخلّصوا من دسائس الجزّار بعد موته في العام ١٨٠٤، فإنّ الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير، بقي ينتقم من خصومه حينما يقوى، ويداهنهم إذا ما ضعف، مستغلاً، تزاحم الموحّدين الدروز على اكتساب نفوذ الحاكم، وصراعهم الحزبيّ والعائليّ. وكان الحكم قد استقرّ للأمير بشير بعد موت الجزّار. وكان يشاركه بالسلطة الشيخ بشير جنبلاط، لأنّه أعانه بالمال والرجال على تثبيت ولايته، وتحمّل معه المشقّات، لذلك كان رأي الشيخ الجنبلاطيّ نافذًا عنده، وعند الأسر الموحّدة الدرزيّة عمومًا، فكان يوفّق بينها وبين سواها من الطوائف الأخرى، "حتّى إنّ الجنبلاطيّة واليزبكيّة الذين قلّما اتّفقوا أو كانوا يدًا واحدة في الشؤون الأهليّة آونة السلم، قد اتّفقوا على يد هذا الشيخ، الذي تمكّن من تمتين العلاقات مع الشيخ عبد السلام العماد زعيم اليزبكيّة، فتضاعفت بالاتّحاد صولة الموحّدين الدروز وسطوتهم في لبنان وسورية، وبقي حاكم لبنان (الأمير بشير) يعرض البريد الرسميّ على الشيخ بشير جنبلاط مدّة سبعة وعشرين عامًا، ويوقّع له الأوراق على بياض... وقد أرسل أحد شيوخ الأسرة الخازنية إلى الشيخ بشير يطلب إليه أن يشمل غبطة البطريرك الماروني بمعونته" كما يقول مؤرّخ موحّد درزيّ معاصر لتلك الأحداث[1].

إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ الموحّدين الدروز قد استراحوا من الحروب في تلك الحقبة من التاريخ، بل إنّهم هم كانوا غالبًا محاربين. ويذكر المؤرّخ الموحّد الدرزيّ سعيد الصغير أنّه لمّا "استنجد والي عكّا: سليمان باشا، بالأمير بشير سنة ١٨١٠، سار

---

١ ـ أبو شقرا، الحركات في لبنان، مرجع سابق، ص ٣ ـ ٤.

الموحّدون الدروز لاستخلاص دمشق من واليها: يوسف باشا، الذي كان قد تغلّب على الوهابيّين عندما دخلوا حدود الشام، فنشب بين الموحّدين الدروز وجيش يوسف قتال بجوار قطنا، فشل فيه يوسف وفرّ إلى مصر، فدخل الموحّدون الدروز دمشق بقيادة بشير، منشدين: نحن افتتحناك يا دمشق برؤوس حرابنا"... فاستولى سليمان باشا على دمشق، ونعم "دروز" لبنان وجبل حوران بالراحة والسكينة. وفي سنة ١٨١١ جرت عدّة معارك بين دروز الجبل الأعلى غربي حلب وبين جيرانهم، وهاجمهم طوبال التركيّ حاكم منطقة ضفاف العاصي، بين حلب واللاذقيّة، وفتك بالكثيرين منهم، فأوفد دروز لبنان وفدًا برئاسة يوسف شقير وحسن وَرْدْ، وأرسل الأمير بشير كتابَي توصية إلى واليَي "أبريحيا" و "جسر الشاغور" لتسهيل مهمّة الوفود في إحضار الموحّدين الدروز، فحضر ١٥٠٠ نفس من موحّدي حلب، وتفرّقوا في قرى الموحّدين الدروز، وأعانهم الأمير بمائة ألف قرش، فعُرفوا بالحلبيّة، ومنهم مَن توجّه إلى حوران[١].

بيدَ أنّ هذا الوفاق بين الأمير بشير والشيخ بشير الذي انعكس وفاقًا بين الإمارة والموحّدين الدروز، لم يدم. إذ ما أن استتبّ الأمر لبشير الشهابيّ حتّى راح يسعى للقضاء على الشيخ الجنبلاطيّ ليتخلّص من نفوذه، فتآمر الشهابيّ مع الشيخ شرف الدين القاضي ليوحّد اليزبكيّة والنكديّة ضدّ الجنبلاطيّ، فوفّق بين عشائر نكد، وتلحوق، وعبد الملك، وكاتب الشيخ عليّ العماد الذي كان لاجئًا لمصر، وقدم إلى دمشق. فأعلمهم برغبة الأمير بالقضاء على الشيخ بشير، فوافقوا. كان ذلك في عام ١٨١٨.

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص ٦٦، ويقول: لا تزال منهم (من الموحّدين الدروز) بقيّة موجودة في محافظة حلب، وعددهم حوالى أربعة آلاف نسمة (حوالى سنة ١٩٦٥) يستوطنون ١٥ قرية، يتبع منها قضاء أدلب أربع قرى: معرة الاخوان، كفتين، بيرة كفتين، كفربني... أمّا القرى الأخرى فهي في الجبل الأعلى تابعة لقضاء حارم، وهي أقرب إلى المزارع منها إلى القرى، وأسماؤها: قلب لوزة، بنابل، كفرحارس، تلتيتا، ككو، عبريتي، حلتي، جدعين، بشندلايا، وغيرها.

وتقول الرواية إن الشيخ الجنبلاطيّ علم بالمؤامرة قبل تنفيذها[1]، وعاتب الأمير عليها، فنفى الشهابيّ وجودها، وقتل الشيخ القاضي الساعي بالمؤامرة "ليزيل الشك من نفس الجنبلاطيّ... وإنّما هو شاء إزالة الشاهد المُطّلع على سريرته" ونزح المشتركون بالمؤامرة وآل عطالله إلى جبل حوران، فمكثوا في قرية أم الزيتون، ثمّ عادوا إلى بعلبك، فالتقوا بالشيخ عليّ العماد العائد من مصر، وساروا إلى قرية الدير عليّ، وكان عددهم ٨٠ رجلاً، وتوجّهوا إلى المتن تلبية لدعوة أهاليه. فعند وصولهم إلى البقاع تقاتلوا مع جيشٍ يقوده الأمير أمين (شهاب)، أوفده والده الأمير بشير وأحد المشايخ الجنبلاطيّة لمحاربتهم، فانتصروا عليه، ثمّ عادوا إلى عرب السرديّة، فضايق الأمير النكديّة واضطرهم للهجرة إلى دمشق وضواحيها"[2].

أدّى زرع الدسائس والفتن إلى إضعاف الأمير بشير مجدّدًا، إذ اتّفقت الأسر الكبيرة على وجوب إنهاء ولايته، ويبدو أنّ والي صيدا قد وافقهم على ذلك، بالرغم من أنّ الأمير كان قد تعهّد بمليون قرش دفع نصفها مقدّمًا. واتّحدت الأسر الموحّدة الدرزيّة بغالبيّتها ضدّه، ومنها أسر: نكد، والعماد، وتلحوق، وعبد الملك، بالإضافة إلى آل أبي اللمع، وجميع أنصار هذه الأسر، ممّا اضطرّ الأمير، رغم تأييد مقاطعة المتن له، إلى هجرة البلاد إلى جبل حوران سنة ١٨٢٠، يرافقه الشيخ بشير جنبلاط ورجاله وأمراء الأرسلانيّين وبعض اللمعيّين تصحبهم خمسون امرأة أرسلانيّة وجنبلاطيّة، فوصلوا إلى قرية حبران الموحّدة الدرزيّة، ومنها انتقلوا إلى ناحية الشرق، ومكثوا بين مرج الدولة وبرك الحلاّب، حيث حضر تجّار من دمشق وباعوهم ما يلزمهم من

---

١ ـ الشدياق دوّن رواية أخرى حول هذا الموضوع، فذكر أنّه "سنة ١٨١٨ لمّا اتّهم الشيخ بشير أنّه قتل الأمير حيدر وأخاه الأمير حمّود الشهابيّين، كان بوسيلته جعل الأمير يقوّي اليزبكيّة سرًّا..." الشّدياق، أخبار الأعيان، ١: ١٥٨.

٢ ـ الصغير، مرجع سابق، ص٦٦ ـ ٦٧.

حوائج. ومن هناك، بعث الأمير الشيخ قاسم الزعبي حاملاً رسالة إلى الشيخ مسعود الماضي ليتوسّط لدى والي عكّا بالسماح له بالعودة إلى البلاد، فجاءه الجواب بالإيجاب، فسافر إلى عكّا. أمّا الشيخ بشير جنبلاط والأمراء الأرسلانيّون واللمعيّون فانتقلوا إلى قرية الكفر، حيث مكثوا شهرَي نيسان وأيّار (إبريل ومايو) من سنة ١٨٢٠... ثمّ وصلهم طلب الأمير بشير بالعودة إلى البلاد، فغادروا الكفر، وعند وصولهم إلى نبع خراشي شرقي السويداء، بقوا عند مشايخ آل حمدان حتّى استقرّ الوضع في ديارهم[١]، فانتقلوا بعدها إلى جزّين يترقّبون سناح الفرصة ليعودوا إلى البلاد. وكان الأميران الشهابيّان، حسن عليّ، وسلمان سيّد أحمد، اللذان تسلّما الولاية واعتنقا الإسلام، قد ظلما الرعيّة بفداحة الضرائب ليُرضيا والي عكّا. فحصلت اتّصالات بين اللاجئين إلى جزّين والمشايخ اليزبكيّة والنكديّة وبعض الأمراء الشهابيّين واللمعيّين بواسطة وفد من شيوخ عقل الموحّدين الدروز، أدّت إلى التوفيق بين أهل البلاد، وبنتيجة نقل رغبة أهل البلاد بعودة الأمير بشير، أبلغهم بالموافقة شرط تنازل الأميرَين عن الحكم[٢].

ثم قدم إلى جزّين ممثلون عن أسر العماد ونكد وعبد الملك وتلحوق، وطلبوا عودة الأمير والشيخ وصحبهما إلى البلاد. وفي حزيران (يونيو) ١٨٢٠ اجتمع معظم أهالي البلاد في قرية السمقانيّة، وحرّروا عهودًا بأن "يكونوا رأيًا واحدًا لأجل مصلحة البلاد". فلمّا علم عبد الله باشا باتّفاق الموحّدين الدروز وبعض المسيحيّين على تولية الأمير بشير، أرسل كتابًا إلى الأمراء الأرسلانيّين واللمعيّين والموحّدين الدروز الكبار

١ ـ شهاب، الغرر الحسان، ص ٦٧٤.

٢ ـ شهاب، الغرر الحسان، ص٦٧٤.

٣ ـ راجع: الصغير، بنو معروف، ص٦٨.

الخمسة، ومشايخ الخوازنة، وباقي مشايخ المسيحيّين، مضمونه أنّه خلع الأميرَين من الولاية ونصّب الأمير بشير مكانهما.

رفض المعارضون هذا الاجراء، وأظهر مسيحيّو جبيل ولاءهم للأميرَين المعزولَين بامتناعهم عن دفع الضرائب لجُباة الأمير بشير، فجرت إذ ذاك أحداث دامية اتّخذت طابعًا طائفيًّا، ذلك أنّ الموحّدين الدروز، بقيادة الشيخ بشير جنبلاط، وبمشاركة عليّ العماد، وحمّود نكد، وإبراهيم تلحوق، وشبلي عبد الملك، قد تجمّعوا في الشويفات، وتوجّهوا لإخضاع أهل كسروان والمتن وسائر المقاطعات الثائرة، وتمكّنوا فعلاً من فرض عودة الأمير بشير، الذي عاقب هذه المناطق بفرض ضرائب باهظة عليها بالإضافة للغرامات.

إلاّ أنّ هذا التوافق الدرزيّ لم يدم طويلاً، إذ انتقل الموحّدون الدروز من محاربة الرافضين لحكم بشير، إلى قتال الجيش التركيّ في البقاع، بعد أن عاث بعض فرقه فسادًا في قرى البقاع الموحّدة الدرزيّة، وقد أنجدهم والي عكّا بقوّة من جنده، فانتصروا في آذار (مارس) ١٨٢١ على جيش دمشق المرابط في راشيّا. ولم يكتفِ بعضهم بذلك، إذ راح يحضّر لمهاجمة دمشق، فعارضهم في ذلك العماديّة وبعض التلاحقة والملكيّة، وانضمّوا إلى والي دمشق، وأعلموه بأنّ اليزبكيّة لا تميل إلى الأمير بشير. وهكذا عادت الحزبيّة تلعب دورها.

في ١٤ أيّار (مايو) ١٨٢١، تحصّن جيش دمشق وحلفاؤه من الموحّدين الدروز اليزبكيّين في المزّة، لصدّ الهجوم الذي قام به جنبلاطيّو لبنان بقيادة الأمير بشير، وتمكّن المهاجمون من إحداث ثغر في سور القرية التي دخلوها بعد معركة حامية، ممّا أدّى إلى فرار عسكر الوالي الدمشقيّ درويش باشا، بعد أن قُتل منهم ٢٥٠ رجلاً، وأُسر ٥٠٠، بينهم ١٢٦ من دروز لبنان، أحدهم الشيخ حسين تلحوق الذي كان

جريحًا، وغنم الموحّدون الدروز حلفاء بشير، خيامًا وذخائر وخيلاً وسلاحًا، وبقيت جثث القتلى طافية أيّامًا عديدة في نهر بردى، وقد أحصي منهم حوالى ١٢٠٠رجل، كان بعضهم جرحى على قيد الحياة[١].

وكان قد توجّه في ١٩ أيّار (مايو) ألفا مقاتل موحّد درزيّ بقيادة خليل شهاب وعليّ جنبلاط وحمّود نكد إلى حوران، حيث هاجموا عسكرًا قادمًا من نابلس إلى دمشق، فتغلّبوا عليه وغنموا أسلابه[٢].

نِهَايَةُ الشَّيخ بَشِير جنبْلاَط وتَضَعضُع المُوَحِّدِينَ الدُّرُوز

يبدو جليًّا من مسار الأحداث أنّ الشيخ بشير جنبلاط، كان يشكّل قيادة موحِّدة درزيّة ذات أهميّة كبرى، إبّان حكم الأمير بشير شهاب الثاني. ولقد تمكّن هذا الرجل الكبير من جعل قوّة الموحّدين الدروز، ميزانًا لسياسة لبنان، سواء كان حاكمه مسيحيًّا أم مسلمًا. وإذا كانت قوّة جنبلاط قد ساعدت الأمير بشير كثيرًا من خلال موالاة الشيخ بشير للأمير، إلاّ أنّ الشهابيّ كان دومًا حذرًا من طموحات الشيخ الجنبلاطيّ، الذي كانت إمكاناته الماديّة ومؤهّلاته العامة تؤهّله لمنصب الولاية، غيرَ أنّ تقاليد الوراثة ومزاحمة الأسر العريقة له، كانت تحول دون رغبته. وكان الشيخ الجنبلاطيّ قد سعى في ١٨١٥ لضمّ إقليم البلاّن إلى جبل لبنان. وكان ينوي أن يأتي بموحّدي الجبل الأعلى بجهات حلب، ويوطّنهم في سهل البقاع، وأن يأتي بموحّدي فلسطين ويوطّنهم

١ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٣: ٣٦.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص٦٩.

في إقليم جزّين، حتّى يتمكّن من إنشاء كيان متّصل، تمتدّ رقعته من البحر إلى جبل حوران[1].

وقد صدق حدس الأمير، إذ سرعان ما قامت القلاقل في صيف ١٨٢١. ويبدو أنّ الشيخ الجنبلاطيّ كان وراءَها، وقد حرّض الأكثريّة على رفض استمرار الشهابيّ في ولايته، ممّا أدّى إلى مغادرة الأمير إلى عكّا في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٨٢١. وقد حصلت على الفور نزاعات للفوز بالولاية، فالشيخ بشير جنبلاط دفع لوالي دمشق (التركيّ) ألفَي كيس، واليزبكيّة والنكديّة أيّدوا ولاية الأمير عبّاس الشهابيّ، وعارضها بعض مشايخ العماديّة والتلاحقة وعبد الملك، فتوسّط شيوخ العقل بالأمر، وعُيّن الأمير عبّاس (المسيحيّ) في ٣ آب (أغسطس) ١٨٢٢، واليًا على الجبل وكسروان وبلاد جبيل، والشيخ عليّ العماد (الموحّد الدرزيّ) واليًا على مرجعيون. فتوجّه بشير الشهابيّ في ٦ آب (أغسطس) إلى مصر، مستنجدًا بواليها: محمّد عليّ، الطامح بفتح الشام وانتزاعها من الأتراك، فاحتفى بالشهابيّ وراح يسعى لإعادته إلى لبنان ليكتسب هذا المعقل الحربيّ. ونجحت مساعيه التي طالت الباب العالي ووالي عكّا. وعاد الأمير بشير في منتصف ١٨٢٣، وراح يوالي اليزبكيّة، هذه المرّة، ضدّ الجنبلاطيّة، وفرض غرامات باهظة على الشيخ بشير جنبلاط، الذي دفع منها مليونًا وربع مليون قرش. ومع توطّد سلطة الشهابيّ، اضطرّ الجنبلاطيّ إلى الجلاء عن راشيّا، ولكنّ وساطة الشيخ محمّد وَرْدْ الهادفة إلى عودة جنبلاط مقابل جعالة ماليّة، قد أدّت إلى عودة الجنبلاطي في العام ١٨١٤، بيدَ أنّ الشهابي استمرّ في مضايقته، ما دفعه للنزوح إلى حوران بعد وقت قصير، يرافقه أولاد الأمير عبّاس أرسلان ووالدتهم.

---

١ - راجع: أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص١٥.

ما أن نزح الجنبلاطيّ حتى بدأ التكتّل في لبنان بين العماديّة والجنبلاطيّة وبعض الأمراء والمشايخ، إضافة إلى عبّاس شهاب، الخصم السياسيّ لبشير شهاب. فتوجّه عند ذاك الشيخ بشير جنبلاط إلى المختارة ومعه مشايخ آل الخازن وآل الدحداح الموارنة، وقدم الأرسلانيّون برجالهم من الشويفات، وحضر اللمعيّون وبعض النكديّة وأنصار الشيخ جنبلاط إلى عرين آل جنبلاط: المختارة. حينها استنجد الشهابيّ بوالي مصر، الذي أمر بتجهيز عشرة آلاف جنديّ لمساندته، ووجّه التقارير إلى الولاة يحثّهم على معاضدة الشهابيّ.

وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٢٤، قام الموحّدون الدروز المجتمعون في المختارة بمهاجمة السمقانيّة من أعمال الشوف واحتلالها بعد قتال ضدّ ابن الأمير بشير وجنود عبد الله باشا، ووصلت الجموع الموحّدة الدرزيّة إلى الأكمة المطلّة على قصر بيت الدين، وصوّبوا القصر بالرصاص، فسارع النكديّون والتلاحقة وبعض آل العماد وغيرهم إلى مساندة رجال الأمير، وقاموا بهجوم مضاد ردّ المهاجمين إلى سهل بقعاتا، ثمّ إلى الخلوة، فإلى المختارة، ثمّ وصلت للأمير نجدة من والي عكّا قوامها ثلاثة آلاف جنديّ.

أمام هذا الواقع، راح الطرفان يستنفران كامل قوّتيهما، فانقسم الموحّدون الدروز إلى قسمَين، وكذلك سائر أهل البلاد، وأيّد أكثر ولاة المناطق الأمير الشهابيّ. وفي ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٨٢٥، هاجم الشيخان عليّ جنبلاط وأمين العماد قرية بعقلين بألف مقاتل، فتغلّبوا على آل حمادة[1] أنصار الأمير بشير، ولكن عند وصول نجدة من

---

١ ـ آل حمادة: أسرة مشايخ موحّدة درزيّة عريقة في بعقلين، ذكر نسّابون أنّ جدودها جاؤوا من شمال سورية سنة ١٣٠٤ حيث كانوا يُعرفون بأهل الدين والثروة، فنزلوا منطقة طرابلس، ومنها انتقلوا إلى بلدة الهبّاريّة في وادي التيم، وفي سنة ١٣٨٤ رحلوا إلى دير القمر، واستوطنوا بعقلين، وصارت لهم فيها مكانة كالتي كانت لهم في غيرها. ـ أبو شقرا، الحركات ص١٨٣؛ وقد نسبها بعضهم

دير القمر وبيت الدين، خُذل رجال الشيخ بشير وأنصارهم في بعقلين. ثمّ اشتبك الفريقان يومًا كاملاً دون أن يتمّ النصر لأحدهما، فأرسل الأمير بشير الشيخ خطّار تلحوق إلى الشيخ بشير جنبلاط عارضًا الصلح، إلاّ أنّ المحتشدين في المختارة، اختلفوا حول المصالحة، ما أدّى إلى انسحاب آل عبد الملك وآخرين. وهنا أطلق رجال الأمير المدافع وتمكّنوا من التقدّم إلى قرية الجديدة، واشتبك الطرفان فوق تلك البلدة، وسقط في نهاية النهار خمسون قتيلاً من الطرفَين. مرّة ثانية، حاول الأمير الصلح، فأرسل ثلاثة من شيوخ الدين لعرض وقف إطلاق النار، بعد أن شاعت الأخبار عن أنّ هذه الحركة تهدف إلى انتزاع الموحّدين الدروز الحكم من يد المسيحيّين، ما جعل بعض الأرسلانيّين ينسحبون مع بعض اللَّمعيّين برجالهم من معركة الشيخ بشير جنبلاط، وجعل شيخ العقل وبعض العقّال يسعون إلى التوسّط لحقن الدماء. فلمّا رأى الجنبلاطيّون ومَن تبقّى من الأرسلانيّين والشهابيّين تفكّك جماعتهم، غادروا المختارة ليلاً إلى جزّين، فإلى مجدل شمس بطريق خان حاصبيّا، ومنها توجّه الشهابيّون إلى حمص، والأرسلانيّون والمشايخ إلى حوران. واحتلّ رجال الأمير المختارة وبعدران، وصادروا أرزاق الجنبلاطيّة، وأمر الأمير بهدم جامع الشيخ بشير وقصره، الذي أُنفق عليه أكثر من مليونَي ريال مجيديّ فضّة[1].

إلى بني هرموش. بينما أوردت مخطوطة بعنوان "تاريخ آل حمادة" أنّهم ينتسبون إلى قبيلة شيبان، وأنّهم انتقلوا برفقة التنّوخيّين إلى معرّة النعمان، ثمّ إلى لبنان، وسكنوا الجمهور أوّلاً ثمّ الكنيسة. (راجع: الباشا، معجم أعلام الدروز، مرجع سابق؛ أبو سعد، معجم أسماء الأسر، مرجع سابق، ص٢٥٧) وأوردت السيّدة نور حمادة نقلاً عن تاريخ أبي صالح حمادة المخطوط نسبًا آخر تقول فيه: إنّهم يرجعون في إصولهم إلى آل بني شويزان، وهم عشيرة عربيّة قدمت إلى لبنان بحسب كتاب "قواعد الآداب" في سنة ٨٢٠ (مجموعة مجلّة "أوراق لبنانيّة"، ٣: ١٧٢) وممّا ذكرته المدوّنات أيضًا أنّ "آل حُمادي بطن من قبيلة التركيّ النجديّة بجسر الشغور في محافظة حلب" (كحّالة، معجم قبائل العرب، مرجع سابق، ١: ٢٩٢).

١ ـ راجع: شهاب حيدر، الغرر الحسان، ص٧٦٢ ـ ٧٦٤؛ وصفير بطرس ف.، الأمير بشير الشهابي (بيروت،١٩٥٠) ص٦٩.

ويُروى أنّ النازحين إلى حوران، وعددهم ثلاثمائة رجل، قد وصلوا إلى نوى، فأتاهم رسول من والي دمشق، أعطاهم الأمان، فركنوا إليه، لِما للشيخ بشير جنبلاط من فضل على الوالي، ولكنّ هذا الأخير غدر بهم بناء على مكاتبة من والي عكّا، فقتل الشيخ عليّ العماد، وأرسل الآخرين إلى عكّا، فسجنهم واليها، على أنّه بعد وقت قصير، أخرجهم من المعتقل، وأعاد لهم اعتبارهم بهدف المحافظة على التوازن في الجبل. ولكنّ الأمير بشير التمس من محمّد عليّ عزيز مصر التوسّط لدى الوالي ليفتك بالمعتقلين حتّى يضمن استقرار الحكم، وهكذا تمّ قتل الشيخ بشير جنبلاط، وأمين العماد، خنقًا، في حزيران (يونيو) ١٨٢٥، في عكّا[١].

ويقول المؤرّخ الموحّد الدرزيّ سعيد الصغير، نقلاً عن أحد المراجع[٢]: "فكان لهذه النكبة (مقتل الشيخ بشير جنبلاط) أسوأ وقع في نفوس أحزاب الشيخ بشير، وأكثر الدروز الذين كان له عندهم أسمى مقام، إذ كان زعيم أكبر حزب في البلاد، وأعرض أرباب الإقطاع جاهًا، وأكثرهم ثروة ورجالاً، فكان يحكم مباشرة مقاطعات الشوف، وإقليم الخرّوب، وإقليم التفّاح، وإقليم جزّين، وجبل الريحان، وكان يملك أكثر قرى هذه المقاطعات ومعظم قرى البقاع، فيما كان لديه من المال والرجال، كان عاملاً فعّالاً في تكييف سياسة الجبل وفي تولية الحكّام وعزلهم، وكان فوق ذلك، من نوابغ اللبنانيّين في الذكاء وعلوّ الهمّة والإقدام. فبقتله وقتل زعيمَين من حلفائه آل عماد، تخلّص الأمير بشير من أشدّ أعدائه نفوذًا وبأسًا، وطاب له الحكم في لبنان بدون منازع. وبما أنّه كان مدينًا بذلك لتدخّل محمّد عليّ، ازداد الارتباط بينهما متانة، وكان ذلك من الأسباب التمهيديّة لغزو سورية وفتحها".

---

١ ـ الصغير، مرجع سابق، ص٧٢.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص ٧٢، نقلاً عن: أبو عزّ الدين سليمان، إبراهيم باشا في سوريا، مطبعة يوسف صادر (بيروت،١٩٢٩).

بموت الشيخ بشير جنبلاط، وفرار الأرسلانيّين إلى اللجاه في جبل حوران، ومن ثمّ إلى طرابلس فإلى دمشق فإلى حوران فإلى فلسطين قبل أن يعودوا إلى ديارهم في العام ١٨٣١، وإجلاء الأسرة الجنبلاطيّة من الشوف تبعًا لأوامر الأمير بشير، واضطهاد الموالين لها، كآل شمس وآل قيس وآل أبي شقرا وغيرهم، واضطرار البعض إلى دفع الغرامات الباهظة، والبعض الآخر إلى مغادرة البلاد، ونزع العقارات من بعضهم، فضلاً عن تعرّض آخرين للسجن والاعتقال، ضعفت قوّة الموحّدين الدروز في لبنان إلى حدّ كبير[١]. ووزّع الأمير بشير مقاطعات بشير جنبلاط، فأعطى مقاطعة الشوف للشيخَين حمّود وناصيف نكد، وولاية الغرب التحتاني من دون قرية الشويفات لآل تلحوق (وكانت للأرسلانيّين) وإقليم الخرّوب لآل حمادة، وإقليم جزّين لبني ناصيف.

ويقول الصليبي إنّ سقوط بشير جنبلاط "كان حدثًا ذا أثر في تاريخ لبنان. فبقضاء الأمير بشير على منافسة القويّ، الواسع الثراء، أصبح هو وحده السيّد المُطاع في لبنان. لكنّه، في الوقت نفسه، قضى على الزعامة الدرزيّة الفعّالة الوحيدة التي بقيت في البلاد. وبذلك سدّد ضربة قاضية على مكانة الدروز فيها. ولم يغفر له الدروز ذلك. وإذ ضعفوا وصاروا بلا قيادة، أحجموا عن التعاون الفعليّ في شؤون الإمارة، منتظرين فرصة سانحة للثأر. ولَئن صحّ القول بأنّ الأمير الشهابيّ المسيحيّ إنّما سحق الشيخ الجنبلاطيّ الدرزيّ، لا لأنّه درزيّ، بل لأنّه كان خصمًا سياسيًّا عنيدًا، إلاّ أنّ الدروز حملوا الأمر على غير محمله. وما كانت سياسة الأمير بشير، في ما بعد، إلاّ لتجعلهم يُمعنون في النظر إليه كعدوّ مسيحيّ لطائفتهم"[٢].

---

١ - راجع: أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص١٥.

٢ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٥٧.

بيد أنّ قراءتنا للأحداث التي سبقت وعقبت موضوع إقدام الشهابيّ على السعي للتخلّص من الشيخ بشير جنبلاط، تجعلنا نرى غير ذلك. ففي رأينا أنّ إزاحة الزعيم الجنبلاطيّ كانت شرطًا أساسيًّا لتمكين الأمير بشير من السير في تحالفه مع محمّد عليّ عزيز مصر. وفي رأينا أنّ ذلك التحالف المتين الذي نشأ بين محمّد عليّ وبين بشير الثاني لم يكن مجرّد صداقة كما وصفتها حوليّات القرن التاسع عشر، بل كان تحالفًا انقلابيًّا على الدولة العثمانيّة، تمّ بين الخديويّ المصريّ الطامح إلى الاستقلال عن الدولة العثمانيّة، وبين الأمير اللبنانيّ الذي كان بدوره يطمح إلى الهدف نفسه. وإنّ العودة القويّة التي رجع بها الأمير بشير من مصر، لا يمكن أن تكون، في المفاهيم السياسيّة للأمور، بسبب مجرّد الإعجاب والإستلطاف اللذين أحدثتهما شخصيّة الشهابيّ في نفس عزيز مصر، كما ذكر بعض كتّاب الحوليّات، بل لا بدّ من أنّها جاءت نتيجة وضع استراتيجيّة متكاملة ومبرمجة هادفة إلى الاستقلال عن الدولة العثمانيّة[1]. ولا شكّ في أنّ التهيئة لمثل هذه العمليّة البالغة الخطورة، كانت تقضي بإزاحة الزعيم الموحّد الدرزيّ عن المسرح السياسيّ، لأنّ وجوده كان يشكّل عائقًا أساسيًّا في طريق الهدف المنشود. وأوضح برهان عن صحّة هذا الاستنتاج، مشاركة تحالف محمّد علي ـ بشير الثاني ـ عبدالله باشا، إلى حدّ بعيد في مخطّط تصفية الزعيم الجنبلاطيّ. فعشيّة نشوب القتال بين الطرفَين، كان عبدالله باشا قد أرسل يطالب الشيخ بشير بمال متأخّر على الأمير عبّاس خلال حكمه الموقّت، ولمّا اعتذر الجنبلاطيّ "عن الدفع طالبًا تمديد المهلة، حنق عليه الوزير العثمانيّ وأمر بملاحقته"[2]. ولمّا وقعت الواقعة على

---

١ ـ راجع: رستم أسد، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤ ـ ١٨٤١، الجامعة اللبنانيّة (بيروت،١٩٥٦) ١: ١؛ POLK WILLIAM, THE OPENING OF THOUTH LEBANON, 1788- 1840, (CAMBRIDGE, MASSACHUSETTS, 1963) PP.87 - 88.

٢ـ راجع: أبو صالح د. عبّاس، التاريخ السياسي للإمارة الشهابيّة في جبل لبنان (بيروت،١٩٨٤) ص٢٢٧.

الشيخ بشير بعدما انهـزم فريقه أمـام القوى المتعدّدة التي قاتلته إلى جـانب الأمـير، واضطرّ إلى الفرار من المختارة إلى جزّيـن فحوران، بعث الأمير بشـير إلـى حليفـه عبدالله باشا بكتاب يلتمس فيه القبض عليه، فطلب عبدلله باشا بدوره من والـي الشـام القيام بهذه المهمّة لوجود الجنبلاطيّ داخل أراضيه. وبالفعل، فقد تمكّنت فرقة عسـكريّة من القبض على الشيخ بشير وبعض مرافقيه الذين أُعـدم بعضهم فـي دمشـق، وأُرسـل الشيخ بشير مع الباقين إلى عكّا بناء على طلب عبدالله باشا الـذي أمـر بسـجنهم. ولمّـا أبلغ والي عكّا إلى بشير الثاني نبأ الاعتقال، طلب بشير من الوالي الإسراع فـي إعـدام الشيخ بشير جنبلاط والشيخ أمين العماد. وإذ تردّد عبدالله باشا في تنفيذ رغبـة الأمـير آملاً بالحصول على بعض الأموال من الشـيخ الجنبلاطـيّ الثريّ قبل إعدامه، راسـل الشهابيّ محمّد علي في مصر طالبًا تدخّله من أجل إعدام الشيخَين في أسرع وقت. ولم يكن بوسع عبدالله باشا أن يتلكّأ عن تنفيذ طلب عزيز مصر، وهكذا أعدم الشيخ بشـير جنبلاط والشيخ علي العماد في عكّا خنقًا سنة ١٨٢٥، وأُبقي على جثّتيهما مطروحتَيـن أمام باب عكّـا ثلاثة أيّام[١].

المُوحِّدُون الدُّرُوز

وإبرَاهِيـم بَاشَـا

عندما أيّد الأمـيرُ بشـير محمّد علـيّ المصـريَّ فـي غزوه لتركيـا، عـام ١٨٣١، مـارًّا بفلسطين وسورية، كان من الطبيعيّ أن يؤيّد معظم مشايخ الموحّدين الدروز السـلطان، نظرًا لِما كانوا عليه من عداء ضدّ الأمير وضدّ الولاة المصريّين. وقد التحـق بـالجيش العثمانيّ في حلب وجوارها كلّ ناقم على الأمير الشهابي.

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ١٩٨.

أمّا الموحّدون الدروز الموالون لبشير، ومنهم آل تلحوق وآل عبد الملك، فإنّهم ساعدوا الجيش المصريّ بقيادة إبراهيم باشا مساعدة قويّة. فبعد احتلال صور وصيدا وبيروت توجّه الأمير خليل شهاب والمشايخ: حمّود نكد، وحسين تلحوق، ويوسف عبد الملك، بألف مقاتل من الموحّدين الدروز وغيرهم، لمساعدة الجيش المصري على قتال العثمانيّين في معركة طرابلس وغيرها من المواقع. واشترك الأميران الأرسلانيّان: أمين ومحمّد قاسم، وبعض الموحّدين الدروز، مع إبراهيم باشا بمقاتلة والي دمشق العثمانيّ الذي فرّ إلى حمص.

على أنّ ولاء بني معروف الجزئيّ للأمير بشير وللمصريّين لم يدم طويلاً، وما لبث آل نكد وآل القاضي أن غادروا لبنان إلى سورية، حيث انضمّوا إلىالموحّدين الدروز الملتحقين بالجيش العثمانيّ. ويبدو أنّ الأمير قد أمر بمصادرة أملاك وهدم منازل الذين توجّهوا إلى سورية من الجنبلاطيّة والعماديّة والنكديّة وآل القاضي في المختارة وكفرنبرخ بناء على أمر إبراهيم باشا في أيّار (مايو) ١٨٣٢.

غير أنّه بعد تدخّل الدول الأوروبيّة وإقناع محمّد عليّ باتّفاق ١٤ أيّار (مايو) ١٨٣٣ القاضي بالاكتفاء بسورية وكيليكيا، كتب الوزير التركيّ من أدنه إلى الأمير متوسّطًا لمشايخ الموحّدين الدروز، فحضر إلى لبنان الشيخان ناصر الدين عماد ومحمّد القاضي، وتوجّه الآخرون إلى مصر، فمنهم مَن أقام في القاهرة، وبقي الأمير أحمد أرسلان والجنبلاطيّة في حوران. وهنا، بدأ الموحّدون الدروز يعيشون فصول مشكلة جديدة، إسمها هذه المرّة: إبراهيم باشا، إذ سرعان ما طلب هذا الأخير من دروز لبنان إدخال ١٦٠٠ منهم في جيشه النظامي، فرفض الموحّدون الدروز ذلك. وفي ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٨٣٥ أرسل إبراهيم أمرًا للأمير بشير يطلب فيه منه المباشرة بجمع سلاح الموحّدين الدروز، فوجّه الشهابيّ أولاده وحفدته إلى المقاطعات

اللبنانيّة، فامتنع الموحّدون الدروز عن تسليم السلاح. ولكنّ قدوم إبراهيم باشا إلى بيت الدين على رأس عشرة آلاف جندي بعد أن جمع السلاح من الشيعة وبلاد صفد وساحل عكّا وصور، جعل الموحّدين الدروز يجتمعون ويوفدون الشيخ حسين تلحوق لإبراهيم باشا وللأمير، معلنين عن قبولهم تسليم السلاح والتجنيد، شرط أن يبقى المجنّدون الموحّدون الدروز قطعة مستقلّة بقائدها وضبّاطها وأفرادها، بحجّة أنّ تكتّل الموحّدين الدروز هو أقوى لهم وأشد وطأة على العدو ممّا إذا كانوا موزّعين بين أفراد جيش متعدّد الأجناس، فاكتفى إبراهيم باشا بتجنيد ١٢٠٠ موحّد درزي تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٥ سنة، بعد أن جمع السلاح من الموحّدين الدروز والمسيحيّين. ذلك أنّ حالة الموحّدين الدروز عندما قدم إبراهيم باشا إلى لبنان، جعلت المقاومة عديمة الجدوى، نظرًا إلى انقسام اللبنانيّين على بعضهم، وتغرُّب أكثر زعماء الموحّدين الدروز وأكثرهم نفوذًا، بينما الذين بقوا في لبنان منهم كانوا بأكثريّتهم موالين للأمير بشير، طمعًا بمنفعة أو مراعاة للقوّة القاهرة[1].

في هذه الأثناء، كان الموحّدون الدروز في جبل حوران قد تقدّموا من إبراهيم باشا بطلب إعفائهم من الجنديّة، بحجّة أن "موقفهم يختلف عن موقف غيرهم من السوريّين، فهم مقيمون في صدر البادية، ومُكلَّفون بحفظ الأمن في بلادهم، والمحافظة على أرواحهم وأموالهم بقوّة سلاحهم، بينما الحكومة تقوم بذلك في سائر أنحاء سورية الساري عليها نظام التجنيد، فتكليفهم الخدمة في أماكن بعيدة عن جبلهم، بينما جيرانهم من عربان البادية يسرحون ويمرحون، لا مبرّر له من جانب الحكومة التي تستغني عن ١٧٥ نفرًا لا يزيدون في عدد جيشها الذي زاد عن ثمانين ألف جندي، بينما هذا

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٧٧ بالاستناد إلى: أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص١٩٢.

العدد له أثر محسوس بإضعاف الموحّدين الدروز الذين كان عدد محاربيهم ١٦٠٠ مقاتل. وعرض الوفد دفع بدل نقديّ عن المجنّدين، فرفض شريف باشا (والي دمشق) بينما تصلّب الشيخ يحيى حمدان بالامتناع عن التجنيد، فغضب الوالي وأهان الشيخ ولطمه، طالبًا منه إقناع قومه بتقديم المجنَّدين خلال عشرة أيّام، فغادر الوفد دمشق مستاء، وحين وصوله إلى السويداء، دُعي قادة الرأي لاجتماع تقرّر فيه، بموافقة الرئاسة الروحيّة، رفض تسليم السلاح وتجنيد الشبّان، وإعلان الحرب على الحكومة. ونقلوا عيالهم إلى اللجاه واتّفقوا مع عرب السلوط المقيمين فيها على المقاومة، وانضمّ إليهم عرب الشمال وبعض بني معروف في وادي التيم، وهاجموا بعض القرى التي تخصّ شريف باشا وبحري بك. فوجّه شريف عليهم أربعمائة فارس من الهوّارة بقيادة عليّ آغا البصيلي... فانقضّ الموحّدون الدروز ليلاً على الفرقة وقتلوا رجالها ما عدا قائدها و٣٠ فارسًا نجوا بأنفسهم، ونقلوا خبر النكبة إلى شريف باشا"[١].

قرّر إبراهيم باشا قمع هذه الثورة بشدّة. فوجّه القائد محمّد باشا على رأس ثمانية آلاف جندي من المشاة، وخمسمائة فارس، وفرقة مدفعيّة، فقابل الموحّدون الدروز هذا الجيش في قرية بصر الحرير في أوائل كانون الثاني (يناير) من العام ١٨٣٨. وبعد مناوشات ظهر فيها تفوّق الجيش لوفرة عدده وعدّته، انسحب الموحّدون الدروز إلى اللجاه، متظاهرين بالانكسار، وتركوا مواشيهم وأنعامهم غنيمة للجيش الذي جمعها واقتفى أثرهم، وعند وصوله إلى الأماكن الوعرة التي تقيم فيها عيال الموحّدين الدروز، تصايح النساء وتصارخ الأولاد، فتواثب الموحّدون الدروز من أمكنتهم متحفّزين، وقتلوا من الجيش عددًا كبيرًا، وكان في عداد القتلى قائد وأميرالاي و١٤

---

١ ـ كرد علي، خطط الشام، ٣: ٦٠؛ أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص٢٠٠.

ضابطًا كبيرًا، ممّا ضعضع الحملة، وعقب ذلك عراك هائل اندثرت فيه الحملة بين قتل وأسر وتشريد، واستولى الموحّدون الدروز على مقادير كبيرة من الميرة والذخيرة والسلاح.

احتدم إبراهيم باشا غيظًا من الفشل المتكرّر، فتجهّز من أنطاكية على رأس قوّة هائلة للاقتصاص من دروز جبل حوران، بيد أنّ تقدّم الجيوش العثمانيّة من الشمال، جعله يتأخَّر عن قيادة هذه الحملة، فأرسل إلى والده في مصر، طالبًا إرسال وزير الحربيّة: أحمد منيكلي باشا، ليقود الحملة على الموحّدين الدروز، فحضر مسرعًا ليثأر لأخيه قتيل الموحّدين الدروز، وتعاون مع شريف باشا على تجهيز أربعة عشر ألف جنديّ مشاة وخيّالة، زحفوا في شهر شباط (فبراير) على اللجاه من قرية تينة، "فعندما تجاوزوا قرية مجدل شرقًا، ظهرت أمامهم طلائع الموحّدين الدروز، وناوشوهم بالقتال. ثمّ تقهقر الموحّدون أمام الجيش الذي توهّم ضعفهم، وتعقّبهم حتّى وسط اللجاه، وهناك بدأت المقاومة، فحمل الجنود ثلاث حملات متتالية صدّها الموحّدون، حتّى اعترى الجنود التّعب، فشنّ الموحّدون هجومًا مُضادًا بالسلاح الأبيض، وبعد صمود قصير، راح الجيش يتراجع حتّى حلّت به هزيمة شنيعة سقط أثناءَها شريف باشا عن جواده، بَيد أنّ البصيلي قد أنقذه، فتشتّتت الحملة تاركة في ساحة الوغى مدفعَين وخمسين جملاً محمّلة بارودًا، وستة آلاف بندقيّة، ونحو أربعة آلاف جريح وقتيل، بينهم أميرا لواء وأميرالاي وقائمقام وسبعة بكباشيّة وعشرون يوزباشيًّا، وقد أُصيب وزير الحربيّة بثلاث رصاصات ومات متأثرًا بهذه الإصابة بعد عودته إلى مصر.

"بعد ذلك أرسل إبراهيم باشا يطلب النجدة من والده في مصر، فأرسل إليه أربعة آلاف ألباني بقيادة حاكم كريت، وجمع جيوشًا بلغ عددها عشرين ألف مقاتل، تكامل حشدها في نيسان (إبريل) ١٨٣٨. واستقرّ معظم الجيش في قرية الصورة، واستأجر

إبراهيم باشا ١٥٠ أعرابيًا لإرشاده على الطرق المجهولة، وقسّم الحملة إلى أربع فرق، تولّى قيادة إحداها بنفسه، وأوكل قيادة الفرق الباقية إلى سليمان باشا الفرنساوي، ومصطفى باشا، وسليم باشا، ووزّع عدّة كتائب من جنده على قرى الهيّات، والمسميّة، وتبنة، وقراصة، وبصر الحرير، ونجران، وريمة، وبرّاق، لمحاصرة الموحّدين الدروز ومنع المياه عنهم واستدراجهم للقتال خارج اللجاه.

"حصل بين الموحّدين الدروز ورجال حملة إبراهيم باشا عدّة معارك تكبّد بخلالها الجنود خسائر جسيمة، ومن أشدّ تلك المعارك هولاً معركة جرت بين إبراهيم باشا والموحّدين الدروز عند دامة، التي أدخل إليها الباشا عسكر الأكراد، وتبعها شخصيًّا بعسكره النظامي، وبوصول الأكراد إلى أرض دامة، أطبق الموحّدون الدروز عليهم وكسروهم... فدافع عنهم إبراهيم باشا بالعساكر النظاميّة دون جدوى، لأنّ الخوف دبّ في قلوب عساكره، فانكسروا أمام الموحّدين الدروز الذين طاردوهم مطاردة عنيفة، وتمكّن إبراهيم باشا من أن ينجو بمَن بقي معه إلى خارج اللجاه"[1].

ويروي الصغير "أنّ ابن صمير، شيخ عشيرة ولد عليّ، اغتنم انهماك الموحّدين الدروز بهذه الحرب، وهاجم جنوبي الجبل لخلوّه من المدافعين، ونهب ما وجده في إحدى القرى من ماشية ومتاع. ولمّا علم الموحّدون الدروز بذلك نظّموا خطّة بارعة، فجمعوا حطبًا كثيرًا، وجعلوه صفًا كثيفًا غطّوه بالتراب، وأوقدوا فيه النار حتّى تصاعد منه دخان كثيف، فخشي الجيش المصريّ أن يكون وراءَه خدعة حربيّة استعدّ لمجابهتها، في الوقت الذي أسرع فيه الموحّدون لتعقّب القبيلة المعتدية إلى جهة صبحة وصبيحية، فتغلّبوا عليها وغنموا أسلابها، واسترجعوا ما نهبته، وعادوا إلى متاريسهم

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٣٠ بالاستناد إلى: أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص٢١٢.

في اللجاه في مدّة لا تتجاوز الأربعة أيّام"[1].

بعد فشل إبراهيم باشا في اقتحام معاقل الموحّدين الدروز في اللجاه، عمد في حصاره إلى تسميم خزّانات المياه التي كانت جيوشه مرابضة بقربها، وردم بعضها الآخر، كما ألقى بجثث القتلى في ما تبقّى منها. وبنتيجة هذه الإجراءَت اللاّإنسانيّة، مات عدد كبير من دروز الجبل عطشًا، ونهبت عساكر إبراهيم قرى الموحّدين الدروز المهجورة كالسويداء وبريكة والهيات، وبعد معارك حول أحواض المياه دامت شهرَين، زحف إبراهيم باشا للاستيلاء على مواشي الموحّدين المحفوظة في حرج قنوات، وكان قد أصاب الرجال ما أصابهم من وهن، فقتل الجيش المصريّ أكثرهم، وأخذ بعضهم أسرى، بينما فرّ البعض الآخر، واستولى الجند على كميّة كبيرة من الأمتعة والجِمال وعلى أكثر من ثمانية آلاف رأس غنم.

وفي ٢٥ أيّار (مايو) ١٨٣٨ جرت معركة في جرين، حول خزّانات المياه، دامت ثماني ساعات، خاب فيها الموحّدون الدروز، كما جرت معركة قرب مياه بـرّاق تغلّب فيها الجنود الألبان بعد مقتل ثلاثماية موحّد درزيّ، وألفَي جنديّ. وفي أواسط حزيران (يونيو) حصلت آخر تلك المعارك "المائيّة" ودامت اثنتَي عشرة ساعة، اضطرّ بعدها الموحّدون الدروز إلى نقل ميدان القتال إلى وادي التيم في لبنان، بعد أن تعذّر عليهم الاستمرار في اللجاه لفقدان المياه.

كان بنو معروف في لبنان يُنجدون إخوانهم في حوران سرًّا في البداية، وأصبح الأمر علنيًّا في ما بعد. وقد كتب إبراهيم باشا إلى الأمير بشير طالبًا منع دروز لبنان عن نجدة دروز حوران. فقام حفيد الشهابيّ الأمير مجيد بمهاجمة الموحّدين الدروز

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٣٠.

المجتمعين في قرية "حنية" من إقليم البلاّن، وتحصّن الحفيد الثاني في سرايا حاصبيّا مع العسكر النظاميّ، وكان قدم من اللجاه شبلي العريان بمائتَي مقاتل انضمّ إليهم دروز حاصبيّا وراشيّا والقرى المجاورة، وانتهز أمراء راشيّا هذه الفرصة للاقتصاص من قريبهم وعدوّهم: سعد الدين الشهابيّ، فاشتركوا مع الموحّدين الدروز بمهاجمته ومَن معه في سرايا حاصبيّا. وبعد معركة قُتل فيها بعض من الفريقَين، أخذ العريان ينصح الأمير محمود بعدم مشاركة العسكر، فخرج برجاله عائدًا إلى بيت الدين. واضطرمت الحرب بين العسكر المصريّ والعريان، حتّى تضايق الجند، وفرّ منهزمًا نحو البقاع، فتبعهم العريان والموحّدون الدروز، وفتكوا بثلاثمائة جنديّ، وتشتّت الآخرون حيث ظفر بهم البقاعيّون.

ردّ والي دمشق بتوجيه ألف مقاتل، ألحق بهم مائة مدفعيّ، فقاتل الموحّدون الدروز الفرقة الأولى واضطروها إلى الاعتصام بقلعة راشيّا، ومنعوا رجال المدفعيّة من الوصول إلى القلعة، فلجأوا إلى موقع مرتفع منيع، حيث هاجمهم الموحّدون الدروز ليلاً وقتلوا وأسروا منهم، واستولوا على المدافع والذخائر والأمتعة. أمّا الجند المعتصم في القلعة، فقد فرّ ليلاً نحو البقاع، فتعقّبه الموحّدون الدروز وفتكوا به واستولوا على أسلحته وأمتعته[1].

"إزاء هذا التطوّرات، ترك إبراهيم باشا حوران في ١٩ حزيران (يونيو)، وأمر مصطفى باشا أن يوافيه إلى وادي التيم عن طريق الديماس. وكتب إلى بشير الشهابيّ ليجمع له أربعة آلاف مقاتل من مسيحيّي لبنان، ويسلّمهم أسلحة تكون مؤبّدة لهم ولذراريهم، ويوجّههم إلى حاصبيّا بقيادة ولده الأمير خليل. فاستغلّ الأمير بشير هذه

---

١ ـ الصغير، بنو منعروف، ص١٣٢ بالاستناد إلى: أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص٢١٤.

الفرصة ـ بحسب المرجع ـ للقضاء على الموحّدين الدروز، وأذاع بلاغًا قال فيه: ـ إنني أخاطب كلّ مسيحيّ يقطن لبنان ويخضع إلى حكمي فأقول: إنّ عطوفة نائب ملك مصر، يتعهّد بتقديم ستّة عشر ألف بندقيّة إليكم لتحموا بها أنفسكم وتقاتلوا أعداءَكم الدروز الذين ينكرون وجود الله ويترقّبون سنوح الفرص للإيقاع بكم. فهذه الأسلحة سيرثها أحفادكم وأحفاد أحفادكم[1] ـ". وبرأينا أنّ سياسة الأمير بشير الثاني الكبير هذه، هي المسؤولة عن الفتنة الطائفيّة التي أوقعت بين المسيحيّين والموحّدين الدروز أواسط القرن التاسع عشر.

ويكمل المؤرّخ المحقّق الموحّد الدرزيّ روايته بالقول: "فعندما علم دروز لبنان بموازرة بشير لإبراهيم (باشا) على الفتك بالدروز في وادي التيم، خفّ منهم ألف محارب بقيادة الشيخَين حسن جنبلاط وناصر الدين العماد، وتحصّنوا مع جماعتهم في غابة قريبة من قرية نيحا، مقابل جيش إبراهيم، فنشب بين الفريقَين قتال لم يُسفِر عن نتيجة... فعمد إبراهيم باشا للخدعة، وأرسل يطلب سلاحًا يأتيه عن طريق وادي بكّا، ودسّ خبرها للدروز بواسطة جواسيسه. فذهب ثلاثماية مقاتل منهم، استولوا على السلاح بالقوّة في وادي محسي، وإذا بمصطفى باشا قادمًا بعسكره، فنشب القتال بين الفريقَين في مكان وعر بين ينطا وحلوى، فبادر ٧٥٠ درزيًا بقيادة الشيخَين: ناصر الدين العماد وحسن جنبلاط لنجدة رفاقهم، فجرت معركة هائلة استمرّت أربع ساعات، اشترك فيها إبراهيم باشا بشطر من عسكره من وراء الدروز، فأصبحوا بين نارَين، وانكفأوا إلى وادي بكّا وقاتلوا قتال المستميت، فأوقعوا بالجند خسائر ضعضعته، ولكنّ فراغ الذخيرة من الدروز، ومقابلتهم نيران الجنود برشق الحجارة واستعمال السيوف والخناجر، قوّى عزائم الجند، فثبت. وكان الشيخ ناصر الدين عماد في مقدّمة رجاله

---

١ ـ لم يذكر سعيد الصغير مرجع هذه الوثيقة. وقد أوردها في كتابه، ص١٣٢.

يجول في الأعداء بسيفه، فخرّ صريعًا، وقد قُتل من رجالـه ٢٥٠. فرأى الشيخ حسن جنبلاط أنّ لا فائدة تُرجى من مواصلة القتال، وقد قتل من رجاله ١٣٠ أيضًا، فانسحب بالباقين إلى قرية شبعا عند جبل الشيخ. وبعد هذه المعركة، اجتمع الدروز في أرض جنعم المرتفعة، وتحصّنوا بجوار قصر هبنة الصليبي، المجاور لقرية شبعا، بين جبل الشيخ والجبل الوسطاني الذي يفصلها عن حاصبيّا. فهاجمهم إبراهيم باشا صباح ٢٣ تموز (يوليو) من ثلاث جهات: تقدّم الموارنة من الجهّة الغربيّة، فأمهلهم الدروز حتّى صعدوا الجبل الوسطاني وفاجأوهم بهجوم شديد وهزموهم لجوار حاصبيّا، وتغلّب الدروز المرابطون في الجهة الجنوبيّة على فرقة والي صيدا النابلسيّة، وهزموها إلى قرب بانياس. أمّا القوّات التي هاجمتهم من الشمال بقيادة إبراهيم باشا ومصطفى باشا، فقد تغلّبت على الدروز بعد قتال عنيف، فاضطرّ دروز وادي التيم لطلب الصلح بواسطة الشيخ حسن البيطار من راشيّا، فوافق إبراهيم باشا على الصلح مقابل تأدية الدروز أربعمائة بندقيّة. أمّا دروز لبنان والعريان ودروز الإقليم فقد رفضوا التّسليم وانضمّوا إلى ثوّار اللجاه الذين كانوا يشنّون الغارات على ما جاورهم، حتّى فُقد الأمن وصار خط الجيش معرّضًا للأخطار. فعمد إبراهيم باشا إلى الاستيلاء على عيال العريان، فاضُطرّ للتسليم في ٩ آب (أغسطس)، فأكرمه وعيّنه قائد ألف في جيشه. ثمّ أوفد الشيخَين حسن البيطار وجرجس باز إلى مقرّ شريف باشا ليكونا وسيطَين بينه وبين الدروز المرابطين في اللجاه. فتمّ الصلح، وأدّى الدروز سبعمائة بندقيّة من سلاحهم، وألفَي بندقيّة ممّا استولوا عليه من سلاح الجيش المصريّ، مقابل تعهّد الحكومة بإعفائهم من التجنيد والسخرة والضرائب، وعدم معارضتهم بحمل السلاح، وعدم إقامة تحصينات عسكريّة في بلادهم، والاعتراف باستقلالهم في شؤونهم الداخليّة (في جبل السويداء). وهكذا انتهت الثورة الدرزيّة في ٢٢ آب (أغسطس) ١٨٣٨، بعد

تسعة أشهر من نشوبها، وقتل فيها مئات من الدروز، ونحو عشرة آلاف جندي (من عسكر إبراهيم باشا)... وكان لانتصارات الدروز أثر كبير بتوطيد كيانهم، فازداد قدوم الدروز من المناطق الأخرى إلى الجبل الذي اشتهر باسم جبل الدروز، وازداد توسّعًا في جهتَي الجبل الجنوبيّة والشرقيّة، وخيّم الاستقرار عدّة سنوات، عنوا خلالها ببناء المنازل لسكنى الأُسَر القادمة حديثًا، وبغرس الأشجار المثمرة في السويداء وقنوات والكفر وغيرها"[1].

أمّا في لبنان، فقد عمد إبراهيم باشا إلى نفي زعماء الثورة إلى السودان، وقتل منهم مَن قوي على قتله، ما ترك في صدور الموحّدين الدروز أثرًا سيّئًا.

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

الفَصلُ السَّادِس

أعوامُ الفِتنةِ في لبنانَ وحوران

بدايةُ الفِتَنِ في لبنان؛ الفِتنةُ الأُولى في جبَلِ لبنان؛

فِتنة ١٨٦٠؛

المُوحِّدُون الدُّرُوز في متصرِّفيَة جبَلِ لبنان؛

في جبَلِ حُوران.

بدَايَة الفِتَن في لبنان

يقدّم الدكتور فيليب حتّي لحقبة الحرب الأهليّة الأولى في لبنَان (١٨٤٠ ــ ١٨٤٢) بقوله: "كانت الحروب في جبل لبنان حتّى سنة ١٨٤٠ حروبًا داخليّة متقطّعة، يحارب فيها الدرزيّ أخاه الدرزيّ، والنصرانيّ أخاه النصرانيّ، تبعًا للحزب الذي ينتمي إليه كلّ منهما: الحزب القيسيّ واليمنيّ، والحزب الجنبلاطيّ واليزبكيّ. وكان ولاء الناس إلى أميرهم أو إقطاعيهم أو إلى حزبهم لا إلى دينهم أو إلى طائفتهم... وحتّى سنة ١٨٤٠ كان الدروز والموارنة يوقّعون معًا بيانات ضدّ إبراهيم باشا"[١].

وقبل أن تستعر الفتنة بين الموحّدين الدروز والمسيحيّين، كان هؤلاء وأولائك قد ثاروا ضدّ حكم الأمير بشير الثاني في ما عُرف بالحركة الأولى. وكان معظم المتمرّدين في بادئ الأمر من مَسيحيّين وموحّدين دروز من أهالي الشوف وكسروان. وكانت قواعدهم الرئيسيّة بيروت ودير القمر وجزيّن. لكن سرعان ما انضمّ إلى الثورة شيعة بلاد بعلبك، ثمّ سنّة طرابلس ومسيحيّو شمال لبنان[٢].

ويعتبر باحثون أنّه "بسقوط بشير الثاني ومجيء بشير الثالث، بدأ عهد جديد في تاريخ لبنان. وقد كان بشير الثاني حتّى أواخر حكمه، ممسكًا بزمام سياسة البلاد

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٢٦.

٢ ـ راجع: الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٣.

الداخليّة، مسيطرًا على الانقسامات الطائفيّة والحزبيّة التي طالما أسهم في إيجادها. أمّا الآن، فبزواله عن المسرح، زالت هذه السيطرة. وفي أثناء حركة العصيان، ألّف عداء الأمير بين الموحّدين الدروز والمسيحيّين، وبين زعماء الاقطاع وفلاّحيهم. لكن حين نجحت حركة العصيان هذه، وآذن نجم الأمير بالأفول، لم تعد هناك يد قادرة على إبقاء هذه الإلفة. بل لقد نشطت قوى خارجيّة لبذر بذور التفرقة من جديد بينها. فبُعثت النعرات الكامنة في عهد بشير الثالث، واشتدّ التوتُّر الاجتماعيّ والطائفيّ إلى حدّ الأزمة"[1].

"فما أن خلف بشير الثالث بشير الثاني، حتّى بدأ زعماء الموحّدين الدروز الإقطاعيّون، وسواهم ممّن أُجبروا على ترك البلاد في أواخر الحكم المصريّ، بالعودة إليها والمطالبة بالحقوق والامتيازات والاقطاعات التي خسروها في العهد السابق. وكان يتزعّم هؤلاء العائدين ولدا الشيخ بشير جنبلاط: نعمان وسعيد. وقد انضمّ إلى العائدين كبار زعماء الموحّدين الدروز، أمثال حسين تلحوق وأمين أرسلان، من الذين فقدوا في عهد بشير الثاني كثيرًا من مكانتهم وممتلكاتهم دون أن يُنفوا من البلاد. ولم يلبث هؤلاء معًا أن طالبوا بشير الثالث بأن تُعاد للأُسر الموحّدة الدرزيّة الإقطاعيّة سيادتها التامّة على الأنحاء الخاصة بكلّ منها. لكنّ الأمير الجديد، إذ كان واثقًا من تأييد البريطانيّين، لم يكتفِ بردّ هذا الطلب، بل اتّخذ تدابير تزيد في إضعاف نفوذهم... وكان بعض المشايخ قد استصدر فرامانات من السلطان (العثماني) باستعادة الأملاك المصادرة، فلم يبدِ الأمير رغبة في إطاعتها، وهكذا توتّرت العلاقات بين الأمير وبين زعماء الموحّدين الدروز. وفي أوائل ربيع ١٨٤١ بلغ هذا التوتر منتهى الشدّة"[2].

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٤.

٢ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٧٦.

ومع أنّ سياسة الأمير كانت "مجابهة لمشايخ الإقطاع، حتّى من المسيحيّين، خصوصًا مشايخ آل الخازن وآل حبيش في كسروان، ممّا حمل هؤلاء على الوقوف مع زعماء الموحّدين الدروز صفًّا واحدًا في وجهه" فإنّ الموحّدين الدروز قد اعتبروا أنّ "الأمير بشير الثالث المكنّى بأبي طحين، اقتفى أثر سميّه المعزول بمساعدة المسيحيّين على اغتصاب أملاك الموحّدين الدروز... فنزع من العماديّة قرية شمسطار الواقعة غربي بعلبك وسلّمها لأولاد الأمير منصور اللَّمعي، ووزّع على أنسبائه أرض الرمادة في قرية عنجر وضواحيها التي هي ملك لآل تلحوق. وتآمر على قتل الأميرة حبوس أرسلان لأنّها حاولت استرجاع بعض الأملاك المغتصبة بيد الشهابيّين"[1].

بيد أنّ الموحّدين الدروز يعترفون بما كان لليد الخارجيّة من دور في بذار الفتنة، إذ باعتبارهم، أنّه لمّا رفض الموارنة إعادة الحقوق لأصحابها، وعمل الموحّدون الدروز لإعادة مجدهم الذي زال بانقساماتهم بعد الأمير بشير الكبير، حصل بين الطائفتَين فتن كثيرة استغلّتها بريطانيا وفرنسا للتدخّل في شؤون البلاد وتحقيق مآربهما الاستعماريّة، فالأولى ناصرت الموحّدين الدروز، والثانية تعهّدت للموارنة بالمحافظة عليهم، فازداد تصلّبهم، وكثرت الاضطرابات وعمّت الفتن البلاد، وكان أعظمها فتنة دير القمر، لأنّ مسيحيّيها تشامخوا على مشايخهم النكديّين، ونبذوا أوامرهم، واغتصبوا أملاكهم في عهد البشيرَين الثاني والثالث[2].

وفي الواقع، أنّه بعد تسنّم بشير الثالث سدّة الولاية بقليل، وسط هذه الأجواء المشحونة، "وقعت حادثة تافهة كانت الشرارة الأولى لإشعال نار الفتنة الأولى بين

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٨١.

٢ ـ المرجع السابق.

الموحّدين الدروز والمسيحيّين - وتعرّفها العامة بالحركة الأولى - وتفصيل الحادثة: أنّ رجلاً مسيحيًّا من دير القمر اصطاد حجلاً في أرض لعائلة أبي نكد الموحّدة الدرزيّة، في خراج بعقلين، فاعترضه بعض أبناء بعقلين الموحّدين بمشاجرة. وإذ سمع رفاق الصيّاد الجلبة، سارع أحدهم إلى دير القمر وبثّ الخبر مهيّجًا. فهاجت الشبّان وتدجّجوا بالسلاح. وانضمّ الجنبلاطيّون وآل العماد برجالهم إلى النكديّين فأحرقوا دير القمر في الرابع عشر من تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٤١. ولم تلبث أن شملت الفتنة قرى أخرى في الشوف وفي منطقة الغرب: جزّين وعبيه والشويفات والحدث وبعبدا. وفي الحدث وبعبدا أحرقت قصور الشهابيّين... وأسفرت هذه الفتنة الأولى عن مقتل مئة رجل، معظمهم من الموحّدين الدروز، وعن خراب في الممتلكات تُقدّر قيمته بنصف مليون من الدولارات... إلاّ أنّ فقدان الثقة وشيوع الكراهية بين الفريقَين، كانا أشدّ خطرًا من الخسارة الماديّة، وأدهى من هذا كلّه، أنّ الفتنة الأولى أصبحت الخطّ أو النموذج لفتن لاحقة أشدّ هولاً منها"[1].

وفي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٨٤٢، عُزل الأمير بشير الثالث، آخر الأمراء الشهابيّين، عن ولايته، وعيّن الباب العالي رجلاً هنغاريًا كان قد انضمّ إلى الجيش التركيّ لمحاربة إبراهيم باشا في سورية ولبنان، اسمه عمر باشا النمساويّ[2]، وهو أوّل رجل عثمانيّ يتولّى هذا المنصب في لبنان، واتّخذ قصر الشهابيّين في بيت الدين مقرًّا له. وكانت تنقصه المقدرة والحنكة السياسيّة ليدرك حقيقة الوضع في لبنان. وقد عجز عن أن يظفر بولاء الموحّدين الدروز أو النصارى وتعاونهم معه... فلجأ الأتراك إلى تدبير جديد: تقسيم جبل لبنان إلى قسمَين أو قائمقاميّتَين، شماليّة للمسيحيّين

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٢٦ - ٥٢٧.

٢ - الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ١٧١.

يحكمها قائمقام مسيحيّ، وجنوبيّة يحكمها قائمقام موحّد درزيّ، وكلاهما مسؤولان أمام والي صيدا المقيم في بيروت. وقد اتُّخذت طريق بيروت ـ دمشق الحدّ الفاصل بين القائمقاميّتَين... فعيّن حيدر من الأمراء اللمعيّين قائمقامًا في المقاطعة المسيحيّة، وأحمد أرسلان قائمقامًا على قائمقاميّة الموحّدين الدروز[1]. وكان حيدر اللمعيّ قد تنصّر حديثًا، وكان أحمد أرسلان حدِثًا لم يستطع أن يفرض هيبته على مشايخ الموحّدين الدروز"[2]...

الفِتنَـةُ الأُولَـى
فِي جَبَلِ لُبنَان

لندع مؤرّخًا محقّقًا موحّدًا درزيًّا يروي أحداث هذه الحقبة من مناظره، فهو يقول[3]:

"بعد فتنة وقعت في أيلول (سبتمبر) ١٨٤١ بين دروز بعقلين ومسيحيّي دير القمر، وذهب ضحيّتها ٢٧ درزيًّا ومسيحيّين، دعا الأمير (بشير الثالث) أعيان البلاد لموافاته إلى دير القمر في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٤١ للمفاهمة عمّا حدث. فبعد وصول الأمير أحمد أرسلان (الموحّد الدرزي) وبعض أعيان المسيحيّين ورجال مجلس الإدارة من دروز ومسيحيّين، أقبل العماديّة، فوجّه الأمير قريبه محمودًا بمائة وخمسين رجلاً لمنعهم من الدخول خوفًا من الفتنة، فنشب بين الفريقَين قتال امتدّ إلى دير القمر،

١ ـ الشدياق، أخبار الأعيان، ٢: ٣٢٧.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٥٢٨.

٣ ـ الصغير، بنو معروف، ص ٨٢ وما يليها.

فضيّق الدروز الحصار على المسيحيّين، وأرسل بشير يستغيث بأقربائه في ساحل بيروت وبالبطريرك يوسف حبيش، فدعا هذا جميع الموارنة لمساعدة المحصورين في دير القمر، ففشلوا في تخليصهم، وأرسل وكيلاً إلى بعبدا مصحوبًا بمال جزيل لتقديم البارود والرصاص للمسيحيّين[1]. فثار دروز المناطق اللبنانيّة لمعونة أبناء طائفتهم، فنشبت معارك كثيرة في مختلف المناطق والقرى كان النصر في معظمها للدروز، وفي بعضها للموارنة... أمّا في دير القمر، فبعد أن يئس الأمير وأنصاره من وصول النجدة لهم، طلبوا التسليم، بعد مقتل ١٠٩ مسيحيّين وعدد كبير من الدروز (أمّا الأمير سعد الدين اللمعيّ، فسلّم للشيخ ناصيف النكديّ، فعفا عنه أملاً برجوعه درزيًّا). ثمّ توجّه لمهاجمة زحلة ستة آلاف درزيّ، أنجدهم ألف مقاتل درزيّ من حوران ووادي التيم بقيادة شبلي العريان، وبعد نشوب القتال فرّ فريق من سكّان زحلة، ولكنّ قدوم الجيش العثمانيّ منع الدروز من دخول المدينة. ثمّ دعا مصطفى باشا أعيان المسيحيّين والدروز إلى بيروت للاتّفاق، فرفض الموارنة إلاّ بعد التعويض بمبالغ... استنكرها المندوب العثمانيّ، فأبعد الأمير بشير إلى استنبول، وعيّن عمر باشا النمساوي واليًا على لبنان يعاونه الشيخان خطّار عماد عن الدروز ومنصور الدّحداح عن المسيحيّين، فظهر ميل عمر باشا للمسيحيّين. وساعدهم حتّى يرضوا بولاية الدولة، وعيّن جنودًا من المسيحيّين، واعتقل زعماء الدروز، فقدم لنجدتهم بعض دروز حوران والإقليم ووادي التيم بقيادة اسماعيل الأطرش وشبلي العريان، ولكنّهم لم يقاتلوا جند عمر باشا لأنّهم من الدروز والمسيحيّين، بل شكوه إلى استنبول، فأقالته من منصبه، وعيّنت الأمير أحمد أرسلان قائمقامًا على مقاطعات الدروز الجنوبيّة، والأمير اللمعيّ قائمقامًا على مقاطعات المسيحيّين الشماليّة، واختصّت الدولة بحكم دير القمر... وكان

---

١ ـ بالاستناد إلى الشدياق.

المسيحيّون المقيمون في المقاطعات الجنوبيّة يستنكرون حكم القائمقام الدرزيّ، وأهل دير القمر يهيّجونهم لأخذ الثأر من الدروز، فأخذوا يشترون الأسلحة، وكثرت حوادث القتل والسّلب، فأرسل التلاحقة رسولاً إلى الأمير ملحم الشهابيّ ليمتنع عن الحرب فرفض، واشتعلت الفتنة في نيسان (إبريل) ١٨٤٥، حينما اعتدى مسيحيّو المعلّقة على بعض المارّة الدروز وقتلوا منهم ثمانية، فخفّ لنجدتهم دروز الغربَين والمعلّقة، فدحروا المسيحيّين إلى جهة الناعمة، وقتلوا بعضهم، فتحصّن المسيحيّون في دير القمر، فهاجمهم الدروز واستولوا على البلدة بعد وقوع قتلى منهم، ودخلوا السراي وقتلوا كثيرًا من المسيحيّين. ثمّ امتدّت المعارك إلى معظم القرى المسيحيّة، وكان النصر سجالاً بين الطائفتَين، وأُصيبت القرى الدرزيّة والمسيحيّة بويلات هذه الحرب المشؤومة، واشترك المتاولة بالحرق والنهب، وقدم ناصيف النكديّ بألفَي مقاتل من دروز حوران، فتغلّبوا على مسيحيّي وادي التيم وأمرائهم الشهابيّين، ثمّ قصدوا دخول زحلة فحال دون ذلك تدخّل القنصل الانكليزيّ... وفي تشرين الأوّل (أكتوبر) قدم شكيب أفندي مندوب السلطان ووضع حدًّا لهذه المذابح التي ذهب ضحيّتها ثلاثة آلاف مسيحيّ وأربعمئة درزيّ، فجمع سلاح الدروز ونهب دار المختارة واعتقل بعض أعيان الدروز وفرّ بعضهم إلى جبل حوران، واختبأ بعض أعيان الطائفتَين إلى أن أُذيع الأمان، فتشكّلت لجنة من أربعة أشخاص، مثّل الدروز فيها الشيخان حسين تلحوق وأحمد تقي الدين، فقدّرت زيادة محروقات ومسلوبات المسيحيّين بستة ملايين قرش، فدفع شكيب أفندي القسط الأوّل وقدره مليون قرش من مال الدولة، أمّا زيادة القتلى فقد ذهبت هدرًا لأنّ المسيحيّين كانوا المسبّبين لتلك المذابح... ثمّ عُيّن الأمير أمين أرسلان قائمقامًا للبلاد الواقعة جنوبي طريق دمشق ـ بيروت، والأمير حيدر اللمعيّ قائمقامًا للبلاد الواقعة شماليه، وتألّف لكلّ قائمقام مجلس من الطائفتَين، وعُيّن سعيد بك جنبلاط

مديرًا على الشوفَين، وناصيف بك نكد مديرًا على المناطق (وذلك بعد جلاء آل نكد عن دير القمر بأمر الدولة، وإقامتهم في كفرفاقود) وخطّار بك عماد مديرًا على العرقوب الأعلى، وعُيّن لكلّ مقاطعة وكيلاً عن الطائفة التي تكون أكثريّة فيها، وأقام الشيخ محمّد القاضي (من السمقانية) قاضيًا شرعيًّا للدروز وقاضيًا حقوقيًا بدائيًا، وعيّن مجلسًا كبيرًا رئيسه الأمير ملحم حيدر أرسلان، وأعضاؤه ستّة: درزيّ، وسنّيّ وشيعيّ، ومارونيّ، وأرثذوكسيّ وكاثوليكيّ. وفي سنة ١٨٤٩ جرى إحصاء رجال لبنان، فبلغ عدد المسيحيّين ٨٧,٧٢٧ والدروز ١٢,٠٢٣[١] والمتاولة ٦,٧٤٤[٢].

ويختم المحقّق الموحّد الدرزيّ رواية أحداث فتن الأربعينات من القرن التاسع عشر بأنّه مرّت بعد ذلك حقبة من الهدوء، عُني بها اللبنانيّون بتعمير مناطقهم وتنظيم شؤونهم الاقتصاديّة والثقافيّة، كان أبرزها سعي بعض المفكّرين من مختلف الطوائف لتأسيس "الجمعيّة العلميّة السوريّة" سنة ١٨٥٧، وكان من مؤسّسيها الأمير محمّد أرسلان الذي ترأسها عدّة سنوات، وكان من أهداف الجمعيّة تعزيز حركة العرب القوميّة.

---

١ ـ هذا هو الرقم الذي ورد في المرجع (١٢,٠٢٣) ولكنّه رقم خاطئ على ما يبدو، إذ يجب أن يكون عدد الموحّدين الدروز أكثر من ذلك في تلك الحقبة، راجع الحاشية التالية.

٢ ـ أمّا حتّي (لبنان في التاريخ ص٥٢٨) فيذكر أنّ عدد سكّان لبنان في هذه الحقبة كان: ٢١٣،٠٧٠ نسمة، منهم ٩٥,٣٥٠ من الموارنة، و ٤١,٠٩٠ من الروم الكاثوليك، و٢٨,٥٠٠ من الروم الأرثذوكس، و ٣٥,٦٠٠ من الموحّدين الدروز، و١٢,٣٣٠ من الشيعة، و ٢٠٠ يهودي.

فتنة ١٨٦٠

يقدّم حتّي، لفتنة عام ١٨٦٠ بأنّه "لم يكن هناك من أسباب مباشرة لنشوب "مذابح الستّين" أو "حركة الستّين" كما تعرفها العامّة، بل كان هنالك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّها كانت فتنة مدبّرة، بدأت في شهر نيسان (إبريل)، وظلّت نيرانها تستعر حتّى آخر شهر تمّوز (يوليو) من تلك السنة المشؤومة. وكانت الحوادث التي أدّت إلى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صبيّان، مارونيّ ودرزيّ، كما يتشاجر الصبيان. ولكنّ هذا الحادث أدّى إلى قتال بين دروز القرية والنصارى فيها، وأسفر عن مقتل عدد من الدروز أكبر من عدد القتلى من النصارى. وقد حدثت مناوشات متقطّعة بين الدروز والنصارى في المناطق التي يقطنها من الفريقَين. ثمّ حلّ الشتاء، وكان شتاءً باردًا قاسيًا، فخُيّل للناس أنّ هذه الفترة من الهدوء النسبيّ كانت فترة تهيؤ واستعداد لأمر لا مفرّ منه. وكان مشايخ الدروز يتّصلون علنًا بخورشيد باشا في بيروت، ويجرون معه مفاوضات. ويُقال إنّهم تسلّموا أسلحة بواسطته. ولمّا نشبت الثورة شعر كلّ مسيحيّ قاطن في المنطقة الدرزيّة أنّ حياته في خطر شديد، وفي خلال أسابيع قليلة، أُحرق أكثر من ستّين قرية من قرى المتن والشوف. والجيش التركيّ النظاميّ (باش بزق) فإنّه لم يحاول أن يوقف القتال، بل كان موقفه على نقيض هذا، فإنّه أساء معاملة الهاربين اللاجئين إلى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه من ثياب وأموال"[١].

أمّا وجهة النظر الموحّدة الدرزيّة في هذه الأحداث، فتقول:

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١.

إنّ المسيحيّين كانوا يشاهدون قلّة الدروز، فقرّروا القضاء عليهم ليتخلّصوا من مزاحمتهم بحكم لبنان، وشجّعهم على ذلك القنصل الفرنسي "دريكالو" المقيم في صيدا، فحصلت بعض الاعتداءات الفرديّة من قبل موارنة جزّين ودير القمر؛ ثمّ هجم مسيحيّو المتن (ربيع ١٨٦٠) على دروز منطقتهم، فتغلّبوا عليهم وحرقوا وسلبوا. فخفّ لنجدة المغلوبين دروز الجرد والغرب، فانتصروا على الموارنة وأحرقوا منازلهم في عدّة قرى، فقدم لنجدتهم من مسيحيّي زحلة وكسروان، وقدم الدروز من العرقوب لنجدة إخوانهم فانتصروا. ثمّ نشب القتال بين دروز العرقوب والمناصف بقيادة خطّار بك عماد (الملقّب بسيف الدروز القاطع) وبين المسيحيّين في ضهر البيدر. فانتصر الدروز بعد قتال دام ثلاثة أيّام، وألجأوا المسيحيّين إلى شتورة. وفي الغرب والساحل انتصر الدروز بقيادة الأميرَين محمّد وحمّود أرسلان. وفي الشحّار تغلّب الدروز على المسيحيّين فحمى بعض المشايخ كثيرًا منهم فاضطرّوا للنزوح صوب بيروت. أمّا مسيحيّو جزّين وبكاسين ومرجعيون وبعض القرى، فإنّهم هاجموا مزارع نيحا وباتر فانتصروا، ولكن وردت نجدات الدروز من الشوف والقرى المجاورة فهُزم المسيحيّون، وتركوا منازلهم وتشتّتوا نحو صيدا والجهات الأخرى. وقد اشتهر في هذه المعارك سليم بك شمس. وعندما انتشر نبأ مذبحة جزّين، سار يوسف كرم - بتحريض المطران طوبيّا - بمسيحيّي كسروان لنصرة إخوانهم في الشوف والمتن، فعند وصولهم إلى بكفيا جاءتهم أوامر قنصلَي فرنسا والنمسا بالعدول عن الهجوم فعادوا مكرهين. وكان قد اجتمع في دير القمر نحو ستة آلاف مارونيّ وأحرقوا (خلوات الدير) فاجتمع دروز المناصف والشحّار بقيادة الشيخ بشير نكد، ودروز العرقوب الجنوبيّ بقيادة ملحم بك عماد، ومن بعقلين والشوف، فهاجموها من ثلاث جهات ودخلوها عند حلول الظلام، بعد قتال عنيف، فأشعلوا النار في بعض بناياتها ثمّ تراجعوا لقوّة الدفاع بعد وقوع ٥٢ قتيلاً منهم خمسة موارنة. أمّا في حاصبيّا، فكان والي دمشق قد عيّن الأمير أحمد سعد الدين شهاب حاكمًا للقضاء، وطلب منه جميع الأموال الأميريّة، فتألّب عليه دروز راشيّا مع دروز حاصبيّا ومجدل شمس الشوف، فتحصّن الشهابيّون

والمسيحيّون في السراي، وقتلوا برصاصهم بعض الدروز، بينهم شيخ مجدل شمس كنج أبو صالح، فكسر الدروز باب السراي بالفؤوس ودخلوها تحت وابل رصاص المحصورين، وقتلوا ٥٠٠ مسيحيّ بينهم سعد الدين، وقُتل من الدروز أربعون. وكان خطّار بك عماد قد استقرّ في قبّ الياس (البقاع) وكاتب دروز جبل حوران ومختلف المناطق لمهاجمة زحلة، فلبّوا الدعوة بقيادة اسماعيل الأطرش، وأثناء مرورهم من راشيّا اقتتلوا ومسيحيّيها وأمرائها، فتغلّبوا عليهم ولم ينجُ منهم سوى أميرَين... وقيل إنّ عددًا من المسيحيّين قد استغاث بالدروز فأغاثوهم وردّوا عنهم اعتداء إخوانهم... وعند وصول دروز جبل حوران إلى البقاع، نزلوا ضيوفًا على السنيّين، فبالغوا في إكرامهم نظرًا لِما كانوا يقاسونه من استبداد الملاّكين الزحليّين ومظالم ذوي الأمر منهم... فنشب القتال بينهم وبين ألف وثلاثماية زحلاويّ، فتغلّبوا عليهم وغنموا سلاحهم وقتلوا ثلاثماية... وبعد أن اكتمل حشد الدروز من الجبل ولبنان ووادي التيم والإقليم، هاجموا زحلة من ثلاث جهات وعددهم ٣,٢٠٠ مقاتل، فقابلهم مقاتلوا زحلة وعددهم ستة آلاف بقتال عنيف دام حتّى آخر النهار، ففرّ أهالي زحلة ودخلها الدروز، ثمّ أعادوا الكرّة في اليوم التالي وأعملوا فيها السلب والحريق، وقد قتل ٩٠٠ مسيحيّ و٢٧٠ درزيًّا. فلمّا شاهد المتاولة (الشيعة) هزيمة المسيحيّين، هجموا بقيادة آل حرفوش على قرى النصارى وأحرقوها وقتلوا خلقًا كثيرًا. وعندما علم مسلمو دمشق بهذه الانتصارات (الدرزيّة) هاجموا أحياء النصارى وأشعلوا فيها النيران وفتكوا بالكثيرين. ثمّ هاجم الدروز دير القمر وكانت ما تزال مستعصية عليهم ومتحصّن فيها أربعة آلاف مسيحيّ؛ فدخلها الدروز وقتلوا وسلبوا وأحرقوا، وبذلك اختُتمت تلك الفتن التي قضت على ٣,٥٠٠ مسيحيّ و٤٠٠ درزيّ، ودمّرت ستّين قرية وأتلفت الأملاك والأرزاق، فخسر اللبنانيّون أموالهم ومركزهم الأدبيّ[١]...

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص ٨٦ ـ ٨٨.

هذا ما فصّله باحث موحّد درزيّ حول فتن القرن التاسع عشر بين الموحّدين الدروز والموارنة في لبنان، ونلاحظ أسفه وتجرّده في روايته لِما حصل. ويجدر التساؤل هنا: ماذا كانت نتيجة سنوات الفتنة في لبنان (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) على الموحّدين الدروز؟!

يرى أحد واضعي تاريخ لبنان الحديث أنّه "قُتل من نصارى لبنان في قلاقل ١٨٦٠، ما قُدّر بأحد عشر ألفًا، وهلك من الجوع أربعة آلاف، وتشرّد نحو مئة ألف. وبمذبحة دير القمر، انطوى وجه العنف من تلك القلاقل. وكان (الموحّدون) الدروز بدورهم قد خسروا عددًا من القتلى... وفي تمّوز (يوليو) ١٨٦٠ أمرت الحكومة الفرنسيّة بإرسال سبعة آلاف جنديّ من جنودها إلى بيروت تحت إمرة الجنرال "دي بوفور دوتبول" بحجّة مساعدة الباب العالي على إعادة توطيد النظام. وإذ توقّع الباب العالي تدخّلاً أوروبيًّا مسلّحًا. أوفد وزير الخارجيّة فؤاد باشا إلى سورية، مزوّدًا بسلطة كاملة لتسوية الأمر في دمشق وجبل لبنان. وعندما وصل فؤاد باشا بيروت في ١٧ تمّوز (يوليو)، كانت البوارج الحربيّة البريطانيّة والفرنسيّة وسواها من البوارج الأوروبيّة تمخر مياه الساحل اللبنانيّ من نحو أسبوعَين. وفي ١٦ آب (أغسطس) نزلت الساحل أولى الفرق العسكريّة الفرنسيّة بقيادة الجنرال "دوتبول" وخيّمت في حرج الصنوبر، بضاحية بيروت، وكان أمام فؤاد باشا شهر واحد لتسوية الأمور"[1].

أمام هذا الاستنفار الدوليّ "انتقل كثير من (الموحّدين) الدروز إلى جبل حوران، منتظرين نتيجة التحقيقات التي بدأها فؤاد باشا بدعوة زعماء (الموحّدين) الدروز والمسيحيّين، فاعتقل زعماء (الموحّدين) الدروز... ووعد المسيحيّين بإعانتهم

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص١٤٢ ـ ١٤٤.

على بناء مساكنهم المهدّمة، وذهب إلى دمشق وأعدم من تسبّب بمذابحها، ثمّ عاد إلى بيروت واجتمع بممثّلي إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا، وتألّفت لجنة لتقدير مسلوبات ومتلوفات مسيحيّي لبنان، فبلغت مليون ونصف مليون ليرة ذهبيّة، فأُعيد الكثير من المسلوبات والباقي تقرّر دفعه من تحصيل الأموال الأميريّة المتبقّية على (الموحّدين) الدروز، ومن ضريبة قدرها ١,٦٦٤ قرشًا فرضت على مكلّفي الطوائف الإسلاميّة. ثمّ اعتقل الجند العثماني ١,١٥٠ رجلاً (موحّدًا) درزيًّا سجنهم في المختارة... فحكم على ٥٧ رجلاً منهم، ونفي إلى طرابلس الغرب ٤٠٠ رجل، وإلى بلغراد ٧٠، من دروز لبنان ووادي التيم ودمشق وجبل حوران، وبعد أن أقاموا أربع سنوات أعادتهم الدولة إلى أوطانهم وعاد من جبل حوران كثير ممّن هاجروا إليه عند قدوم الجيوش الأجنبيّة إلى لبنان. أمّا أملاك (الموحّدين) الدروز التي أحرقها المسيحيّون، والتي استولوا عليها في دير القمر وبرمّانا وبيت مري وغيرها من القرى التي نزحوا منها لقلّة عددهم فيها، فقد دُفع عنها تعويض إبتاع به وكيل الطائفة سعيد تلحوق منزلاً في بيروت سُمّي "مجلس البلاد" ثمّ حوّله عارف بك النكدي إلى "بيت لليتيم الدرزي"[1].

وبعد مداولات بين ممثّلي الدول الست الكبرى في شأن تنظيم لبنان، تمّ التوصّل إلى وضع نظام لبنان الأساسيّ، بكفالة تلك الدول، وهو النظام الذي حوّل لبنان إلى متصرفيّة.

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص٩١ ـ ٩٢.

المُوَحِّــدُون الــــدُّرُوز
فِي متَصرّفيَّة جَبَلِ لُبنَان

نصّ نظام لبنان الأساسيّ على أن يكون حكم لبنان لرجل مسيحيّ، من غير اللبنانيّين، وقسّم لبنان إلى سبع قائمقاميّات، منها أربع مارونيّة، وواحدة أرثذوكسيّة، وواحدة كاثوليكيّة، وواحدة موحّدة درزيّة، هي قائمقاميّة الشوف. وجعل لكلّ قائمقاميّة مجلس إدارة، ومجلس محاكمة، يؤلّف كلّ منهما من ستّة أعضاء، ثلاثة من الطوائف الاسلاميّة، وثلاثة من الطوائف المسيحيّة، ويكون القائمقام رئيسًا للمجلسَين.

عُيّن الأمير ملحم أرسلان قائمقامًا للشُّوف، وجُعلت بعقلين المركز الصيفيّ والشويفات المركز الشتويّ للقائمقاميّة، التي يتبعها ١١ مديريّة، منها أربع للمسيحيّين، وسبع للموحّدين الدروز. فكانت مديريّة الشوف الحيثيّ لآل جنبلاط، ومديريّة الغرب الأقصى لآل أرسلان، ومديريّة المناصف لآل نكد، ومديريّة العرقوب الجنوبيّ لآل العماد، ومديريّة الغرب لآل تلحوق، ومديريّة الجرد الأعلى لآل عبد الملك، ومديريّة العرقوب الأعلى لآل العيد وآل أبي علوان.

تعاقب على المتصرفيّة سبعة متصرّفين بين ١٨٦٠ و١٩١٤. كان يعاونهم مجلس إدارة مؤلّف من ١٢ عضوًا: أربعةٌ موارنة، ثلاثة موحّدون دروز، اثنان روم أرثذوكس، سنّيّ واحد، شيعيّ واحد، وكاثوليكيّ واحد.

في هذه الحقبة، هاجر عدد من الموحّدين الدروز إلى مصر وإلى أميركا بسبب الضائقة الاقتصاديّة من جهة، وبهدف الابتعاد عن أرض الشدائد والقتال والحقد من جهة أخرى. وفي هذه الأثناء، نشأ تزاحم من جديد على القيادة، فراحت أسرتا أرسلان وجنبلاط تتنافسان على منصب القائمقاميّة. هذا التزاحم السياسيّ، هو الذي سوف يستمرّ في حقبة تاريخ لبنان المعاصر.

فِي جَبَلِ حُورَان

إذا كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد امتاز، درزيًّا، بتحويل نشاط الموحّدين الدروز إلى جبل لبنان، فهذا لا يعني أنّ هذا الشعب قد عرف في موطنه الثاني: جبل الدروز في حوران، حالاً من الاستقرار والطمأنينة الكاملَين.

فما أن قضى العثمانيّون على السيطرة المصريّة للبلاد السوريّة بانسحاب إبراهيم باشا في ١٩ شباط (فبراير) ١٨٤١، حتّى راح الموحّدون الدروز يتحصّنون ضدّ السيطرة العثمانيّة التي تحقّقت بفضل مساندة دول الغرب لبني عثمان ضدّ المصريّين في تلك الحقبة من التاريخ. وإذا كان الموحّدون الدروز قد تعرّضوا لأبشع المظالم على يد إبراهيم باشا المصريّ، فهذا لا يعني أنّهم سيقبلون بالسيطرة العثمانيّة عليهم، إنّما هذا الشعب قد رفض أبدًا سيطرة الغريب عليه متى استطاع.

كانت أولى المنازعات المسلّحة بين الموحّدين الدروز في جبل حوران والسلطة العثمانيّة الجديدة في العام ١٨٥٢، عندما رفض الموحّدون الدروز دفع الأموال الأميريّة لوالي دمشق: محمّد باشا القبرصيّ، الذي سار يومها بجيش لإخضاعهم، ففاجأه مقاتلو الموحّدين الدروز في إزرع بقتال دام ساعات قليلة، انتهى بهزيمة الباشا. وقد عُرفت هذه المعركة في تاريخ الموحّدين بموقعه: ساري عسكر.

وإذ أدّت وساطة سعيد بك جنبلاط، من مشايخ الموحّدين في لبنان، مع واليَي بيروت ودمشق، إلى قبول الموحّدين في حوران بإعادة ما غنموه في هذه المعركة من أسلحة وذخائر إلى الدولة، عمد الأتراك لإثارة الحوارنة السنّة، ولإغرائهم بالمساعدة على استخلاص قرى الجبل الغربيّة التي انتزعها منهم الموحّدون الدروز، فحصلت بينَ الفريقَين معركة في اللجاه في العام ١٨٥٦، انتصر فيها الموحّدين الدروز،

وعُرفت بموقعة: امسكي[1]. وكان الموحّدون في حوران، قبل هذا التاريخ، قد أوجدوا نوعًا من التعاون مع بدو الجبل، الذين رافقوهم في حروبهم ضدّ مسيحيّي لبنان طمعًا بغنائم الحروب، فصار عربان الجبل يساعدون الموحّدين الدروز في بعض حروبهم ضدّ أي كان، بمَن فيهم سنّة حوران. وقد اشتركت قبائل البدو مع الموحّدين في الجبل في استقبال دروز لبنان اللاجئين إلى هناك بعد أحداث ١٨٦٠ التي حصلت في لبنان، وكان عدد هؤلاء النازحين حوالى ثلاثة آلاف رجل.

في العام ١٨٦٤، جعل العثمانيّون جبل الدروز قضاء تابعًا لدمشق، وفرضوا عليه رسومًا أميريّة باهظة، تكفّل ولاة الجبل، من آل حمدان الموحّدين الدروز، بدفعها للسلطنة. وقد تحمّل الموحّدون في بادئ الأمر مظالم آل حمدان، الذين كانوا يجبرون كلّ قادم جديد للاستيطان في الجبل، على الاعتراف بزعامتهم المطلقة. بيد أنّه بعد حين، راحت الأُسر الموحّدة الدرزيّة تتّحد للحدّ من استبداد الحمدانيّين الذين كانوا يأخذون إنتاج الأراضي من عامة الموحّدين الدروز، متصرّفين بالجبل وكأنّه ملك لهم.

أمام هذا الواقع، قام رجل يُدعى اسماعيل الأطرش[2]، كان قد حقّق ثروة وافرة، واشتهر برجاحة عقله ومضاء عزيمته وتفانيه بالدفاع عن كرامة الموحّدين الدروز، فتزعّم الناقمين على الاستبداد الحمدانيّ. وبعد أن جمع الأطرش الناقمين حوله، تمكّن من احتلال قرى الحمدانيّين، وأهمّها: عرى والسويداء، احتلالاً سلميًّا، في العام

---

١ - كرد عليّ، خطط الشام، ٣: ٨٠.

٢ - ينتسب آل الأطرش الموحّدون الدروز إلى جدّهم الأعلى علي بك العكس، من الجبل الأعلى، نزح أحد أحفاده إلى برمّانا في لبنان، ثمّ انتقل بنوه إلى بقعسم من إقليم البلاّن، ومنها إلى مرجانة بالغوطة، حيث عجزوا عن صدّ عرب عنزة، فانتقلوا إلى عاهرة، ومنها ذهب الشيخ اسماعيل إلى مزيد الحمدان في السويداء، فأعطاه القرية مقابل مائة رأس ماعز، وأصبح ولده شيخًا، وكان أطرش، وقد رُزق أربعة أولاد، أكبرهم اسماعيل، الذي تَكنّى بالأطرش نسبة لأبيه.

١٨٦٩. وعندما استولى الأطرش وأنصاره على هذه القرى، لجأ الحمدانيّون منها إلى القرى الشماليّة الخاضعة لنفوذ آل عامر. وبذلك، فرضت الأسرة الطرشانيّة سيطرتها على القرى الجنوبيّة، بينما استقلّت الأسر القويّة بزعامة القرى الشرقيّة والشماليّة والغربيّة.

في هذه الأثناء، استمرّت المنازعات بين الموحّدين الدروز وسنّة حوران الذين سعوا مع الدولة العثمانيّة لاسترجاع القرى التي تملّكها الموحّدون الدروز بقوّة السيف. وعندما رفض الموحّدون تسليم هذه القرى، ولسان حالهم: إنّ ما أُخذ بالسَّيف لا يُستردّ إلاّ بالسَّيف، ساقت الدولة عليهم قوّة بقيادة جميل باشا في العام ١٨٧٦، قابلوها عند نبع قراصة، فاز فيها الموحّدون الدروز بعد تكبّد الطرفَين مئات القتلى.

وبعد عدّة مناوشات، قرّرت الدولة تأسيس قائمقاميّة جبل الدروز، وقوامها ثماني نواحي، على أن يكون القائمقام والمديرون من الموحّدين الدروز. وهكذا أدخلت الدولة العثمانيّة أوّل نظام حكوميّ إلى الجبل، حيث كان عدد الموحّدين الدروز يومها حوالى ٢٥ ألف نسمة[١].

إشترك بعض أعيان بني الأطرش في حكم القائمقاميّة، ما جعل الرأي العامّ في وسط الموحّدين الدروز ينقم عليهم ويتّهمهم بأنّهم اتّبعوا نظام الإقطاع الحمدانيّ، إذ اعتبروا القرى الموجودين فيها ملكًا لهم، يسمحون لمَن يشاؤون باستملاك المنازل والأراضي، وينتزعونها ممَّن يشاؤون.

في هذه الأجواء، تألّفت جمعيّة سريّة كان رائدها: سعيد نصر، يسانده أبو طلال وهبه عامر، اشترك باجتماعها المنعقد في نجران زعماء أُسر: عزّام، قنطار، جربوع،

---

١ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٣: ١١٤ و١١٥.

حجلة، زهر الدين نصر، عطواني، حمزة، عريج، الزاقوط، وغيرها. وقد انتهى الاجتماع بميثاق جاء فيه: "بصفتنا أبناء عمٍّ من لحمٍ ودم، سنتعاهد بالله على أنّ كلّ (كلاً) منّا يهدر دمه في سبيل تعزيز أيّ فرد من أفراد هذه العشائر المتضامنة بالدم والنار"... وسرعان ما راحوا يكتّلون أفراد الشعب ضدّ آل الأطرش. وقد انضمّ إلى هذه الفئة الشعبيّة: شبلي الأطرش، الذي كان يُزاحم شقيقه إبراهيم، شيخ السويداء، على الزعامة. وهكذا نشبت في القرى التي كان يتزعّمها آل الأطرش معارك أهليّة في العام ١٨٨٥، ذهب ضحيّتها عدّة قتلى، واضطرّ بعض الزعماء للجوء إلى الحكومة في قلعة المزرعة. وقد آثر الشيخ شبلي الأطرش الابتعاد عن هذه المعمعة، فسار إلى قرية خبب، أمّا الشيخ إبراهيم الأطرش فقصد دمشق مستنجدًا بالحكومة التي أرسلت ستّ كتائب مشاة، وآلاي فرسان مع المدافع.

تعرّضت الحركة الشعبيّة الموحّدة الدرزيّة لهذه الحملة قرب ثكنة المزرعة، وإذ قابلهم العسكر بضرب المدافع، انهزم الموحّدون الدروز بعد أن تحمّلوا خسائر فادحة، ودخل الجند السويداء، حيث سارعوا إلى بناء ثكنة عسكريّة تمّ تشييدها عام ١٨٩١[١].

فور دخول عسكر الدولة إلى السويداء، تمّ اعتقال زعماء الحركة الشعبيّة. وبعد مفاوضات أجرتها الحكومة، عاد آل الأطرش إلى قراهم، مقابل دفع الديّة عن جميع القتلى، وتوزيع نصف أراضيهم على الشعب. وهكذا أصبح الفلاّح مالكًا ثابتًا في بيته، كما هي الحال في جبل لبنان بعد صدور نظام لبنان الأساسيّ عام ١٨٦٠.

إلاّ أنّ هذا الواقع لم يُرِح الموحّدين الدروز من مشاكل الجوار المزمنة، ففي العام ١٨٨٨، نشبت بينهم وبين الحوارنة السنّة معركة في الشقراويّة، عندما شنّ الحوارنة

---

١ - راجع: كرد عليّ، خطط الشام، ٣: ١١٠ - ١١١.

هجومًا بقصد الاستيلاء على بعض المناطق. وقد انتصر الموحّدون. وفي العام ١٨٩٣، هاجم الموحّدون خمس قرى لسنّة حوران، إثر خلاف بين الطرفين، فجرّدت الدولة عليهم ٣٠ ألف جنديّ بقيادة أدهم باشا لتأديبهم. وقد قابل الموحّدون تلك الحملة عند حدود الجبل، ونشبت بين الفريقَين معارك في: قراصة، نجران، السجن، وأم العلق. وبنتيجة تلك المعارك، دخل الجيش السويداء، ثمّ عقد الصلح بين الموحّدين الدروز والحوارنة، وصدر عفو عامّ، لم يمنع من غدر الدولة بالموحّدين الدروز بنفيها لشبلي الأطرش الذي كان تولّى الزعامة الأولى بعد وفاة شقيقه إبراهيم سنة ١٨٩٢. وكذلك نفت وهبة عامر، و ٢٠٠ من وجهاء الموحّدين الدروز وشبابهم الذين وصل بعضهم إلى جزيرة رودوس، ونُفِّذ التجنيد الإجباريّ. وبنتيجة هذا الإجراء، نشبت معارك عديدة بين ١٨٩٤ و١٨٩٥، تمكّن بعدها الأتراك من تثبيت أقدامهم في الجبل، ومن تقسيمه سنة ١٨٩٦ إلى خمس نواح، لكلّ منها مدير، وهي: السويداء، صلخد، شهباء، ملح، وعاهرة. بيدَ أنّه لم يمضِ وقت طويل حتّى عادت القلاقل، وكان أبرزها، معركة جرت قرب عرمان، كبّد الموحّدون بخلالها جيش الدولة حوالى ألف قتيل، بعد ٢٨ يومًا من المعارك. ما جعل تركيا تجرّد عليهم سنة ١٨٩٧ نحو ٥٤ كتيبة بقيادة المشير طاهر باشا، فنقل الموحّدون عيالهم إلى منطقة اللجاه الحصينة، واستعدّوا لمواجهة القوّات التي زحفت من حدود حلب حتّى حيفا، واشترك فيها مع الدولة عرب الشمال والكرد والجركس والحوارنة، فوقعت معركة في تلّ الحديد، عجز فيها الموحّدون عن منع العسكر من دخول السويداء. فانتقل المدافعون إلى اللجاه، التي هاجمها الجيش، واشتبك مع الموحّدين في معركة دارت رحاها قرب شهباء، دامت ستّ ساعات، وانتهت بما يشبه الصّلح. وبعد أن أرسلت لهم الحكومة الأمان، عادوا إلى قراهم، فغدرت بهم الدولة، ونفت منهم المشهورين بعدائهم لها. فهاج الجبل سيّما

بعد وصول الهاربين من المنفى وبينهم نسيب الأطرش، وهبه عامر، قفطان عزّام، سلامة الأطرش، وأخبروا عن وفاة الشيخ الروحي: حسن الهجري. كان ذلك في غضون العام ١٩٠٠.

إزاء هذا الواقع، تقدّم الموحّدون الدروز من الدولة بمطالب مرفقة بإنذار، ملخّصها: "إرجاع المنفيّين إلى الجبل، رفع التجنيد الإجباريّ عن الدروز، الإعتراف بالقانون العشائريّ المتّبع، وفي حال الرفض، استعدادهم للجهاد حتّى الموت"[١].

لدى انقضاء مهلة الإنذار للحكومة دون تلقّي الجواب الشافي، راح الموحّدون الدروز يقومون بعمليّات العصابات ضدّ دوريّات الجيش والمراكز الرسميّة. ولمّا يئست الدولة العثمانيّة من معالجة أمرهم، رفعت عنهم الضريبة، وأطلقت سراح يحيى الأطرش، وأعادت شبلي العريان وسائر المنفيّين بعد أن وهبهم السلطان عبد الحميد أموالاً طمعًا بولائهم، على أنّهم صرفوا هذه الأموال على شراء السلاح الحديث تحسّبًا للمستقبل.

إستقرّت الأمور في الجبل حتّى العام ١٩٠٣، حيث شرعت الحكومة العثمانيّة ببناء قلعة شرقيّ السويداء. وسرعان ما راح الموحّدون الدروز يغيرون على العمّال، فأرسلت الدولة قوّة عسكريّة من دمشق لصدّ غارات الموحّدين الذين قضوا على نحو خمسماية فارس منها في موقعة بصر الحرير. إلاّ أنّ انشغال تركيا بالظروف الدوليّة الخطيرة، لم يسمح بردّة فعل تُذكر من قِبَل العثمانيّين.

وبحلول العام ١٩١٠، كثرت الأعمال العسكريّة من قِبَل الموحّدين، ضدّ جيرانهم الحوارنة السنّة من جهة، وضدّ البدو من جهة ثانية، وضدّ عساكر الدولة من جهة

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٤٤.

ثالثة. فجرّدت عليهم الدولة حملة عسكريّة قوامها ٣٠ ألف جنديّ بقيادة سامي باشا الفاروقي. وفي الوقت نفسه، أوفد مطران حوران: نيقولاوس، في مهمّة سلميّة، مصحوبًا بكتب العفو والأمان للزعماء، ثمّ أذاع في أنحاء الجبل البيان التالي:

لمّا كانت الدولة أمًّا شفوقة ورحومة على رعاياها، وخصوصًا الطائفة (الموحّدة) الدرزيّة التي تعتبرها يدها اليمنى، لذلك تقرّر:

١ ـ كلّ مَن سلّم من الزعماء نفسه وسلاحه إلى مركز القيادة بالسويداء، يُعفى عنه.

٢ ـ مَن تمرّد ولم يسلّم يُجازى بالإعدام، مع تحويل جميع أملاكه الى الدولة العثمانيّة.

٣ ـ قرّرت الدولة إعطاء مهلة ثلاثة أيّام فرصة للتّسليم من تاريخ هذا المنشور. وقد وقّع هذا المنشور: سامي قائد حوران[١].

إنقسم الموحّدون الدروز إلى رأيَين، فمنهم مَن فضّل تسليم السلاح، أمّا الفريق الآخر، فاشتبك مع جيش الدولة بعد انقضاء مهلة الإنذار. وكانت المعركة الحامية جنوبيّ قرية الكفر، فأسفرت عن انكسار الموحّدين الدروز، بعد سقوط مئات القتلى من الطرفَين. وأحرق الجند عددًا من القرى، إضافة إلى الكفر، بعد أن نهب ما فيها. أمّا الذين خُدعوا وحضروا إلى السويداء لتسليم أنفسهم والسلاح، فقد نُقلوا إلى دمشق، فحكم عليهم المجلس العسكريّ بالإعدام مطلع سنة ١٩١١، وهم: ذوقان الأطرش، مزيد عامر، هزاع عز الدين، حمد المغوش، يحيى عامر، ومحمّد القلعاني. أمّا يحيى الأطرش فقد افتدى نفسه بدفع ثلاثة آلاف ليرة ذهبيّة للقائد، وعُفي عن قفطان عزّام وسواه، ونُفي وعُذّب الكثيرون منهم. وبعد إحصاء نفوس الجبل، أخذت الدولة العثمانيّة

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٤٧.

بواسطة القرعة مئات من شبّان الموحّدين الدروز للتجنيد الإجباريّ. وقد اشترك هؤلاء مع الجيش التركيّ في حروب البلقان. ولم يعد مَن لم يمت منهم إلى الوطن إلاّ قبيل نشوب الحرب العالميّة الأولى في العام ١٩١٤[١].

---

١ - راجع: الصغير، بنو معروف، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

الفَصلُ السَّابِع

المُوَحِّدونَ الدُّروزِ في التَّاريخِ المُعَاصِر

فِي الحَربِ العَالمِيَّة الأولى وتَداعِياتِهَا؛

إستِقلالٌ بينَ حَربَين عَالَمِيَّتَين؛

المُوحِّدُونَ الدُّرُوز وَالأَمرُ الوَاقِع.

فِي الحَربِ العَالمَيَّةِ الأولَى وتَدَاعِيَاتِهَا

عشيّة الحرب العالميّة الأولى، كان الموحّدون الدروز، إجمالاً، في لبنان وجبل حوران، في وضع المناهضين للدولة العثمانيّة، والعاملين على تقويض سيطرتها على المنطقة. وكانوا، والمسيحيّين، قد تناسوا أحقاد مذابح القرن التاسع عشر وضغائنه. وعند إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، وقد اشترك ستّون نائبًا من العرب بمجلس المبعوثين الذي كان عدده ٢٤٥ نائبًا، عُيّن من الموحّدين الدروز محمّد أرسلان في هذا المجلس. فكان من ضحايا عدوان الحامية التركيّة على مركز المجلس في استنبول في نيسان (إبريل) سنة ١٩٠٩، ثم عُيّن مكانه الأمير شكيب أرسلان. على أنّه عند تأسيس الجمعيّة القحطانيّة في العام ١٩٠٩ نفسه، وكانت تدعو لتشكيل مملكة عربيّة مستقلّة عن الأتراك، اشترك بعضويّتها الأميران أمين وعادل أرسلان.

وعندما اجتمع أعيان لبنان في بيروت وأبلغوا الوالي التركيّ مطالبهم الوطنيّة في العام ١٩١٢، اشترك الموحّدون الدروز اشتراكًا ملحوظًا في هذا الإجتماع.

بيد أنّه، مع نشوب الحرب العالميّة الأولى، احتلّت الدولة التركيّة المدن والمراكز اللبنانيّة، بحجّة حمايتها من دول الحلفاء، وأقدمت على إلغاء نظام المتصرفيّة، بعدما اتّهمت اللبنانيّين المجتمعين في بيروت، وبينهم أعيان الموحّدين الدروز، بالتشيع للحلفاء ونفت ١٢ منهم إلى القدس.

ومع أن جمال باشا قد حاول استمالة الموحّدين إليه عن طريق منح الأوسمة والرتب إلى بعض أعيانهم، فإنّهم بقوا على مناهضتهم لاستنبول.

وعندما ضربت المجاعة جبل لبنان بفعل الحصار التركيّ، هاجر إلى جبل الدروز في حوران عدّة آلاف من دروز لبنان ومسيحيّيه، طلبًا للقوت، ومنهم مَن بقي هناك على الرحب والسعة إلى أن انتهت الحرب.

أمّا في سوريّة، فإنّ أحرار الموحّدين الدروز، ومنهم: سلطان الأطرش، وحمد عامر، وفضل الله هنيدي، وحمد البربور، أخذوا ينظّمون الخطط لعرقلة حركات الجيوش العثمانيّة بين دمشق وفلسطين، كما رفضوا انخراط الموحّدين في الجيش التركيّ، بحجّة "العمل في أراضيهم لإخراج الحبوب للجيش". إلا أنّه لم يصل من هذه الغلال شيء للجيش. وكان جبلهم ملجأ لأحرار الشام على اختلاف مذاهبهم، لمّا فرّ هؤلاء من مظالم الأتراك. وكان هذا الجبل أقوى صلة بين جزيرة العرب والشام، خاصّة بعد استقلال الحجاز. وفيه تألّفت فرق من الموحّدين الدروز لإلقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركيّ. وعندما افتقرت مدينة دمشق للغذاء، قام الموحّدون ببيعها الحبوب التي منعوها عن الأتراك. ولولا ذلك لجاعت دمشق[1].

وأهمّ من هذا كلّه، أن الموحّدين الدروز قد اشتركوا بشكل ملحوظ في الثورة العربيّة ضدّ الأتراك بقيادة فيصل، الذي أوفد في ٢٨ آذار (مارس) ١٩١٨، مندوبًا عنه إلى الجبل، مرفقًا بالكتاب التالي نصّه:

> بما أنّنا انتدبنا السيد نسيب البكري إلى جهاتكم بالوكالة عنّا، ريثما نحضر بذاتنا ويحضر أخونا الأمير زيد، فيجب والحالة هذه، إجراء جميع التسهيلات التي اعتدنا

---

١ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٣: ١٤٦ ـ ١٤٧.

أن نراها من أمثالكم الموصوفين بالغيرة العربيّة والحميّة والشهامة العدنانيّة، بطرد أعدائنا وأعداء وطننا الذين إذا لم نتّحد على طردهم من ديارنا، فإنّهم لا يُبقون منّا فردًا، وإنّنا سنأتيكم قريبًا بجيوشنا ومعدّاتنا، هدانا الله وإيّاكم سواء السبيل، ووفّقنا للتغلّب على الأعداء لراحة العباد وتخليص البلاد [1].

أرسل فيصل هذا الكتاب من العقبة، حيث كان قد وصل بجيشه العربيّ. وبعد استلامهم الكتاب، توجّه فريق من الموحّدين الدروز إلى هناك، للاتّصال بالجيش العربيّ، وتقرّرت لهم الأسلحة والرواتب، وقد اشتركوا في الثورة، رغم معارضة فريق بقيادة الأمير سليم الحاكم. وعندما قدم الجيش العربيّ إلى الأزرق، عند حدود الجبل، واتّخذه مقرًّا للقيادة، وافاه الموحّدون إلى هناك، واشتركوا بقتال الأتراك. ثمّ شكّلوا، بقيادة سلطان الأطرش وحمد البربور، قوّة من الخيّالة لمهاجمة القوّات التركيّة في مراكزها. ومنذ ذلك التاريخ، ساهم الموحّدون الدروز مساهمة فعّالة في جيش فيصل، الذي، بعد دخوله دمشق في ١٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) واستتباب الأمر للحكومة العربيّة الجديدة، التي كان من أعضائها الأمير عادل أرسلان، معاونًا للحاكم العسكري العامّ ومستشارًا للملك فيصل، ورشيد طليع مديرًا للداخليّة، نفّذ فيصل ما كان قد تمّ الاتفاق عليه في الأزرق منذ البدء، "بجعل جبل الدروز مستقلاً سياسيًّا وأدبيًّا، مع العلاقات الوديّة والمحالفة العسكريّة بين الحجاز وسورية وجبل الدروز، وإنّه لا سلطة فعليّة أو عسكريّة لحكومتَي سورية والحجاز على جبل الدروز، بل إنّ الأمير فيصل، يُعتبر أميرًا على الجبل من الوجهة الأدبيّة والتشريفية" [2]، وعُيِّن الأمير سليم الأطرش من قِبَل حكومة فيصل حاكمًا على الجبل، وانتُخب نسيب بك الأطرش ليكون بدمشق عضوًا في مجلس الشورى.

---

١ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٤٩ ـ ١٥٠.

٢ ـ الصغير، بنو معروف، ص١٥٥.

وعندما عقد فيصل مع رئيس حكومة فرنسا: كليمنصو، معاهدة ١٦ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩١٩، التي اعترفت فرنسة بموجبها باستقلال سورية، جاء في المادّة الخامسة من تلك المعاهدة: "يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إداريّ داخل الدولة السوريّة تكون مجهَّزة بأوسع اسقلال يلتئم مع وحدة الدولة"[١].

إستقـــــــــلالٌ بَينَ حَربَين عَالَمِيَّتَين

ما إن دخلت فرنسا سورية إثر انتصارها على فيصل، حتّى تنادى الموحّدون الدروز وألّفوا حكومة خلال اجتماع عُقد في السويداء بتاريخ ٢٠ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٢٠، صدرت عنه مقررات عدّة؛ منها أنّ "حكومة جبل الدروز تقبل بالانتداب الفرنسيّ بشكل لا يمسّ استقلالها" وأنّ "حكومة جبل الدروز هي حكومة شوريّة ومستقلّة استقلالاً داخليًا تامًّا" وقد حُدّدت هذه الحكومة "المستقلّة استقلالاً داخليًّا تامًّا" على الشكل التالي:

"تضمّ هذه الحكومة كامل وعرتَي اللجاه والصفا، وتمتدّ إلى حدود دير عليّ من الجهة الشماليّة، وإلى الأزرق من الجهة الجنوبيّة". وفي ما يلي النصّ الحرفيّ لمقرّرات اجتماع السويداء:

١ ـ حكومة جبل الدروز هي حكومة شوريّة ومستقلّة استقلالاً داخليًّا تامًّا.

٢ ـ تقبل حكومة الجبل الانتداب الفرنسيّ بشكل لا يمسّ استقلالها.

---

١ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ٢: ١٧٢.

٣ ـ تضمُّ هذه الحكومة كامل وعرتَي اللجاه والصفا وتمتدّ إلى حدود ديـر علـيّ مـن الجهة الشماليّة، وإلى حدود الأزرق من الجهة الجنوبيّة.

٤ ـ يرأس هذه الحكومة حاكم أهليّ ينتخبه الاهالي وفقًا لقانون مخصوص مـرّة كـلّ ثلاث سنوات، ويكون لها مجلس استشاريّ كبير يُنتخب أعضاؤه وفقًا لقـانون مخصوص كلّ ثلاث سنوات.

٥ ـ يقوم هذا المجلس مقام المجلس الحاليّ ولا يقلّ أعضاؤه عن الثلاثين عضوًا.

٦ ـ تُعيّن وتحدَّد صلاحيّة ووظيفة كلّ من الرئيس والمجلس بقانون خاصّ يوافق عليه عموم البلاد بجمعيّة عامّة.

٧ ـ تستمدُّ حكومة الجبل ما تحتاج إليه من المساعدة الماليّة والفنيّة والاقتصاديّة من الحكومة المنتدَبة.

٨ ـ لا يحقُّ للحكومة المنتدَبة المداخلة بأمور الجبل الداخليّة ولا تجنيد سكّانه ولا نزع الأسلحة منهم ضمن المنطقة الإفرنسيّة.

٩ ـ يُعهد بأمور الجبل السياسيّة الخارجيّة لمأموري الحكومة المنتدبين السياسيّين ولا يكون للحكومة الوطنيّة مأمورون سياسيّون إلاّ في الشام وفلسطين وجبل لبنان.

١٠ ـ واردات هذه الحكومة تكون:

أ ـ ما يصيبها من حصّة الجمارك السوريّة والفلسطينيّة.

ب ـ ما يصيبها من واردات ممالح أثرى وكاف.

ج ـ واردات قرى أملاك الدولة التي ستدخل ضمن حكومة الجبل.

د ـ ما يطرحه المجلس الماليّ من ضرائب عند الاحتياج المبرم، على أنّه لا يحقّ لهذا المجلس استيفاء ضريبة الأعشار من حاصلات الأراضي، إنّما الأموال التي يجوز له أن يقرّر استيفاءها من الأراضي يجب أن تكون مقطوعة ومصدّقًا عليها من عموم أهل البلاد بجمعيّة عامّة.

١١ ـ إذا خالف رئيس الحكومة منافع الجبل العموميّة ومصالحه الحيويّة وأخلّ بالقوانين الموضوعة الأساسيّة، أو أعطي قرار من المجلس بنتيجته، واستحصل على فتوى من مشايخ العقل بذلك، فحينئذ يتنحّى ويُنتخب خلافه.

١٢ ـ مشايخ العقل يكونون منصوبين مدى الحياة ولا يُعزلون ولا يحقُّ للحكومة الوطنيّة والمنتدبة المداخلة بوظائفهم الدينيّة[١].

عُرضت هذه المطالب على رئيس البعثة الفرنسيّة إلى دمشق، فأجرى عليها تعديلات هامّة وافق عليها وجهاء الموحّدين الدروز، ومنهم: الأمير سليم الأطرش، الأمير نسيب الأطرش، فضل الله هنيدى، توفيق أبو عسّاف، الشيخ محمود أبو فخر (قاضي المذهب)، عقلُه القطامي، قفطان عزّام، جبر شلفين، فخر الدين الشعراني، مسعود غانم...

والتعديلات التي أجرتها فرنسا على تلك المبادئ قضت "بفرض الانتداب وتعيين مستشارين فرنسيّين وعدم ثبات انتخاب الحاكم الأهلي إلاّ بموافقة فرنسا، التي جعلت لنفسها الحقّ في تنظيم قانون صلاحيّات الحاكم والمجلس واللجنة الإداريّة، وبأن لا تتعدّى صلاحيّات معتمدي الجبل في دمشق ولبنان الأمور الاقتصاديّة. كما اعترفت التعديلات بحقوق الأقليّات (ضمن الدولة الدرزيّة) وأجازت حمل السلاح داخل الجبل، وعدم أخذ تجنيد إجباريّ من الموحّدين الدروز. "إلاّ أنّ التعديلات نفسها تضمّنت...... تأجيل الاعتراف بحدود الجبل وباسم حكومته. وأضافت إلى إيرادات الخزينة الرسوم التي تُفرض على المناجم المعدنيّة المحتمل اكتشافها في الجبل"[٢]. وقضت التعديلات أيضًا بإعطاء فرنسا الحقّ بالوجود العسكريّ في جبل الدروز.

---

١ ـ راجع: الصغير، بنو معروف، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

٢ ـ راجع: الصغير، بنو معروف، ص١٥٤ ـ ١٥٥.

وفي ٥ نيسان (إبريل) ١٩٢١ أعلن الإنتداب استقلال الجبل. وفي الأوّل من أيّار (مايو) عُقد اجتماع لوجهاء الموحّدين الدروز، تمّ بخلاله انتخاب الأمير سليم الأطرش حاكمًا على الجبل، الذي تقرّر تقسيمه إلى ١٣ ناحية، يكون لكلّ منها نائبان، وقد تمّ تعيين النوّاب بسرعة، وزيد عددهم بعدها إلى ٤٢، وعندما عُرضت هذه النتائج على الموفد الفرنسيّ الكومندان ترنكا، نحّى من النواب ٢٢ عضوًا وأبقى على ٢٠، فاجتمع هؤلاء في السادس من أيّار (مايو) ووافقوا على اعتماد علم للدولة الجديدة ، يرمز إلى العقيدة المذهبيّة، وهو ذو خمسة ألوان: أخضر وأحمر وأصفر وأزرق وأبيض، ورُسم في جانبه ١٣ نجمة إشارة إلى عدد النواحي، وفي زاويته علم فرنسا، وعيّنوا مفتّشًا عامًّا ومدراء للداخليّة والعدليّة والمعارف والماليّة، وقضاة للعدليّة، وقائمقامين ومدراء نواحٍ من زعماء الأسر، وقائدًا للدرك الذي كان قد بلغ عدد أنفاره ثلاثمائة اختيروا من مختلف الأسر. وانتُدب نسيب الأطرش ممثّلاً للجبل في دمشق.

إستتبّ الأمر للدولة الموحّدة الدرزيّة الفتيّة التي راح حاكمها وأعوانه يعملون بجهد لنشر النظام وتوطيد القانون، وقد بلغت واردات الخزينة في السنة الأولى ٤٥,٨٤٠ ليرة ذهبيّة فرنسيّة، ومصاريفها ٣٠ ألف ليرة، وكان عدد سكّان الجبل حوالي ٥٠ ألف نسمة، يستوطنون قرابة المائة قرية.

إلاّ أنّ القادة الموحّدين الدروز كانوا قد أبقوا على التعديلات التي أجراها الفرنسيّون على مقرّرات اجتماع السويداء سرّيّة، لذلك فعندما دخلت الجبل في ٢٥ حزيران (يونيو) بعثة فرنسيّة عسكريّة، إستنادًا للاتفاقيّات، ظهرت بوادر استياء في صفوف المواطنين، ما جعل الفرنسيّين يرسلون بضع طائرات تحلّق في سماء الجبل لتلقي مناشير وديّة تنبئ بقدوم حملة فرنسيّة "بصورة حبّية"، فازدادت الشكوك، وبدأ التذمّر ينذر بسوء المصير. فسارع الأمير سليم الأطرش إلى محاولة تطويق

المضاعفات عبر اجتماع دعا إليه ممثّلين عن الشعب، عُقد في أوائل العام ١٩٢٢، تقرّر فيه، إعادة البحث في الاتّفاق الذي تمّ مع الفرنسيّين، وطالب المجتمعون بالعفو العامّ عن المحكومين السياسيّين وبإعادة المنفيّين، وبإنتخاب أعضاء للمجلس النيابيّ بصورة قانونيّة تنسجم مع عدد سكّان المناطق، وبإلغاء التعيين الذي "حصل بصورة الاستنساب"، واستنكروا وجود قوّة فرنسيّة لإرهاب السكّان وفرض الضرائب الباهظة التي يجب فرضها برضى الشعب"... وطالبوا "بعدم الصرف من صندوق الجبل لغير المستخدمين في الحكومة الوطنيّة، وبتسليم الجبل حصّته من الجمارك لصرفها على المرافق النافعة وبرفع ضريبة دمشق عن الحبوب، وبالسماح بتصدير المحاصيل إلى الخارج لأنّ التجارة حرّة".

كان أحد المبعوثين الفرنسيّين، الكومندان أدلبُس، حاضرًا الاجتماع، فانسحب منه بحجّة أن "لا صلاحيّة له للإجابة على هذه المطالب التي من شأن البعثة في دمشق أن تبتّ فيها".

كان لذلك الاجتماع نتائج سلبية في الجهتَين: الفرنسيّة والموحّدة الدرزيّة. فبينما استاء الموحّدون لانسحاب المبعوث الفرنسيّ، استاءت البعثة الفرنسيّة بدورها لوضع هذه المطالب الجريئة، ولم يكن قد مضى على ولادة الدولة ما يسمح برفعها من المهد. وسرعان ما تُرجم الاستياء إلى مناوشات وقعت بين مسلّحين موحّدين وجنود فرنسيّين، أسفرت عن مقتل بضعة جنود بينهم ملازم، وعن تعطيل الآليّات الفرنسية، وتدمير منزل سلطان الأطرش في ٢٦ تمّوز (يوليو)، كما أسقط الموحّدون طائرة فرنسيّة في ٢٣ كانون الثاني (يناير) من العام التالي (١٩٢٣).

بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال عام ١٩٢٣، أصدر مندوب المفوّض السامي الفرنسيّ في دمشق "شفلر" عفوًا قضى بإطلاق سراح المعتقلين السياسيّين، غير أنّ

ذلك لم يساعد على تلطيف الأجواء. وإذ تأكّد الأمير سليم الأطرش من فقدان ثقة الأهلين بالحكومة، عمد إلى الاستقالة، وعاد عنها ثلاث مرّات أمام إلحاح الفرنسيّين، إلى أن توفّاه الله في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣، فأسندت حاكميّة الجبل إلى المستشار الفرنسيّ "كربيا" الذي كان قد حلّ مكان "ترنكا"، وذلك بسبب خلافات زعماء الموحّدين الدروز على منصب الحاكميّة الذي شغر بوفاة الأمير سليم الاطرش.

حلَّ الحاكم الفرنسيّ الجديد المجلس النيابيّ، وجرى انتخاب أعضاء جدد وافقوا على إحالة الحاكميّة له، وصادق المندوب السامي الفرنسيّ في لبنان وسوريا الجنرال "ويغان" على هذا الإجراء، ما حدا بزعماء الموحّدين الدروز على الاعتراض ضدّ الإجراء الجديد، مطالبين بالحكم الوطنيّ، ورفض معظم النوّاب إذ ذاك التعاون مع كربيا.

وعندما أطلّت ذكرى الاستقلال الرابعة في الخامس من نيسان (إبريل) ١٩٢٥، كان الزعماء قد تهيّأوا لعرض مطالبهم على الجنرال سراي المندوب السامي الفرنسيّ الجديد، فكانت ردّة فعل الجنرال الفرنسيّ قاسية، إذ نفى بعض الزعماء إلى تدمر، وأنذر الباقين بوجوب ملازمة الجبل وعدم إثارة القلاقل، فبدأ التوتّر يتعاظم.

حاول الفرنسيّون معالجة الموقف دون أن يتخلّوا عن حكم الجبل المباشر، فأُعطيَ كربيا إجازة لمدّة ثلاثة اشهر بدءًا من ١٧ آذار (مارس) يقضيها في فرنسا، وعُيّن مكانه بالوكالة الكابيتين "رينو" الذي سعى إلى اكتساب مودّة الشعب، فاتّخذ بعض الإجراءات الكفيلة بتخفيف أوزار المكلّفين، كرفع الجزاء النقديّ، وإلغاء فريضة تكسير الحصى، وإلغاء الإجراءات القاسية، كالضرب، وإلغاء مراقبة البريد، والسماح بالاجتماع وبحريّة إبداء الرأي.

إلاّ أنّ هذه الإجراءات الطيّبة كانت، كما بدا، مقدّمة لنهج جائر، إذ ما لبث رينو أن اتّبع أثر الحاكم الأصيل كربيا في طريقة معاملته لأبناء الجبل، ما جعل نسيب الأطرش يقصد بيروت طالبًا وساطة بعض زعماء الموحّدين الدروز اللبنانيّين لإقناع المندوب السامي الفرنسيّ: سراي، بأن يحقّق مطالب الموحّدين، ولكنّ المفوّض الفرنسيّ رفض مقابلة الأطرش الذي غادر بيروت حاملاً شعار: "البنادق تتكلّم".

كان على رأس مطالب الموحّدين الدروز أن تعزل فرنسا كربيا من حاكميّة الجبل، ويقول سراي في مذكّراته: "كنت أرغب في أن أبدّل كربيا بضابط أفضل منه، ولكنّي انتظرت أن يعود إلى السويداء أوّلاً، كي لا يقال أنّ حملات آل الأطرش أرغمتني على ذلك، ممّا يؤثّر على مكانة فرنسا".

توجّس الموحّدون الدروز شرًّا في مواقف الفرنسيّين، وظهرت بينهم دعوة إلى وجوب المطالبة بالوحدة مع سورية، على غرار ما كان حاصلاً في لبنان من قِبَل غير المسيحيّين. ورأى هؤلاء الداعون أنّه قد يكون في ذلك مخرج لحتميّة التصارع غير المتكافئ بين الموحّدين الدروز وفرنسا، وكان عدد دروز الجبل آنذاك قد بلغ ٤٤,٣٤٤ نسمة، وكانت مساحة الجبل ٧,٩٢٠ كيلومترًا مربّعًا، يقطنه، إضافة إلى الموحّدين الدروز، ٤,٦٥٤ مسيحيًّا، و٧٢٥ مسلمًا سنيًّا[١].

لاقت دعوة المنادين بفكرة الاتّحاد مع سورية آذانًا صاغية عند العقلاء، شرط أن يكون هذا الحلّ مرحليًّا، فتألّف وفد من الأمراء: حمد ونسيب ومتعب وبرجيس وصياح وسلمان الأطرش، ومن فضل الله وحسين هنيدى، وعبد الله النجّار، وفوّاز ونجم وهلال عز الدين، وقفطان وحمد عزّام، وسعيد وداود عسّاف، وجاد الله سلام، وحمّود

---

١ - راجع: الصغير، بنو معروف، ص١٥٩.

نصر، وحمّود جربوع، ومحمود أبو عسلي، ونسيب نصّار، وخليل كيوان، وأسعد مرشد، وشبيب القنطار، وفرحان أبو راس، وحسن اللحّام. وقصد هذا الوفد دمشق، حيث قابل النائب الفرنسيّ "أوغست برنيه"، وقدم له مذكّرة خطيّة تطالب بإعادة الحكم الوطنيّ، أي بكفّ يد الحاكم الفرنسيّ، وتذكر، استطرادًا، أنّ "جبل الدروز هو جزء لا يتجزّأ من سورية تجمعه معها جامعة اللغة والجنس وتربطه روابط إقتصاديّة مستحكمة الحلقات، وكلاهما مرتبط بالآخر منذ عصور طويلة بروابط لا تفصم عراها"... أي أنّ الموحّدين الدروز خيّروا الفرنسيّين بين الحكم الوطنيّ لهم وبين الاتّحاد مع سورية.

وعندما قصد الوفد بيروت، إثر ردّ النائب الفرنسيّ في دمشق بوجوب نقل هذه المطالب إلى المندوب السامي، رفض سراي استقبال أعضائه، مهدّدًا إيّاهم بالنفي إذا لم يعودوا إلى الجبل فورًا...

إثر هذه التطوّرات، تنادى زعماء الجبل في أواخر حزيران (يونيو) وألّفوا في السويداء "جمعيّة وطنيّة" ترأسها سلطان باشا الأطرش، كان على رأس مقرّراتها "التضحية بكلّ غالٍ وثمين في سبيل الاستقلال..... وكلّ نائب يخالف مقرّرات الأمّة يُهان ويُضرب".

كان سلطان الأطرش على اتّصال وثيق بفيصل، وقد ذكر "تومي مرتان" الذي أوفدته الحكومة الفرنسيّة إلى جبل الدروز للتحقيق في أسباب الفوضى، عبر تقرير مؤرّخ في ٧ تمّوز (يوليو) ١٩٢٥ عن "صلة بين فريق من آل الأطرش وشرقيّ الأردن".

راح سلطان الأطرش يسير من قرية إلى قرية في الجبل مستنهضًا الهمم للثورة على الفرنسيّين، فلاقى تجاوبًا حماسيًّا من قِبَل بني معروف، بينما كان الفرنسيّون يسعون لاعتقال سلطان. وسرعان ما انفجر الموقف في ١٩ تمّوز (يوليو) إذ بينما كان

الثوّار مجتمعين في بلدة عرمان من الجنوب، حلّقت طائرتا استكشاف فرنسيّتان، فأطلق عليهما الثوّار وابلاً من الرصاص أسقط إحدَيهما. وفي ٢٠ تمّوز (يوليو) توجّه الثوّار إلى صلخد واحتلّوا مركزًا للسلطة الفرنسيّة هناك، وفي اليوم التالي استولوا على مركز آخر في شمال الكفر إثرَ معركة حامية تكبّد فيها الطرفان عشرات القتلى والجرحى. وفي السادس والعشرين من تمّوز (يوليو)، توجّه الثوار إلى السويداء وأحرقوا سرايا الحكومة.

إستمرّ النزاع حاميًا على هذا الشكل، والفرنسيّون يتكبّدون الخسائر في العتاد والجند، حتّى توسّط بعض وجهاء الموحّدين الدروز اللبنانيّين بين المندوب السامي وزعماء الجبل، وكان بين أصحاب المساعي الحميدة الأمير فؤاد أَرسلان والسيّد عبد اللّه النجّار، وقد أدّت المساعي إلى البحث في عقد هدنة. ومن أجل الدخول في مفاوضاتها، وضع زعماء الموحّدين الدروز لائحة من اثنَي عشر بندًا، تؤكّد في مجملها على تمسّكهم باستقلال الجبل، واستمراره وطنًا سيّدًا مستقلاً. وفي ما يلي نصّ شروط الموحّدين الدروز التي وضعوها في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٢٥ خلال اجتماع عُقد في قرية المجيمر من الجبل.

١ ـ العفو العامّ مصدّقًا عليه من رئاسة الجمهوريّة الفرنسيّة، وعدم التحقيق في حوادث الثورة وعدم اعتبار أحد مسؤولاً.

٢ ـ لا ترسل الحكومة قوّات كبيرة أو صغيرة إلى الجبل.

٣ ـ إطلاق سراح جميع مَن اعتُقل بسبب الثورة سواء كان من سكّان الجبل أو من خارجه.

٤ ـ يُقبل مستشار إداريّ فرنسيّ في الجبل دون أن يتدخّل فعليًّا في الشؤون.

٥ ـ ينتخب الشعب الدرزيّ لجنة موقّتة تشكّل حكومة الجبل وتحلّ محلّ الحكومة الملغاة بسبب الثورة.

٦ ـ ينتخب الشعب الدرزيّ حاكمًا وطنيًّا ومجلس أعيان تقرّر كيفيّة تأليفه ودرجة ارتباط الحاكم به اللجنة المذكورة في البند الخامس.

٧ ـ تُعاد المبالغ الخاصّة بصندوق الجبل والمبالغ المودعة بالبنك السوريّ أو غيره إلى إدارة ماليّة خاصّة بالجبل.

٨ ـ تُدفع حصّة الجبل من الجمارك لخزينة الجبل، ولا يُصرف شيء منها قبل إدخاله إلى الصندوق.

٩ ـ لا تمنع الحكومة الفرنسيّة الدروز من الدخول في الوحدة السوريّة.

١٠ ـ عدم نزع السلاح من الدروز.

١١ـ عدم تعيين أحد من الموظّفين السابقين إلاّ بقرار من اللجنة المذكورة في البند الخامس.

١٢ ـ إلغاء وظائف الممثّلين ومأموري الإستخبارات الفرنسيّين الذين كانوا سابقًا.

وانتُدب للمفاوضة بموجب هذه الشروط كلّ من: فضل الله باشا هنيدي، محمّد باشا عزّ الدين، سليمان بك عبدي الأطرش، سليمان بك نصّار.

إلا أنّ هذه المطالب، قوبلت من جانب الفرنسيّين بتغريم الموحّدين الدروز خمسة آلاف جنيه استرلينيّ على سبيل التعويض الحربيّ، وتحميلهم كافّة أضرار الحرب وخسائرها التي لحقت بالأهالي والتجّار، وإعادة السلاح الذي غنموه أثناء القتال.

ظهر إثر ذلك تيّاران في الجبل، الأوّل قال بإجراء الصلح مع الفرنسيّين، ومن أنصاره حمد وعبد الغفّار ونسيب الأطرش، والآخر رفض الصلح وقال باستمرار الثورة حتّى النصر، وعلى رأسه سلطان الأطرش. علمًا بأنّ هذا الأخير كان متعاطفًا مع فيصل بن الحسين.

عزّز سلطان موقفه باستقدام وفد من أعيان دمشق، حضر إلى الجبل، وألقى أعضاؤه الخطب الحماسيّة في الموحّدين الدروز، التي وعدوا عبرها بإضرام الثورة

في دمشق "أمّا إذا بقيتم منفردين في ساحة الوغى، فستُقهرون إن لم يكن اليوم فغدًا، أمّا إذا أراد سلطان أن يسير بكم إلى دمشق، فستُفتح أبوابها له.... وعندما يبسط سلطانه على دمشق سيكون بوسعه أن يملي شروطه على الفرنسيّين..... تقدّموا نحو ضواحي دمشق حيث يأتي الدمشقيّون لملاقاتكم، فلكم يرجع الفخر لأنّكم كنتم في طليعة مَن سعى لتحرير البلاد".

أثّر هذا الكلام في بني معروف. وازداد الراغبون في متابعة الثورة حماسًا. وتوسّعت آمال سلطان الأطرش الذي أصبح آملاً بمساندة الدمشقيّين. وفي الثالث والعشرين من آب (أغسطس)، أذاع بيانًا جاء فيه:

... أيّها السوريّون، لقد أثبتت التجارب أن الحقّ يُؤخذ ولا يُعطى، فلنأخذ حقّنا بحدّ السيف، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة... لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا وأقاموا الحواجز الضارّة بين وطننا الواحد وقسّمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات...

ولخصّ سلطان الأطرش أهداف ثورته في نهاية البيان بثلاثة بنود:

١ ـ وحدة البلاد السوريّة ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة عربيّة واحدة مستقلّة استقلالاً تامًّا.

٢ ـ قيام حكومة شعبيّة تجمع المجلس التأسيسيّ لوضع قانون أساسيّ على مبدإ سيادة الأمّة سيادة مطلقة.

٣ ـ سحب القوّة المحتلّة من البلاد السوريّة وتأليف جيش محلّيّ لصيانة الأمّة.

وفي الرابع والعشرين من آب (أغسطس)، هاجم الموحّدون الدروز دمشق لاحتلالها على أمل أن يساندهم الدمشقيّون من داخل، بيدَ أن هجومهم قد باء بالفشل، إذ خلّ الدمشقيّون بوعدهم. ورغم معارضة قسم كبير من أبناء الجبل، عاود سلطان باشا الكرّة في السابع عشر من أيلول (سبتمبر)، ويبدو أنّ الفرنسيّين كانوا لهم هذه المرّة

بالمرصاد، فوقعت معركة في منطقة المسيرفة، تكبّد فيها الموحّدون والفرنسيّون خسائر فادحة في الأرواح، وانسحب على أثرها الموحّدون من جديد. ومنذ ذلك الوقت راحت الحملات الفرنسيّة تتوالى على الجبل، حيث أظهر أهله شجاعة فائقة في الدفاع حتّى الاستشهاد، وحاولوا إرباك الفرنسيّين بشنّ حرب عصابات على مواقعهم في الجبل وخارجه من ضواحي دمشق، فيما تطوّع عدد لا بأس به من الموحّدين اللبنانيّين لنجدة إخوانهم في جبلهم، وأصبح رجال الثورة يُعرفون بالمجاهدين.

وفي الثامن عشر من تشرين الأوّل (أكتوبر)، شنَّ الموحّدون من جديد هجومًا من أربعة محاور على دمشق، محاولين الوصول إلى قصر العظم لاعتقال الجنرال سراي، وكادوا أن يفلحوا في ذلك لو لم يُصدر سراي أمرًا بالردّ العنيف، ممّا كبّد دمشق وأهاليها خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، فراح أهاليها يلحّون بالمطالبة بوقف إطلاق النار... بينما انسحبت أكثرية المجاهدين إلى الجبل، وبقي بعض المجموعات يقاتل الفرنسيّين في حملات خاطفة. وامتدّت حرب العصابات إلى المناطق الدرزيّة الواقعة غرب جبل الشيخ من لبنان.

ففي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) توجّهت طلائع المجاهدين إلى حاصبيّا بقيادة حمد بك الدرويش وفارس مفرّج، فاستسلمت الحامية الفرنسيّة لرجال الدين في خلوات البيّاضة دون قتال، فشكّل المجاهدون إذ ذاك لجنة لإدارة الشؤون العامّة برئاسة مسيحيّ عن حاصبيّا، ووزّع زيد الأطرش بيانًا إلى المسيحيّين يعلن عن "أن قدوم الدروز هو لإنقاذ المنطقة من النفوذ الأجنبيّ.... وهم قاموا باسم الوطن لا باسم الطائفيّة.... فعلى أبناء الوطن معاونتهم لادراك هذه الغاية التي تستند على مبدأ رئيسيّ وهو: الدين لله والوطن للجميع". إلاّ أنّ مسيحيّي منطقة مرجعيون ـ حاصبيّا قد تعرّضوا للتجاذب من جهتَي الموحّدين الدروز والفرنسيّين، فلم يتمكّنوا، نظرًا للعدد

الصغير الذي يمثّلون في تلك المنطقة، من اتّخاذ موقف موحّد. بينما استمرّ المجاهدون في قتالهم ضدّ الفرنسيّين فاحتلّوا قرى عدّة، وخاضوا المعارك في مرجعيون وجوارها، فتمكّنوا من احتلال قلعتها بمساعدة المسيحيّين، ولكنّهم آثروا عدم البقاء فيها "حفظًا للروابط الوطنيّة بين المسيحيّين والدروز".

وامتدّت أعمال المجاهدين إلى راشيّا حيث وقعت معركة قاسية حول قلعتها التي كان يتّخذها الجنود الفرنسيّون موقعًا لهم، تكبّد الطرفان بخلالها خسائر كبيرة. واضطر الموحّدون الدروز إثر ذلك إلى الانسحاب، بينما شنّت القوّات الفرنسيّة حملات مضادّة، فعزّزت مواقعها في راشيّا، واستعادت حاصبيّا، وأنزلت بالموحّدين الدروز الخسائر الفادحة، ممّا جعل ثورتهم تهمد لبعض الوقت. وقد جرت مفاوضات غير مباشرة حينذاك بين الفرنسيّين وموحّدي الجبل، عمل لها الأمير أمين أرسلان وفوزي الغزّي ولطفي الحفّار وعفيف الصلح، إذ توجّه هؤلاء في ١٧ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٢٥ من دمشق إلى الجبل واجتمعوا مع زعماء الثورة الذين تنازلوا صراحة عن مطلبهم الأساسيّ باستقلال جبل الدروز، واستعاضوا عنه بمطلب "توحيد الحكومات السوريّة". إلاّ أنّ المفاوضات قد فشلت بسبب اشتراط الحكومة الفرنسيّة أن يسلّم الثوّار سلاحهم، ورفض الثوّار لهذا الطلب.

إثر ذلك، حاول الفرنسيّون إقناع الموحّدين الدروز بتسليم سلاحهم ليُعاد لهم الاعتراف بدولتهم، فنثرت الطائرات الفرنسيّة في ٢٢ كانون الأوّل (ديسمبر) فوق الجبل منشورًا صادرًا عن الجنرال أندريا جاء فيه:

> ...إنّني عازم على جمع المجلس عن قريب في درعا، فالشيوخ الذين يأتون سيتناقشون معي في القانون العتيد الذي سيُعطى للدولة الدرزيّة، وسنعتبره مع المأمورين الجدد ونقرّر أمر السلام ويرجع العمران والفلاح إلى بلادكم مع رجوع الطمأنينة.

على أنّ البيان نفسه هاجم سلطان الأطرش ووصفه بأنّه "لا يرغب في استقلال جبل الدروز بل يريد أن يحكم البلاد تحت أمرة أمير من أمراء العرب، فيأمر وينهي إذ ذاك كسيّد مطلق، وكون العنف والاستبداد من طبعه فلا يصرّف إدارة الأمور بغير العنف والقساوة".

وفي الشهر التالي، (كانون الثاني - يناير - ١٩٢٦) وُزّع منشورٌ آخر لاندريا جاء فيه:

> ...أيّها الدروز... نحن الذين منحناكم الاستقلال وجعلنا جبل الدروز دولة مستقلّة مساوية لدولتَي حلب ودمشق، وقد عملنا هذه الأمور لمصلحتكم بالرغم من معارضة أعدائكم الذين لم يكونوا مسرورين، بل متكدّرين غاية الكدر من رؤيتكم مساوين لهم في المجالس وفي مقاعد الحكومة وفي الاحتفالات الرسميّة وأمام كبار وعظماء الأرض، الذين كنّا ندعوهم خصّيصًا لزيارة جبلكم...

إلاّ أنّ الثقة التي كانت قد فُقدت في وجدان الموحّدين الدروز، عجزت مناشير أندريا عن إعادتها، وقد عبّر عن ذلك عبد الغفّار باشا الأطرش في رسالة وجّهها إلى المندوب السامي الفرنسيّ الجديد: هنري دي جوفنيل جاء فيها:

> ...إنّ التجارب الماضية التي جُرِّبت في زمن أسلافك الثلاثة لم تترك أثرًا من الثقة... لذلك ليس من الأمور الهيّنة في الوقت الحاضر إقناع الشعب الدرزيّ وجميع الثوّار بترك السلاح بلا قيد ولا شرط... والبلاد غير مستعدّة لقبول التجزئة المضرّة.

فردّ دي جوفنيل بكتاب مؤرّخ في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦ جاء فيه:

> إذا كان الشعب يطمح إلى الحصول على حقوق مشروعة كما صرّح به الكتاب نفسه، فإنّي مستعد كلّ الاستعداد لأن أمنحها له وفقًا لميثاق جمعيّة الأمم، فليكفّ الشعب الدرزيّ عن الحرب، فيقدّم له قانون أساسيّ بالاتّفاق مع السلطات الوطنيّة

ذات الصلاحيّة، تُراعى فيه حقوق جميع الأهالي الساكنين في الجبل ومصالحهم وتمنّياتهم، ويشكّل المجلس، وهو يصرّح إذا كان يريد تأليف حكومة مستقلّة أو يريد الارتباط بدمشق، وهو ينتخب رئيس الحكومة إذا بقي الجبل مستقلاً، وإذا كان الأمر خلاف ذلك اجتمع ممثّلو الدروز مع ممثّلي المناطق الأخرى التي تطلب ذلك، لتعيين حكومة واحدة، والاقتراع على قانون أساسيّ واحد...

بينما رأى قسم من وجهاء الموحّدين الدروز وجوب الموافقة على العروض الفرنسيّة الجديدة، وتيّار هؤلاء هو تيّار الوطن الدرزيّ المستقلّ، تمكّن سلطان الأطرش من السيطرة على المبادرة، وأرسل رجاله لإثارة الاضطرابات في وقت وصل فيه الانقسام داخل الجبل إلى درجة خطيرة، إذ تجنّد بعض الموحّدين الدروز مع الفرنسيّين لمحاربة الأطرش، فسارع العقلاء إلى تنظيم "فرقة الفتيان" لمعاقبة "كلّ متعاون مع العدو" وتقرّر تأليف لجنة لإدارة الجبل.

ولمّا لم تُفلح جميع محاولات الحوار، شنّ الفرنسيّون حملات عنيفة على جميع مناطق الموحّدين الدروز في لبنان والجبل. فبعد مطاردة الفرق التي كانت تعمل بقيادة: الأمير عادل أرسلان، وأحمد مريود، وشكيب وهّاب، في وادي التيم وسفوح جبل الشيخ وقرى حاصبيّا ومرجعيون، تمكّن الفرنسيّون في ٣ نيسان (إبريل) من تدمير معاقل الموحّدين الدروز في هذه المناطق. وفي ٢٢ نيسان (إبريل) أغارت الطائرات على السويداء، وصلخد، والقرى الغربيّة لجبل الدروز، وأمطرتها بِوابلٍ من النيران. وفي ٢٤ نيسان (إبريل)، احتلّ الفرنسيّون قريتَي: عُرى، وتل الحديد، غربي السويداء، بينما جدّد أندريا دعوته للموحّدين الدروز إلى التفاوض، فعاد الشقاق ليبرز بينهم من جديد. عندها سارع الفرنسيّون إلى ضرب معاقل المجاهدين، ودخلوا السويداء في ٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٢٦ بعد سقوط مئات القتلى، واستسلام عدد كبير من المجاهدين. وقبل الخامس من حزيران (يونيو)، كان الفرنسيّون قد سيطروا على الجبل سيطرة

شبه تامّة. إلاّ أنّ ذلك لم يُنهِ حرب العصابات التي استمرّ المجاهدون الذين تواروا إلى داخليّة البلاد بالقيام بها بقيادة سلطان الذي دعا إلى "وجوب المثابرة على القتال حتّى تنال البلاد أمانيها"، وإلى "هدر دم المتطوّعين في الجيش الفرنسيّ".

وإذ ضيّق الفرنسيّون على المجاهدين، جعل هؤلاء من منطقة الأزرق الأردنيّة منطلقًا لعمليّاتهم. وعندما استفحل أمر الموحّدين في تلك المنطقة من ناحية جنوبي الجبل الواقعة ضمن الانتداب الإنكليزيّ، جرت اتّصالات بين الحلفاء، أصدر على أثرها الكابتن البريطاني "غلوب" حكمًا عرفيًّا في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٢٧ قضى بأن تكون "منطقة الأزرق ملجأ للنساء والأولاد والشيوخ فقط، أمّا الرجال المسلّحون فعليهم مغادرة منطقة شرقي الأردن". بيدَ أنّ عددًا كبيرًا من دروز الجبل كان قد لجأ إلى المنطقة الأردنيّة، ما حمل السلطات البريطانيّة في ١٧ حزيران (يونيو) على إصدار منشور أعلنت فيه "أنّ على جميع الذين ليسوا من سكّان شرقي الأردنّ العودة إلى أوطانهم خلال أسبوعَين، ومَن يبقى بعد هذه المدّة يُطرد من المنطقة".

إثر هذا التضييق، لم يعد المجاهدون ليجدوا ملجأ لهم، فتوسّط الزعيم السوريّ السنّي شكري القوتلي مع الملك عبد العزيز حيث زاره في السعوديّة، كي يقبل لجوء المجاهدين في دياره، فوافق الملك، وخصّهم بمال للضيافة، وعلى الأثر، لجأ إلى السعوديّة حوالى ١,٥٠٠ من المجاهدين، وأقاموا في النّبك.

وهكذا، تمكّن الوحدويّون السوريّون عبر سلطان الاطرش من تقويض أركان الدولة الدرزيّة التي لم تكن أصلاً قابلة للاستمرار، نظرًا لاقتصار عدد سكّانها على حوالي خمسين ألف نسمة يستوطنون قرابة المائة قرية، وهي لا تتّصل بمرفأ بحريّ أو بخطّ حديديّ، ولا تتمتّع بأيّ ثروة طبيعيّة.

على أنّ تلك الروح الرانية إلى التمتّع بوطن قوميّ لم تخبُ، فقد استمرّت دعوات الاسقلال، حتّى أنّ المنادين بهذه الرغبة قد ألّفوا حزبًا "للدفاع عن دولة جبل الدروز المستقلّة". وعندما عقد أحد المندوبين الفرنسيّين في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٣٣ إجتماعًا لوجهاء الموحّدين الدروز في "قنوات" من أعمال الجبل لإجراء شبه استفتاء بشأن رغبة الموحّدين الدروز في قضيّة الدولة المستقلّة، ظهر الانقسام واضحًا في صفوف بني معروف بين مطالبين بالوطن المستقلّ، ومطالبين بالوحدة السوريّة.

وبنتيجة المفاوضات التي جرت في باريس في العام ١٩٣٦، جاءَت المعاهدة الفرنسيّة السوريّة التي ضمنت وحدة سورية، إلاّ أنّه اتُّفق في الوقت ذاته على إعطاء الموحّدين الدروز نوعًا من الاستقلال الذاتيّ، وقد توضّح ذلك في المرسوم الذي أصدره المندوب السامي الفرنسيّ إلحاقًا بالمعاهدة، والذي جاء فيه أنّ جبل الدروز هو جزء من الدولة السوريّة، يسري عليه دستور الجمهوريّة السوريّة وقوانينها وأنظمتها العامّة، ولكنّه يستفيد ضمن دولة سورية من نظام خاصّ إداريّ وماليّ.

على الصعيد الإداريّ، أصبح الجبل محافظة لها أعضاء مجلسها المنتخبون، وفي أوّل انتخابات جرت لاختيار أعضاء مجلس المحافظة، عادت الخلافات لتبرز مجددًا داخل الجبل، بين الوحدويّين والانفصاليّين، ممّا استدعى قيام المفوض الفرنسيّ غبرييل بيو بزيارة الجبل في كانون الثاني (يناير) من العام ١٩٣٩، وعند وصوله إلى السويداء، جاءَت وفود من أنحاء البلاد تُطالب بالانفصال. وما أن غادر المندوب الفرنسيّ الجبل حتّى طلعت أصوات تنادي بعدم الانفصال. وتوتّر الوضع من جديد، فعاد المندوب الفرنسيّ إلى السويداء في أيّار (مايو)، حيث أكّد له الانفصاليّون على أنّ الأكثريّة من الموحّدين الدروز ترى رأيهم. وفي ٣ تمّوز (يوليو) أعلن المندوب

السامي الفرنسيّ في دمشق: الكونـت دي هـوت كلـوك، عـن إعطـاء الاسـتقلال الذاتـيّ لجبل الدروز، في شؤونه الإداريّة والماليّة والقضائيّة وفقًا للبنود التالية:

١ - إنّ مجلس إدارة المحافظة يَنتخب بالاكثريّة المطلقة شخص المحافظ لمدّة خمس سنوات قابلة للتجديد ويقوم مقامه رئيس المجلس.

٢ - رئيس الجمهوريّة يصـدر مرسـومًا فقـط بتعييـن المحـافظ الـذي يختـاره مجلـس المحافظة.

٣ - يتألّف مجلسٌ من مديري الدوائر وهو الذي يعيّن القضـاة، أمّـا بقيّـة الموظّفيـن فيعيّنهم المحافظ.

٤ - رئيس الجمهوريّة يعيّن القضاة الفرنسيّين. ولمحكمـة التمييـز السـوريّة الفصـل بالخلاف على الصلاحيّـة الـذي يقـع بيـن المحكمـة العليـا وبقيـة المحـاكم العليـا فـي المناطق الأخرى.

٥ ـ يجتمـع مجلـس المحافظـة علـى دورتَيـن: فــي آذار (مــارس) وتشــرين الأوّل (أكتوبر)، ولا تتجاوز مدّة الدورة خمسة عشر يومًا، إحداهما للموازنـة التـي يجـوز لمجلس المديرين تعديلها أثناء غياب المجلس.

٦ - للموظّفين الفرنسيّين المراقبة والاطّلاع علـى جميـع قـرارات مجلـس المديريـن ومجلس المحافظة.

٧ - للمحافظة حصّتها من واردات المصالح المشـتركة، وعليهـا دفـع ٥ بالمئـة مـن وارداتها للنفقات العامة في الدولة السوريّة.

ولكنّ تبدّل السياسة الفرنسيّة بعد الحركـة الديغوليّـة المتعاطفـة مـع الإنكليـز الذيـن كانوا يساندون فيصـلاً على تحقيق أهدافه في الوحـدة السـوريّة، هـذا التبديـل، أدّى إلـى دمج الجبل، من جديد، في الدولة السوريّة، ولم يبقَ من استقلاليّة الجبـل سـوى مجلـس محافظة، له ميزانيّته الخاصّـة، ممّـا أثّـر سلبًا علـى نمـوّه وعمرانـه. فحدث بعد ذلـك

مناوشات عدّة بين الوحدويّين والانفصاليّين، تحوّلت لاحقًا إلى اقتتال بين آل الأطرش من جهة، "والشعبيّين" من جهة أخرى، فضاعت القضيّة القوميّة في النزاع الطبقيّ. وكان مجلس إدارة المحافظة قد اجتمع في ٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤ واتّخذ قرارًا جاء فيه أنّ "مجلس محافظة الدروز قرّر بالإجماع الاندماج النهائيّ بسورية الأم، وإلغاء الإمتياز الماليّ والإداريّ الذي كانت تتمتّع به هذه المحافظة سابقًا، على أن تبقى أحكام الشرع الدرزيّ مطبّقة في المحاكم المذهبيّة الدرزيّة بدون مساس". وبتحرير هذه الوثيقة وقبولها من قِبَل مجلس النوّاب السوريّ في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٤٤، أصبح جبل الدروز جزءًا لا يتجزّأ من الدولة السوريّة. وقد بقي هذا الوضع على حاله رغم استمرار ظهور الدعوة لاستقلال الجبل. لكنّ تحقيق ذلك كان مستحيلاً في ظروف كانت تشهد تيّارًا عربيًّا شعوبيًّا يدعو للوحدة الكاملة.

غير أنّ الموحّدين الدروز، وإن لم يتمكّنوا من الحصول على المنافع العامّة لمناطقهم من الدولة السوريّة، قد أخذوا يشكّلون قوّة لا بأس بها داخل الجيش، وغالبًا ما كانت تُسند وزارة الدفاع إلى موحّد درزيّ، وما كان رئيس أركان الجيش موحّدًا درزيًّا. وقد اشترك كبار الضباط الموحّدين اشتراكًا فعليًّا وحاسمًا في العديد من الانقلابات العسكريّة التي شهدتها البلاد السوريّة، وقبل أن تلاقي دعوة حزب البعث قبولاً ملحوظًا في مناطقهم، كانوا قد اشتهروا بموالاتهم لهاشم الأتاسي، وبعدائهم لأديب الشيشكلي.

أمّا في فلسطين المحتلّة، فيستوطن الموحّدون الدروز القرى الشماليّة التابعة لمنطقتَي عكّا وطبريّا، وبعض القرى التابعة لمنطقة حيفا. وأحوال هؤلاء الماديّة أحوال جيّدة بفضل أعمال الزراعة والصناعة التي يتعاطونها، وقد بقيت أراضيهم ملكهم رغم الاحتلال الصهيونيّ، إذ تمكّنوا من الصمود والمحافظة عليها بعدم لجوئهم إلى النزوح

رغم الصعاب. ولا يقطن أيّ يهوديّ في القرى الموحّدة الدرزيّة في فلسطين المحتلّة، وقد حافظ أهلوها على تقاليدهم وعاداتهم كما في لبنان وفي جبل الدروز.

المُوحِّدُونَ الدُّرُوز
وَالأَمرُ الوَاقِع

بعد ما أدّت إليه أحداث النصف الثاني من القرن التاسع عشر في لبنان، وحيث ذاب كيان الموحّدين الدروز السياسيّ في متصرّفيّة جبل لبنان أولاً، ثمّ في الجمهوريّة اللبنانيّة في التاريخ المعاصر، كذلك ذاب كيانهم السياسيّ في الشمال الشرقيّ ضمن الجمهوريّة العربيّة السوريّة. ويبدو واضحًا أنّ ذلك الذوبان لم يكن فقط بسبب خلافاتهم مع سلطات الانتداب الفرنسيّة، بل كان للنزعة العربيّة القوميّة التي برزت في نفوسهم في خلال حقبة رسم الخريطة الجيوسياسيّة لهذه المنطقة، تأثيرها الفعّال في ما آلت إليه الأمور. وكما قاتل الموحّدون الانتداب الفرنسيّ في سورية، قاتلوه في لبنان، وفي الحالتَين كان أكثر قادتهم يميلون نحو البريطانيّين الذين كانوا ميّالين نحو الوحدة السورية في جبل الدروز. ومع ظهور الخارطة السياسيّة الجديدة لسورية ولبنان بعد الحربَين العالميّتَين الأولى والثانية، بدا أنّ الموحّدين الدروز الذين كانوا على مدى نحو ألف سنة من أبرز فعاليّات إمارة الجبل اللبنانيّ التي كثيرًا ما عُرفت بإمارة جبل الدروز، قد أفل نجمهم. وخير مَن عبّر عن مرارة الموحّدين الدروز الناتجة عن هذا الواقع، الزعيم والمفكّر الموحّد الدرزيّ المرحوم كمال جنبلاط الذي قال:

"...إنّ إحياء إمارة لبنان القديم العربيّ في محتوى وسياق من السيطرة الفرنسيّة – المارونيّة، أفقد الإمارة القديمة ملامحها ومعالمها، ذلك أنّها كانت تاريخيًّا جبل الدروز، فأصبحت الآن جبل أو إمارة الموارنة. وكان سيّدها القديم هو خليفة اسطنبول،

المغمور إلى هذا الحدّ أو ذاك، فأصبحت فرنسا ذات الحول والطول الحامية التقليديّة للموارنة، فانتقلنا بذلك من التوجّه الإسلاميّ ـ الدرزيّ في إطار سورية التاريخيّة والطبيعيّة، إلى ما يشبه أن يكون محافظة فرنسيّة على الشاطئ السوريّ[1].

ومن أقواله أيضًا: "... أُولى مداميك لبنان السياسيّ المستقلّ، وضعها بنو معن وبنو تنّوخ، وهما عائلتان درزيّتان حكمتا لبنان كلتاهما منذ الألف الأوّل للميلاد.... وقد أباحوا (الدروز) ولوج الموارنة خصوصًا والمسيحيّين عامّة إلى مناطق كسروان والمتن في شمالي جبل لبنان، وإلى منطقة عاليه والشوف اللتَين يشكّل الدروز بنيتهما السياسيّة والقتاليّة. وكان يصل ما بين هذه الإمارة نصف المستقلّة وبين الإسلام السياسيّ خضوعها للباب العالي. وذلك في الوقت ذاته الذي كانت تتمتّع فيه باستقلال ذاتيّ واسع. وكان شأن هذا الإستقلال أنّه كان يتّسع وينحسر بحسب المنحى الغالب، وبحسب قوّة أو وهن الامبراطوريّة العثمانيّة وبحسب توازن القوى في المنطقة... وهكذا فقد لعب الدروز دورًا في كل ما كان من شأنه الحفاظ على ضرب من ضروب الإستقلال، كما كانت وظيفتهم حماية الساحل والحفاظ على مرافئ صيدا وصور وبيروت من أيّ هجوم خارجيّ... ولقد كان ينبغي لهذه الفكرة الدرزيّة عن لبنان، أي لبنان متعدّد الطوائف بغلبة درزيّة ومحمّديّة، أن تكون في أساس ما سينشأ لاحقًا ويطلق عليه بعد العام ١٩١٧ لبنان الكبير، كما كان ينبغي للبنان أن يقوم على أساس ذلك المفهوم من الاستقلال الذاتيّ الذي تمتّعت به الإمارة العربيّة عبر التاريخ، لكنّ الأمور لم تجر على هذا المنوال، بل جرى إنشاء نظام طائفيّة سياسيّة أحلّ غلبة مارونيّة لا مبرّر لها بدلاً من إقامة دولة علمانيّة. ولقد كان ذلك بليّة كبرى وطامة

---

١ ـ جنبلاط كمال، هذه وصيّتي، مؤسّسة الوطن العربيّ (باريس،١٩٧٨) ص١٠٩ ـ ١١٠.

عظمى، والانتداب الفرنسيّ مسؤول إلى حدّ بعيد عن هذا الزلل... والدروز... لمّا كانوا أرستقراطيّة محاربة فإنّهم استدعوا الموارنة للعمل في أراضي منطقتهم الشاسعة، وبهذا أصبح المسيحيّون يشكّلون بصورة عامّة اليد العاملة الزراعيّة والمزارعة، وامتهنوا الحرَف الصغيرة والتجارة... إذن، لقد كانوا في تلك الفترة بروليتاريا لبنان الحقيقيّين. وإن كانوا ينكرون اليوم تحدّرهم هذا. ولا يعود مردّ هذا الوضع إلى عجز الدروز عن ممارسة الزراعة بل إلى قلّة عددهم... واضطلاعهم بدور يتجاوز أهمّيتهم العدديّة بكثير. وإذن، لم يكن يكفي من الدروز لزراعة كامل هذه الأرض اللبنانيّة، أو جبل الدروز كما كان يُسمّى في التاريخ"[1]...

في أيّ حال، فإنّ الموحّدين الدروز قد بقوا أصحاب شأن في الدولة اللبنانيّة الحديثة، وإن حرمهم ما عُرف بالصيغة اللبنانيّة ما يستحقّونه فعلاً من مكانة ثابتة على صعيد الرئاسات والمؤسّسات الدستوريّة. غير أنّ هذا لم يمنع من مشاركتهم الفعّالة والرائدة في مجال السياسة اللبنانيّة، إذ انخرطوا في نظام "فدراليّة الطوائف"، فكان لهم نوّابهم البارزون في المجالس النيابيّة أبدًا، وساهموا في الحياة السياسيّة مساهمة أساسيّة، إن في الوزارات أو في الأحزاب أو في سائر الحياة السياسيّة في لبنان. وقد يكون ابن هذه الطائفة: كمال جنبلاط، أحد الأقطاب القلائل الذين أثّروا في مجرى السياسة اللبنانيّة كما لم يؤثّر أيّ زعيم سياسيّ آخر في لبنان. ولا ننسى أحد أبطال الاستقلال اللبنانيّ الأمير مجيد أرسلان الذي طالما كان على رأس وزارة الدفاع في أكثر الحكومات التي عقبت الاستقلال في بقيّة عمره. ويكمل اليوم رجال أفذاذ من الموحّدين الدروز في لبنان الأدوار التي لعبها آباؤهم وأسلافهم، متميّزين بلبنانيّة عربيّة صادقة وفاعلة ورائدة وجريئة.

---

١ ـ جنبلاط، هذه وصيتي، ص٤٣ ـ ٤٤.

في الأحداث التي عصفت بلبنان في خلال الربع الأخير من القرن العشرين، دفع الموحّدون الدروز غاليًا، مثلهم مثل سائر المجتمعات الدينيّة اللبنانيّة، ثمنًا لِما خلّفته تلك الأحداث الدامية من أضرار في الأرواح والممتلكات. فقد فُرضت تلك الحرب عليهم كما فُرضت على سواهم من اللبنانيّين، ذلك بالرغم من أنّ العقيدة الموحّدة الدرزيّة ليست عقيدة منعزلة جامدة، إنّما هي عقيدة متطوّرة منفتحة على جميع الأديان. فإنّ "جميع الناس في النهاية، يلتقون على الشواطئ المتقابلة ليغرفوا الماء ذاته من الأوقيانوس ذاته، وإنّما، في جهلهم، يختلفون على درجة ملوحة أو عذوبة مياه البحر، كلّهم، في النهاية، نصارى، كلّهم، في النهاية مسلمون"[1].

---

١ ـ جنبلاط كمال، لبنان في واقعه ومرتجاه، محاضرات الندوة اللبنانيّة، السنة الحادية عشرة، النشرة الأولى، ص٥٧٠.


Bibliotheca Alexandrina
0586485